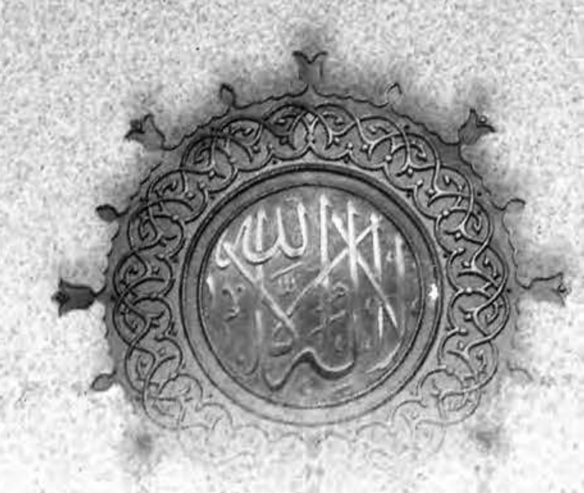




العقيدة الإسلامية

للعلامة محمد المكي بن مصطفى بن عزوز
ولد سنة ١٢٧٠ - وتوفي سنة ١٣٣٤
رحمه الله تعالى

شرح
مجد بن أحمد مكي



دار نور المكتبات

العقيدة الإسلامية

للعلامة محمد المكي بن مصطفى بن عزوز
ولد سنة ١٢٧٠ - وتوفي سنة ١٣٣٤
رحمه الله تعالى

شرح

مجد بن أحمد مكي

دار البشائر الإسلامية

دار نور المكتبات

الطَّبْعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م

دار نور المكتبات
السعودية - جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي
هاتف وفاكس : ٦٨٣٨٠٥١ - ص.ب : ٤٠٣٧٤ - الرمز البريد : ٢١٤٩٩

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع هاتف : ٧٠٢٨٥٧ - فاكس : ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
بيروت - لبنان ص.ب : ١٤/٥٩٥٥
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التقـدمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأزكى الصَّلاةِ ، وأتمُّ التسليمِ على المبعوث رحمةً للعالمين ، وحجَّتِهِ على النَّاس أجمعين ، نبيِّنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا، سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه ، ومن سَارَ على دربه ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين ؛ أما بعد :

فهذا كتاب " **العقيدة الإسلامية** " للعلاَّمة الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزُّوز المتوفى سنة ١٣٣٤ رحمه الله تعالى . الَّذِي أَلَّفه ليكون رسالةً مختصرةً لحفظِ عقائد طلبة المكاتب وغيرهم ، كما ذكر ذَلِكَ في عنوان رسالته . وقد طُبِعَت هذه الرسالة في حياة مؤلِّفها في الآستانة سنة ١٣٢٨ أي منذ أكثر من تسعين عاماً .

وتعودُ صِلَتِي بالمؤلِّف إلى زمنٍ بعيد ، عندما كنتُ أقرأ مؤلَّفات العلامة محمد الخضِر حسين[١] رحمه الله تعالى التي عرَّفني بِهَا ، وحثَّني على قراءتها أستاذنا العلاَّمة الكبير الشيخ عبدالرحمن زين العابدين الشافعي الأنطاكي ثم الحلبي ، المولود بأنطاكية سنة ١٣٣٠ ، والمتوفى بحلب سنة

---

(١) أشرف على جمعها وطباعتها والعناية بِهَا ، ابن أخيه الأستاذ الفاضل المحامي علي الرضا بن زين العابدين الحسيني الدمشقي جزاه الله خيراً .

١٤١٠ رحمه الله تعالى . فكنتُ أجد في خاتمة كلِّ كتابٍ قائمة بأسماء مؤلَّفات خال الشيخ محمد الخضر حسين : العلاَّمة الشيخ محمد المكي بن عزُّوز، فأُعجبُ بكثرتها ، وتنوُّع موضوعاتها ، وأتمنَّى الاطلاعَ عليها .

وتعودُ صِلَتي بهذه الرسالة ، عندما بدأتُ الكتابة في مناهج العقيدة الإسلامية لتدريسها في بعض المعاهد الشرعية ، والحلقاتِ العلمية[1] ، فأخذت أبحث عمَّن كتب من المؤلِّفين في هذا الموضوع ، ووَقفْتُ على عدَّة كتب منهجيَّة دراسيَّة ، ومن أبرز ما اطَّلعتُ عليه هذه الرسالة التي صَغُر حجمُها وكبرت فائدتها ، وقد وقفت عليها مطبوعة في مكتبة الشيخ عبدالقادر الشَّلبي الطرابلسي المدني رحمه الله تعالى ضمن مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة ، فصوَّرتُها وقرأتُها واستحسنتُها ، وَعَزمتُ على خدمتها وشرحها ، وقد وفَّق الله سبحانه وتعالى وأعان ، فله الحمدُ، وله الشُّكر ، وله الثناءُ الحَسَن الجميل .

---

(١) وقد وفقني الله عزَّ وجل لإصدار ثلاثة كتب أولها :" البيان في أركان الإيمان" و" الجمان في أصول الإيمان " ، و شرح " تسهيل الوصول إلى الثلاثة الأصول" ، ورابعها هذا الكتاب الَّذي بين يديك ، وتتلوه أعمال أخرى ، أسأل الله سبحانه بمنّه وكرمه أن يوفّقني لإتمامها .

وهذه الرسالة التي أقدِّم لها طُبعت في إحدى وعشرين صفحة فقط، وَعَرَضَها المؤلِّف بطريقة السؤال والجواب ، وبلغ عدد أسئلتها واحداً وأربعين سؤالاً .

أَلَّف ابن عزُّوز هذه الرسالة عندما كان مدرِّساً بدار الفنون في الآستانة ، وأشار في مقدمة رسالته إلى تاريخ تأليفها ، وَمَقْصده منها .

أما تاريخ تأليفها : فهو في أوائل عهد الاتحاديين ، ولذلك قال : " لَّما منَّ الله تعالى على البلاد العثمانية بالإطلاق من قَيْد الاستبداد ، وتضييق العلوم والمعارف تنفَّسَتْ صدور الأمة ، واتَّحدوا في سبيل الترقي بعلوِّ الهمَّة" . ويبدو جلياً من ثنايا هذه الكلمة الموجَزة التي استهلَّ ابن عزُّوز بهَا رسالته أنَّه قد أحسنَ الظنَّ بحركة الاتحاديين في بدوِّ أمرها ، وأمَّل فيها خيراً ، ولم يكن ابنُ عزُّوز الوحيد الَّذِي أحسن الظنَّ بتلك الحركة ، فقد شاركه في ذَلِكَ معظمُ رجال الفكر والأدب والسياسة ، غير أنَّ هذه الحركة تكشَّفت عن أَسْوأ كارثةٍ حاقَتْ بالعالم الإسلامي : هدم الخلافة ، وترسيخ الحياة العلمانية [1] .

---

(١) وانظر تتبعاً جيداً لهذا الموضوع في كتاب " الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر " ٢:٤٤-٤٥ للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله تعالى .

وأمَّا مَقْصده من هذه الرسالة : فهو حاجةُ طلاب المدارس إلى رسالةٍ تحفظ عقائدهم ، خاصة وأنَّ " الحظ الوافر من الدروس لعلوم الطبيعيات، ولا يستغني عنها الطلبة في باب ما يؤول للصناعات" . كما يقول المؤلف.

وشعر المؤلف في مَطْلَعِ ذَلِكَ العصر بتأثُّر الناشئين بالحضارة الغربية، وانبهارهم بمكتشفاتها العلمية ، فأراد أن يبيِّن تظاهر النقل مع العقل ، وأنَّه لا اختلاف بينهما ولا تباين ، " ولانزاع بين التفنُّن وعلم الدين لمن استكملهما ، وإنَّما يقع الخطأ ممن لم يستكمل علوم الدنيا ولا علوم الدين " ، و " لخفاء تطبيق العقل على النقل " .

فقام المؤلف -رحمه الله تعالى - بتأليف هذه الرسالة الصغيرة ، لحفظ عقيدة الإسلام في نفوس الطلبة ، ملاحظاً في معظمها " سدَّ الثغور المتوقَّع صدور الضرر منها " . وأراد من وراء ذَلِكَ أن يجمع الطلبة بين الفضيلتين : " فضيلة الدراية ، وفضيلة التمسُّك بالإسلام " .

ابتدأ المؤلف رسالته بتقرير بعض أسماء الله وصفاته ، وأنه سبحانه:" جلَّ أن يلحقَهُ تصوُّرٌ ، أو يشخِّصَهُ فكر ، فكلُّ مايخطر ببالك ، فربُّنا مخالفٌ لذلك " .

وأنَّ أفعاله وأحكامه سبحانه كُلَّهَا لحكمة ، لم يخلق شيئاً عبثاً .

ثم تكلم عن عالم الملائكة والجنِّ ، ووظيفة الجنِّ والإنس ، وبيَّن معنى الإيمان ، وعدَّ أركانه ، ومعنى الإيمان بالقدر ، وأثبت أنَّ للإنسان اختياراً في أفعاله .

ثم تكلَّم عن وظيفة العقل ، وأنَّه : " تابع للشرع وخادم له ، وأنه مخلوق لا يعرف من صفات خالقه إلاَّ ما عرَّفه خالقه ، فالعقل لا سبيل له إلى الحكم في المباحث الإلهيَّة - أي معظم الصفات الإلهيَّة - نفياً أو إثباتاً إلاَّ بتلقي علمها من إفادات النبوة ، وكذلك الأمور الأخرويَّة ، وما أخبر به الشرع مما غاب عن العَيان " .

ويؤكِّد على أنَّ " التبليغات النبويَّة بالقرآن والحديث الصحيح كُلّهَا مطابقةٌ للعقل ، وأنَّ كلَّ حكمٍ خرج عن هذه القاعدة فهو مظنونٌ أو موهوم من قائله ، بناءً على قياسات لن تطَّرد ، فلا يقين فيه ، ولايجوز اعتقاده " .

ويعدُّ هذه المسألة : وهي معرفة وظيفة العقل في هذا العلم هي إحدى النقطتين اللتين هما منبع السعادة والشقاوة ، والنقطة الثانية : اعتقاد قدرة الله وإرادته ، وأنه سبحانه بقدرته تنخرق نواميس الطبيعة ، كما أنَّ جريانها في سبيلها المعتاد هو بفضله وحكمه سبحانه . ويُصحِّح الخطأ في تفسير قول الله تعالى : ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** ﴾ بأنَّ المراد

بالسُّنَّة هنا : نصره لأنبيائه ، وليس المراد بالسُّنَّة : القانون الطبيعي في حوادث الكون كما توَهَّمَه بعضهم .

ويدعو المؤلف إلى المحافظة على هاتين النقطتين : معرفة وظيفة العقل ، واعتقاد قدرة الله وإرادته ؛ لأنهما جناحا المسلم اللذان يتخلَّص بهما من الفتن .

ثم عَقَدَ فصلاً يتعلَّق بالسموات والأرض ، بيَّن فيه أنَّ السمواتِ طباقٌ بعضها فوق بعض ، وأنَّ من نَفَى وجودَ السَّموات المفسَّر بلسان الشَّرع فقد جاهر بتكذيب القرآن . وذكر فيه أيضاً أنَّ السموات والأرض خُلِقَتَا في ستة أيام ، وأنَّ مقدار هذه الأيام كأيام الدنيا المعروفة ، وأنَّ الأرض كرة و مسطَّحَةٌ معاً ، ولا ينافي تسطيحُها كرويَّتَها .

ثمَّ عقد فصلاً يتعلَّق بالأنبياء عليهم السلام ، وصفاتهم ، وما الَّذِي يجوز في حقِّهم ، وبعض خصائص نبيِّنا محمد ﷺ ، وأنَّ أكبر معجزاته ﷺ القرآن . ثمَّ تكلم عن القرآن الكريم ، وأنَّه كلام الله نفسه، تكفَّل الله بصيانته من التبديل والتغيير ...وانتقل بعد ذَلِكَ إلى الكلام عن الكتب السماوية غير القرآن ، واستطرد بعد ذَلِكَ للحديث عن الشَّرع المحمَّديِّ ، وأنَّه مُصَدِّق للشرائع قبله ، ورافعٌ لحكمها ، فلا شريعة بعد بعثته ﷺ إلاَّ شريعته ، وأنَّ شريعة الإسلام هي أجمع الشرائع وأيْسرها.

وأكَّد على أهمية الحديث النَّبوي الصحيح ، وأنَّه له حكم القرآن في الطاعة والإيمان ، وأنَّه محفوظ عند أهله ، لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص .

وانتقل بعد ذَلِكَ للإجابة عن سبب الاختلاف بين أئمة المذاهب مع أنَّ شريعتهم واحدة ؟ فأجاب عن هذه الشُّبهة ، وبيَّن أنَّ اختلافهم لايقدح في الشريعة ولا فيهم ...

وحذَّر بعد ذَلِكَ من تفسير القرآن بما يخالف الثابت من علم الكتاب والسنة ، بمُقْتضى القواعد التي انتهى إليها تفنُّن أهل العصر ، وردَّ على زعم داروين ومن تبعه في أنَّ أصل البشر : النشوء والارتقاء ؛ لأنَّ اعتقاد ذَلِكَ مجاهرةٌ بردِّ كلام الله ورسله .

ثمَّ تكلَّم عن أصلٍ عام من ضروريات الإيمان واليقين : وهو أنَّ مشيئة الله وقدرتَه تنقض حكمَ الطبيعة ، ومن ذَلِكَ : آيات الأنبياء ، وردَّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ تلك المعجزات وقعت بوجهٍ طبيعي غير معروف لا يخرق العادة ، وبيَّن أنَّ مُؤَدَّى هذا القول : نسبة العجز للقدرة الإلهية ، وعزلُ الخالق عن التصرُّف في مخلوقاته .

ثم ذكر بعض مظاهرِ قدرة الله سبحانه ، وأنَّه سبحانه خالق الأسباب والمسبَّبات .

ثمَّ عَقَدَ فصلاً في البدع المتعلِّقة بالعقيدة ، وأنَّه لايجوز أن يوصف

الله تعالى بما لم يثبت في الشرع ، وأنَّ أسماءه وصفاته توقيفيَّة ، وتحدَّث عن الكرامات ، وأنَّها فَرع المعجزات ، وأنَّ شرط الكرامة أن لاتخرق حكماً شرعياً .

وانتقل في الفصل الأخير لذكر الآخرة وعوالمها ، ابتداءً بالموت بالأجل المحدود ، ونعيم القبر وعذابه ، وسؤال المَلَكَيْن ، والبرزخ ، وبيَّن أنَّ العوالم الأخروية لا تُدرك بالقواعد والقياسات والتنظير بما نراه من المكتشفات .

وأما علامات الساعة فلم يتكلم عنها ، وفوَّض بيانها إلى المعلمين، واكتفى بالإشارة إلى سدِّ ذي القرنين ، لارتباطه بشرط من أشراط السَّاعة كما قال تعالى :﴿ **حتَّى إذا فُتِحَت يَـأْجُوجُ ومَـأجُوجُ وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ واقْتَرَبَ الوَعدُ الحقُّ** ﴾[الأنبياء :٩٦-٩٧].

فحدَّد مكانه ، وردَّ على مَنْ أنكر وجوده ، بدعوى عدم العثور عليه مع كثرة السِّياحات ؟!!

ثمَّ تابع الحديث عن البعث ، والحشر ، والشفاعة الكبرى المحمَّديَّة، ثم الحساب ، والميزان ، وتطاير الصحف المحتوية على الحسنات والسَّيِّئات ، والحوض المحمدي ، والصِّراط والأعراف ، والجنَّة والنَّار وأنَّهما مخلوقتان ، والنَّعيم والعذاب محسوسان حقيقة لا مجازاً .

وأعلى نعيم الجنَّة : رؤية العبد ربَّه بالبصر ، ثمَّ بيَّن حكم المؤمن العاصي إذا مات بلا توبة .

وختَمَ كتابَه بالإجابة عن السؤال الأخير في نفع الدعاء ، وأهمية الاستعاذة بالله وأسمائه وصفاته ، والأخذ بأسباب المنافع وتجنُّب أسباب المضار ، وتحقيق التوكل على الله عزَّ وجل ، وبهذا تمَّت هذه الرسالة النافعة الماتعة الموجزة المفيدة .

وهذا الاستعراض السَّريع لموضوعاتها لا يُغني عن قراءتها وإنعام النظر فيها .

وممَّا تتميَّز به هذه الرسالة مع إلمامها بجوانب العقيدة الإسلامية بشمول واختصار ، أنَّها امتازَت بكثرة الاستدلال بآيات القرآن الكريم ، ولاشكَّ أنَّ أفضل المناهج لدراسة العقيدة إنَّما هو منهج القرآن الكريم ، وبيانه : السنَّة النبويَّة المطهَّرة .

يقول العلامة الشيخ حسين والي [1] رحمه الله تعالى في كتاب "التوحيد " ص٧٧ :" في القرآن غنىً للعاقل ، فإن شاء احتجَّ به عقلياً ؛

---

(١) الأستاذ بالأزهر الشريف ومدرسة القضاء الشرعي ، وعضو مجمع اللغة العربية ، وعضو هيئة كبار العلماء ، ورئيس لجنة الفتوى بالجامع الأزهر ، توفي لست خلون من ذي الحجة سنة ١٣٥٤=١٩٣٦رحمه الله تعالى .

لأنَّهُ موافقٌ للعقل ، وإن شاء احتجَّ به شرعياً ، وإن شـاء احتجَّ بـه عقليـاً وشرعياً معاً .

جاء اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقالوا : انْسُـبْ لنـا ربَّـك ، فَقَـرأ عليهـم سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾[1] ولم يقم دليلاً عقلياً غير شرعي .

دراسة القرآن أَوْلَى من دراسة كتب الكلام الآن ، إنَّ في القـرآن دلائل عقليَّةٍ مؤثِّرة تأثيراً كبيراً في النفوس . ولا كذلك الدلائل العقلية التي يذكرونها في كتب الكلام .

علم الكلام حادثٌ في الملَّة الإسلامية ، ومشى فيـه النَّـاسُ صَـدْراً بعد صَدْرٍ ، وكلٌّ منهم يقدِّر صحة العقائد ، ويستنهضُ الحجج والأدلـة ، وما فعلوا ذَلِكَ إلاَّ لوجود خصومٍ من المبتدعة وغيرهم ، فكانوا معذوريـن فيما كتبوا .

أمَّا الآن فقد ذهبت تلك الخصوم ، وجاءت خصوم آخرون ، فـلا يليق فرضُ الذاهبِ حاضراً ، وتركُ الحاضر الَّذِي لايردُّه إلاَّ كتابُ الله إذا بيَّنه الرادُّ على وجهه ، وكان له عقل .

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥:١٣٣-١٣٤ ، والترمذي في " جامعه " (٣٣٦٤) ، والحاكم في " المستدرك " ٢:٥٤٠ من حديث أُبي بن كعب ﷺ .

أَمِنَ العقل و الحزم أن يتوجَّه الإنسان إلى مبـاراة خَصْـم موهـوم ، وترك الخصم الموجود الَّذِي ضيَّق عليه المسالك ، وأوشك أن يُميته موتاً ؟ إنَّ هذا لهو البلاء المبين .

أَمِن الحزم الردُّ على فرقة من فرق المسـلمين ليـس لهـا اسـم إلاَّ في الكتب ، وترك الرد على طاعن في الدين الآن ؟!!

أَمِن الحزم أن يضيِّع الإنسان عمره في الانشغال بخصوم موهومـة ، ربما كانوا ناجين ؛ لأنهم غير كافرين ؟! .

مضى زمن الفتح بالسَّيف (كذا!!)، وأتى زمن الفتح بـالعلم ، ولا علـم إلاَّ علـم الكتـاب والسـنَّة ، فـإنَّ دلائله أقوى الدلائـل وأوثقهـا . والخاضع لها أصحُّ إيماناً من الخـاضع للسَّيف، فيجب الاشتغال بالكتـاب والسنَّة ،فإنَّ فيهما الهداية إلى العلوم النافعة ،وفي مقدمتها العقائد الإيمانية".

وَمِمَّا امتازت به هذه العقيدة أيضاً : إضافة إلى ما حَفَلَـت بـه مـن الاستدلال بالآيات القرآنية : جزالة لفظها ، وروعة أسـلوبها ، ولا غرابـة في ذَلِكَ فكاتبها شاعرٌ وأديب ، ومن روائع تلك الألفاظ ، قوله :" ونتائج الأفكـار لا تقـاوم وحـي الجبـار " ، وقولـه في حفـظ القـرآن مـن التبديـل والتغيير : " فمن سَعَى في تحريفه لفظاً أو معنىً يفتضح ، وعجزُه يتَّضح ".

وقولـه في الكرامـات بأنَّهـا :" فَـرع المعجـزات ، نالوهـا باتِّبـاع

الأنبياء، وسرِّ الاقتداء ..وشرط الكرامة : ألا تخرق حكماً شرعياً " وهو في هذا الكلام الموجز البليغ ذكر قيداً علمياً مهماً ، أغفلته كثير من كتب العقائد عند الكلام عن الكرامات ، وهو أن لا تخرق الكرامة حكماً شرعياً .

ومع هذه المزايا الكثيرة التي دعتني إلى شرح هذه العقيدة ، فهناك بعض الملاحظات اليسيرة ، التي لا يخلو منها عملٌ بشريٌّ ، فمن ذَلِكَ : عدم الترابط في بعض مباحث الرسالة ، وتفرُّقها في عدة مواضع ، فهو بعدما بَدَأَ حديثه عن أسماء الله عزَّ وجل وصفاته في أوَّل الرسالة عاد للكلام عن هذا الجانب في آخر الرسالة في السؤال ٢٨و٢٩ : بدعة العقيدة في هذا العلم ، وأنَّ صفاتِهِ وأسماءَه تعالى توقيفيَّة ، وموقعها يتعلَّق بأسماء الله وصفاته في أوَّل رسالته . وتكلَّم بعدها في السؤال ٣١ عن كرامات الأولياء ، ومكانها الألْيَق بعد المعجزات .

وَمِمَّا يلاحظ أيضاً على هذه الرسالة النافعة ذكره بعض المسائل التي لاصلة لها بالعقيدة ، كالقول بكرويَّة الأرض ، وإن كانت الدلائل تؤيِّد قوله ، ولكن هذه المسألة لا تتصل بالعقيدة .

وكذلك ذكره سبب الاختلاف بين أئمة المذاهب ، وخصائص الشَّريعة ومزاياها ، وتوسُّعه في ذكر معجزات الأنبياء ، وعدُّه من ذَلِكَ :

قصَّة أصحاب الكهف ، وخلق آدم بلا أبوين ..فهي لا تدخل في تعريف المعجزة ، وقد نبَّهت في تعليقاتي إلى أن تسميتها بالآيات أَوْلَى.

وكذلك استطراده إلى تحديد موقع سدِّ ذي القرنين في جهة القُطْب الشمالي . نعم الإيمان بوجود السدِّ كما قال المؤلف : " ثابت ، وإنكاره ردٌّ للقرآن" ، أما تحديد جهته فهو أمرٌ اجتهادي لا يتَّصل بالعقيدة .

على أنَّ هذه الملاحظات والاستطرادات كانت سبباً في إغناء مباحث هذه الرسالة والتوسُّع في التعليق عليها ، وزيادة النفع بِهَا ، فجزى الله مؤلِّفها خير الجزاء .

وبعد : فهذه الرسالة – أيُّها القارئ المستفيد- بين يديك أقدِّمها إليك ، مضبوطةً مُصَحَّحةً مشروحةً ، وقد اسْتَضَفْتُ في هذه الرسالة طائفة من كبار أعلام الإسلام من المفسِّرين والمحدِّثين و اللغويين ، واعتمدتُ على كتب أئمة الإسلام الثقات ، وسينتقل القارئ أمام هذه المأدبة بين أطايب الكلام ، وروائع الفكر ، وبدائع الفوائد ، وقلائد الفرائد .

وقد أسهبتُ في بعض التعليقات حتى أصبحت مباحث مستقلة ، وغدا الشَّرحُ كتاباً جديداً ، وأبقَيْت هذه التعليقات موصولةً بتلك

الرسالة، إحياءً لذكر مؤلِّفها ، وإتماماً لِما بدأه وشيَّده ، فخيرٌ للأحفاد أن يُكملوا عمل الأجداد ، وأن يحافظوا على ما خلَّفوا من تراث علميٍ ، ويوثِّقوا صلةَ الأجيال اللاحقة به .

وقد حرصت في تلك التعليقات على إعانة المدرِّس في أداء مهمته التعليمية ، بتزويده بالمعلومات الوفيرة التي يجدها في متناول يديه ، وفيها تدريبٌ لطلاب العلم للتعرُّف على كثير من المباحث والمصادر وتوثيق صلتهم بِهَا .

وقد بذلتُ في هذا الشَّرح وسعي ، ووضعت فيه عصارة بحثي، وما كتبتُ هذا الشَّرح إلاَّ لطلاب العلم المستفيدين المخلصين ، ولم أكتبه لأنالَ مرتبةً علميَّةً ، أو ترقيةً دنيويةً ، وإنَّما قَصدت الخيرَ والنَّفعَ والنُّصحَ.

وحسبي أن أكونَ قد أحْيَيْتُ أثراً علمياً مَنْسيّاً ، وأخرجت شرحاً جديداً ، وقدَّمت علماً نافعاً مفيداً ، أسأل الله سبحانه أن يكتبه لي في صحائف حسناتي ، وأن يتقبلَّه مني بالقَبول الحَسن ، وأن ينفع بما كتبت ويدَّخره لي ليوم الدين ﴿ **يومَ لاينفعُ مَالٌ ولا بَنونَ إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بقَلْبٍ سَليمٍ** ﴾ . وصلى الله وسلَّم على سيِّد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

جُدَّة - الخميس / غُرَّة ربيع الآخر ١٤٢٠هـ

وكتبه

محمد مكي

العلاَّمة محمد المكّي بن عَزُّوز[(١)]

هو العلاَّمَة المحدِّث المفسِّر ، المُقْرِئ ، الفقيه ، الفرَضي ، الفلكي ، القاضي المفتي ، الأديب الشاعر ، الرحَّالة المسنِد ، السيد محمد المكي بن

(١) مصادر ترجمته: في مقدمة رسالته "السيف الرباني" المطبوعة بالمطبعة الرسمية بتونس عام ١٣١٠هـ ، وفي مقدمة رسالته "عقيدة الإسلام" المطبوعة في تونس عام ١٣٦٦=١٩٤٧ ، كتَبَها تلميذه الأستاذ مُحْسِن زكريا ، و"شجرة النور الزكية في طبقاتِ المالكية" لابن مخلوف ص٤٢٣ ، و "عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب " للشيخ محمد النيفر ، وتذييل واستدراك ابن المؤلف الشيخ علي النيفر ٢: ١١٢٧-١١٣٥ ، و"تراجم الأعلام" للفاضل بن عاشور ١٨٧-١٩٣ ، و "تراجم المؤلفين التونسيين" ، للأستاذ محمد محفوظ ٣: ٢٨٢-٣٩٠ ، و "فهرس الفهارس" ٢: ٨٥٦ للشيخ محمد عبدالحي الكتاني ، و "الأعلام" للزركلي ١٠٩:٧ ، "ومعجم المؤلفين" ٤٩:١٢-٥٠ . وقد جَمَعَ بعض هذه التراجم الأستاذ علي الرضا الحسيني التونسي في مقدمة "رسائل ابن عَزُّوز" ، و في كتاب "محمد المكي ابن عَزُّوز حياته وآثاره" ، وللأستاذ الفاضل المحامي السيد علي الرضا ابن زين العابدين الحسيني التونسِي الدمشقي جهدٌ مشكورٌ في جمع آثارِ أسرته العلمية والعنايةِ بنشرها جزاه الله خيراً، والمكِّيُّ ابن عَزُّوز خال والده العلاَّمة السيد زين العابدين التونسِي المتوفَّى بدمشق سنة ١٣٩٧ رحمهم الله تعالى.

مصطفى بن محمد بن عزُّوز [1] البُرْجي النفطي الحَسَني الإدْريسي المالكي التونسي.

ولادته:

ولد في ١٥ رمضان ١٢٧٠ في مدينة (نفطة) بأرض الجريد في الجنوب التونسي.

نشأتُهُ وطلبه للعلم:

نشأ ابن عزُّوز في بيئةٍ صالحةٍ عِلمِيَّةٍ ، وتولَّى والده العالم الصالح التَّقِيُّ تربيتَهُ وتوجيهَهُ ، وتعلَّمَ في زاويةِ والده الشهيرة الَّتِي تُعرف حَتَّى اليوم باسم (زاوية سيدي مصطفى) ، وحفظ القرآن في تلك الزاوية وهو في سِنِّ الحاديةَ عشرة من عمره ، واعتنى بحفظِ المتون ، واجتهد في مزاولةِ مبادئِ العلوم .

شيوخه وقراءاته في نفطة:

كانت توزر ونفطة في عهده آهلتَيْن بالعلم ، زاخرتَيْن بالأدب ، ناشطتَيْن في حركة التأليف والتدريس حتى اشتهرتا باسم الكوفة والبصرة.

(١) عزُّوز : صيغة تمليح وتدليل لِكُلِّ اسم من مادة (عزَّ) نحو : عز ، وعزيز ، وعزت ، وعبدالعزيز ، وغيرهم . كما في " معجم أسماء العرب " ١١٦١:٢.

قرأ على الشيخ قاسم الخيراني "شرح الشيخ خالد الأزهري على الآجُرُّومِيَّة" ، و "شرح ميَّارة على ابنِ عاشر" في الفقه ، وقرأ "الرَّحْبِيَّة" و"الدرَّة البيضاء" في علم الفرائض ، و "مبادئ علم الفلك" على ابن عمِّه الشيخ محمد بن عبدالرحمن التارزي ، وقرأ "ألفيَّةَ ابن مالك" بشروحها ، و "مختصر خليل" بشروحه على الشيخ النُّوري بن أبي القاسم الزيدي النفطي ، وقرأ "الترمذِيَّ" على عمِّه الشيخ محمد المدني بن عزُّوز.

شيوخه في جامع الزيتونة:

انتقل من نفطة إلى مدينة تونس ، وهو في الثانيةِ والعشرين من عمره، سنة ١٢٩٢ للتلقي على كبار الشيوخ من علماء جامع الزيتونة ، فَأَخَذَ القراءات السبع على الشيخ محمد البشير التواتي (ت ١٣١١) ، وقرأ على العلامة عمر بن الشيخ [1] (ت١٣٢٩) : "المحلِّي على جمع الجوامع"

(١) ومن شعر الشيخ مكي بن عزُّوز في أستاذه عمر بن الشيخ حين ختم كتاب "المواقف" :

إذا عُمَرُ بنُ الشيخ وافى درسه ... تعال التقطْ دراًّ بملء جفان

وقال فيه لما تولى الفتوى :

بكَ جامعُ الزيتونة السَّامي غدا ... في العدِّ لايرضى بغير الخنصر =

في الأصول ، و "الموطأ" ، و "مختصر السَّعد" وغيرها ، وقرأ "مقامات الحريري" على الشيخ محمد النجار (ت ١٣٣١) .

ومن أساتذته في جامع الزيتونة: الشيخ مصطفى بن علي رضوان (ت١٣٢٢) ، والشيخ محمد الشاذلي بن صالح(١٢٢٥-١٣٠٨) ، والشيخ أحمد بن الخوجة(١٢٤٥-١٣١٣) ، والشيخ سالم بو حاجب(١٢٤٤-١٣٤٢) أخذ عنهم مختلف العلوم والفنون.

وشيوخ المترجَم ومجيزوه يقربُ عددهم من الثمانين ، وهذه الكثرة نادرةٌ في المتأخّرين[1].

تولّيه الفتوى والقضاء:

وَمِمَّا يدلُّ على تفوُّقه العلمي ونبوغه المبكر ، تولّيهِ المناصبَ العلمية الرفيعة ، وهو في مقتبل الشباب.

فقد أُسند إليه منصب الفتوى في مدينة نفطة سنة ١٢٩٧ ، وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وتولى القضاء بمدينة نفطة سنة ١٣٠٥هـ.

= يريد أن أصبع الخنصر أول الأصابع في العدِّ والحساب ، نقلاً من كتاب "دراسات في الشريعة " لمحمد الخضر حسين ، مقال " الأدباء العلماء " ص١٦٧-١٦٨.

(١) فهرس الفهارس ٢: ٨٥٩-٨٦٠ .

رحلته إلى الجزائر:

قَصَدَ بلاد الجزائر في سنة ١٣٠٧ ، واتَّصَلَ بالشيخ محمد بن أبي القاسم الشريف الحسني صاحب زاوية "بوسعادة" من سلسلة جبال الزاب، المعروفة بزاوية الهامل ، وألَّفَ كتاباً في ترجمته سمَّاه: "بروق المباسم في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم".

كما اتَّصَلَ بالإمام المعمَّر المحدِّث الشيخ علي ابن الخفّاف مفتي المالكية في مدينة الجزائر.

ثُمَّ رَحَلَ لمصر والحجاز والشام ، واجتمع بكثيرٍ من الأعْلام ، واستجاز وأجاز ، وأفاد واستفاد.

انتقاله إلى تونس:

انتقلت عائلة الشيخ محمد المكي بن عزُّوز من نفطة إلى مدينة تونس العاصمة سنة ١٣٠٩ ، وسكن فيها ، وانصرف إلى التدريس ، وَأَقْرَأَ بجامع الزيتونة "شرح الدردير على خليل" ، و "صحيح البخاري" و "الجامع الصغير" ، فكان في دروسه مَنْهَلاً عذْباً موروداً ، امتازَت دُرُوسُهُ بغَزَارةِ المادة ، وفَصَاحَةِ القول ، وعلوِّ الأسلوب ، وكثرةِ الإقبال ، فكان المتردِّدون على دروسه من عامَّةِ المستفيدين غير الطلبة لا يقلُّون أحياناً عن

عدد الطلبة الكثير المتزايد ، ومن أشهر تلامذته: ابن أخته[1] العلامة محمد الخَضِر الحسين شيخ الأزهر[2] المتوفى سنة ١٣٧٧، والزعيم السياسي

---

(١) السيدة حليمة السعديَّة بنت مصطفى عَزُّوز ولدت بتونس سنة ١٢٧٠ وتوفيت بدمشق سنة ١٣٣٥ ، من الشهيرات المشهود لها بالصلاح والتقوى والعلم ، وقد أَخَذَ عنها أولادُها مبادئ العلوم الشرعية واللغوية.

قال ابنها محمد الخضر في رثائها في ديوانه " خواطر الحياة " ص٢٢٤ :

بنت عــــزُّوز لقد لقّـــنتنا خشية ا لله وأن نـــرعى الذّماما

ودَرَيْنا منـــك أن لا نشتري بمــعالينا من الدنيا حــــطاما

ودرَيْنا منــــــك أنَّ ا لله لا يخذُل العـــبدَ إذا العبدُ استقاما

ودرَيْنا كيـــــف لا نعنو لمن حارب الحقَّ وإن سلَّ الحُسَاما

(٢) قال العلامة محمد الخضر الحسين في مجلة "السعادة العظمى" عن خاله ابن عَزُّوز ص٢٠٧: "أستاذي الَّذِي شبت في طوقِ تعليمه فكرَتي ، وتغذّيتُ بلبان معارفه من أوَّلِ نشأتي ، العلامة الهمام القدوة خالي الشيخ سيدي محمد المكي بن عَزُّوز"

وقال في "خلاصة الرحلة الشرقية" المنشورة ضمن كتابه "الرحلات"ص٩٤: "كان خالي العلامة القدوة الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي بن عَزُّوز قد كتبَ لي كتاباً من الآسِتانة بثّ في مَطْوِيِّهِ الشوق إلى اللقاء ، وقد مضى لنا في مدة فراق فضيلته خمس عَشْرة سنة ، فانتفض الفؤاد اشتياقاً إلى زيارته المؤكدة بواجب القُرْبى ، وحق الدروس الَّتِي كَانَ قد ملأ أسماعَنا =

الكاتب الخطيب المؤرِّخ الشيخ عبدالعزيز الثعالِبي المتوفّى سنة ١٣٦٣ رحمهما ا لله تعالى[1] .

مناهضته للاحتلال الفرنسي:

وكان يبعث في نفوس تلاميذه الذين يتلقون دروسَهُ روحَ التضحية ومقاومة المحتل ، كما كان تحت المراقبة المستمرة من قبل الدولة الفرنسية المحتلة ، وشملت مراقبتها له : الجزائر وتونس ومصر وتركيا وَأَوْلَت اهتماماً كبيراً لاتصالاته الدينية . كما تشير إلى ذَلِكَ تقارير أجهزة الأمن الفرنسي.

= بجواهرها الثمينة.. وعند أول اجتماعنا بالسيد حسن ظافر بالآستانة قال له حضرةَ الأستاذ على وجه التواضع والتنازل: هذا ابن أختي قرأ عليَّ ، ولكنه صار الآن أرقى رتبة ، فقال له السيد حسن: نحن لا يمكننا أن نعتقد أن يبلغ شَأْوَكَ أحدٌ ، فضلاً أن يفوقك" انتهى من كتاب "الرحلات" ص٩٤ و١٠٩.

(١) قال الأستاذ محمد الصادق بسيس في تعليقه على كتاب "النازلة التونسية" للشيخ محمد بن عثمان السنوسي عن العلامة ابن عَزُّوز: "أنَّ الشيخ عبدالعزيز الثعالبي يعدُّه من شيوخه بالزيتونة الَّذِينَ تَأَثَّرَ بفكرتهم الحرَّة ، ونزعتهم الإصلاحية ، وغيرتهم الوطنية".من كتاب " محمد المكي بن عزُّوز: حياته وآثاره " ص١٥٦.

ومن أعماله وجهوده في ميدان العمل الإسلامي تأسيسه لجمعية سماها : (**جمعية الشرفاء**) كان لها فروع في تونس والجزائر وغيرها [1] .

وأثناء زيارته للجزائر دعا إلى مقاطعةِ فرنسا اقتصادياً ، فطاردته سلطاتُ الاحتلال في كلٍّ من الجزائر وتونس ، فرحل إلى اسطنبول.

هجرته إلى دارِ الخلافة:

رَحَلَ العلامة ابن عزُّوز إلى اسطنبول سنة ١٣١٦ ، وكان مَحَلَّ تعظيمٍ وإجْلالٍ من السلطان عبدالحميد ، واعتنى بدراسة اللغة التركية حتَّى أتقنها وَبَرَعَ فيها ، وعُيِّنَ مدرِّساً للحديث الشريف في الكُلِّيَّة الإسلامية الكبرى (دار الخير) الَّتي عُرِفَتْ فيما بعد بـ "دار الفنون" ، وإثرَ وفاةِ الشيخ إسماعيل حقّي [2] (ت١٣٣١) أستاذ التفسير في الكلية ، أُسنِدَ هذا المنصب إلى الشيخ محمد المكي بالإضافة إلى تدريسِهِ علم الحديث.

---

(١) "محمد المكي بن عزّوز" ، للأستاذ علي الرضا الحسيني التونسي ص١٩ ، وذكر بعض تلك الوثائق التي اطّلع عليها من الملفِّ الخاص في (مركز الوثائق القومية) بتونس .

(٢) حفيد صاحب التفسير "روح البيان" العلامة المفسِّر الأصولي الواعظ الشيخ إسماعيل حقي المتوفّى سنة ١١٣٧ رحمه الله تعالى .

وعندما أنشأت الحكومة العثمانية كُلِّيةً أخرى بِاسْمِ "مدرسة الواعِظِين" عُيِّنَ فيها مدرِّساً ، وكان يلقي دروسه في المدرستين باللغتين العربيةِ والتركية.

مكتبته الخاصة:

كَانَ يَمْلِكُ مكتبةً من أنْدَرِ وأعزِّ ما عُرِفَ من الخزائنِ الخاصَّة في العالم الإسلامي ، وقد ضَمَّت النفائس الَّتِي آلَتْ إليه من كتبِ جدِّهِ ووالده ، ثُمَّ اقتنى هو من الفرائد الَّتِي كانت تصل إلى يده بالجزائر أو بالجنوب التونسي ، ولما استَقَرَّ بدار الخلافة نقل معه خزانة كتبه كلها مُتَكَلِّفاً في ذَلِكَ المشاق ، وهناك تمكَّنَ من توسيعِ مكتبتهِ الخاصَّة حَتَّى بلغَتْ مبلغاً من الشُّهْرَة.

أهمُّ مؤلفاته وآثاره المطبوعة والمخطوطة :

تَرَكَ الشيخ مكي بن عزوز كثيراً من الكتب والرسائل في مختلف الفنون ، كالتوحيد والحديث والتفسير والفقه والأصول والتجويد والقراءات والأَدَبِ والتاريخ ، شاهدةً على سَعَةِ عِلْمِهِ ، وسُمُوِّ مداركه [1] ، ومن تلك المؤلفات:

---

(١) قال العلامة محمد الخضر حسين في كتاب: "الرحلات" ص١١٣: "ولفضيلة الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي بن عزُّوز تآليف في مواضيع=

١- الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية - نظم[١] .

٢- الاحتواء في جواب من سأل عن الاستواء[٢] .

٣- اختصار الشِّفا ، للقاضي عِياض - لم يتم -.

٤- إرشاد الحيران في خلاف قالون لعثمان - في القراءات.

= متعددة أطْلعَني على بعضها ، ومن أنفسِها رسالة في العمل بالحديث ، وأنه حجةٌ في تقْرير الأحكام" انتهى.

وقال الأستاذ محمد محفوظ في " تراجم المؤلفين التونسيين " ٣:٣٨٤ : "وهو من أكثر المؤلفين التونسيين تأليفاً في القديم والحديث ، ولا يقاربه في كثرة الإنتاج من المعاصرين إلاّ الشيخ محمد المرزوقي ، وتآليفه استقصاها البغدادي في " ايضاح المكنون " وعليه المعوَّل في حصرها " انتهى . وذكر له الأستاذ محمد محفوظ ٨٦ مؤلفاً .

(١) طُبعت في القاهرة سنة ١٣٢٢هـ ، وعندي نسخةٌ منها ، وهي أجوبةٌ عن الأسئلةِ التي رفعها إليه العلاّمة الشيخ عبدالحفيظ بن عثمان القاري من الطائف ، وقد اطّلعتُ على مكتبته النادِرة النفيسة التي أوقفت على مسجد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بالطائف ، ثُمَّ نشرت هذه الأجوبة ضمن (رسائل ابن عَزُّوز) الّتِي جمعها الأستاذ علي رضا الحسيني ، وصَدَرَتْ الطبعةُ الأولى سنة ١٤٠٤هـ.

(٢) وهي رسالة أجابَ بها الشيخ إسماعيل الصَّفَايْحي قاضي حاضرة تونس (ت١٣٣٦)، حينما استُشْكِل مسألة الاستواء في العقيدة الإسلامية.

٥- إسعاف الإخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان.

٦- أصول الحديث[١] .

٧- إقناع العاتب في آفات المكاتب.

٨- إنارةُ الحَوالِك في أنَّ الرفع في الصلاةِ مذهبُ الإمامِ مالك.

٩- الإنصاف في تحريم الصور ، ولو مأخوذة بالفوتوغراف.

١٠- بروق المباسم في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم.

١١- تذكِرةُ المنصِفين في أنَّ المكتشَفات الجديدة لا تكذِّبُ الدين.

١٢- التفريح بحل الإشكال في صلاةِ التراويح.

١٣- التقرار المهذَّب في حلِّ تراجم الجوهر المرتَّب[٢] .

١٤- تلخيص الأسانيد - وهو الثبت المختصر.

١٥- التنزيه عن التعطيل والتشبيه.

١٦- تنظيف الوعا من سوء الفهم في آيةِ :﴿**وأنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلاّ ما سَعَى**﴾.

١٧- تهذيب التفاسير القرآنية.

١٨- حزمُ اليقظان في أنَّ الصلاح والفساد يسْرِيان من الخِلاَّن.

---

(١) طبعت في استانبول سنة ١٣٣٢، ونُشرت ضمن (رسائل ابن عَزُّوز).

(٢) طبع في المطبعة التونسية الرسمية سنة ١٣٠٢، وهو ضمن (رسائل ابن عَزُّوز).

١٩- الحقُّ الصريح في المناسك على القول الصحيح ، في مناسك الحج.

٢٠- حقيقةُ الأمر في تحريم البيرة والتداوي بِمَا فيه الخمر.

٢١- الدراية فيما ليس برأس آية[1] .

٢٢- ديوان ابن عزُّوز (شعاع الأدب) وهو حافلٌ من الشعر الرقيق ، جَمَعَ فيه الغالب من فنون الشعر.

٢٣- الذخيرة المكية في الخزانة المدنية - في الهيئة[2] .

٢٤- رائد النجعة فيمن تعجب من قولنا السَّدْل بدعة.

٢٥- الرحلة الجزائرية الهاملية.

٢٦- رَدُّ الذاهب فيما يقلّد وَمَا لا يقلّد من مسائل المذاهب.

٢٧- رَفْعُ النزاع في بيان معنى التقليد ومعنى الاتّباع.

٢٨- الرياض البواسم في رواية حفصٍ عن عاصم - في القراءات.

٢٩- الزُّلَف في ترجيح تفويض السلف على تأويل الخَلَف.

٣٠- السَّلوى والمن في مواضع حسن الظن وسوء الظن.

---

(١) طبعت في مطبعة الدولة التونسية سنة ١٢٩٥هـ ، ثُمَّ طبعت ضمن (رسائل ابن عزُّوز) ، وهو نظم من البحر الطويل يحتوي على اثنين وأربعين بيتاً .

(٢) نقلت عن مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس ، ونشرت في كتاب (رسائل ابن عَزُّوز).

٣١- السيف الربَّاني في عُنُقِ المعترض على ....الجيلاني[1] .

٣٢- شرح حديث كُمَيْل بن زياد في الردِّ على الطبيعيين.

٣٣- الصَّفْح السعيد في اختصار الأسانيد ، وهو منظوم.

٣٤- طبقات المحدثين ، وهو نظم أيضاً .

٣٥- طريق السلامة في هيئاتِ الناس يوم القيامة.

٣٦- طريق الجنة في تحليةِ المؤمنات بالفقة والسنة[2] .

٣٧- طي المسافة إلى دار الأمن من المخافة .

٣٨- عقيدةُ الإسلام -وهو هذا الكتاب الَّذِي بين يديك-.

٣٩- عُمْدَةُ الأثْبات في الاتصال بالفَهَارس والأثْبات[3] ، وقد ذَكَرَ فيه أنَّ الَّذِينَ أجازوا له عَامَّةً ينوفُ عددُهم عن الثمانين شيخاً ،

---

(١) طبع في المطبعة الرسمية في تونس سنة ١٣١٠ ، ثُمَّ أعاد طباعته الأستاذ علي الرضا الحسيني في كتاب "رسائل ابن عَزُّوز" ص ١٣٧-٣٤٠.

(٢) كتاب تعرَّض فيه لِما يختصُّ بالنساء في أحكام العبادات.

(٣) قال السيد محمد عبد الحي الكتاني في "فهرس الفهارس" ٢: ٨٦٠ : هي أفْيَد وأوسع ما كُتب في هذه الصناعة ، ألَّفَها باسمِنا عام ١٣٣٠ بالآستانة ، ولعلها آخر ما ألَّف.وقال أيضاً ٢: ٨٧٩ :"وبوقوفك على "العُمْدة" المذكورة تعلم وتتحقّق أنَّ الأستاذ ابن عَزُّوز كَانَ قد فذَّ عصرَهُ في سَعَةِ الرواية والاعتناء ، وعلوِّ الاهتمام والهمَّة ، وَأنَّ الصِّقْع التونسي ما أنْجب مثله في هذا الباب منذ أحقاب ، ولكنه مِمَّن ضَيَّعه قومُه ، و للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعد".

منهم نحو اثني عشر بالمراسَلة ، والباقي شفاهاً ، وذَكَرَ أسانيد الأثبات بعد ترتيبهم على حروف المعجم ، وعددهم نحو ١٤٨ ثَبتاً.

٤٠- عمدةُ الشيوخ في الناسخ والمنسوخ - لم يتم -

٤١- الفائدةُ في تفسير سورةِ المائدة - لم يتم -

٤٢- فتحُ الخَلاَّق في استكمال الإسلام لمحاسن الأخلاق.

٤٣- فتحُ السَّلام في نجاةِ مَنْ لم تبلغهم دعوةُ الإسلام.

٤٤- فتحُ القيُّوم في وجوب الفاتحة على المأموم.

٤٥- القولُ القيِّم في حال ابن تيمية وابن القيم.

٤٦- كشفُ الباس في كلماتٍ يقولها كثيرٌ من الناس.

٤٧- مجموع الأسانيد - وهو الثَّبَتُ الكبير.

٤٨- مروي الظِّماء في قوله تعالى :﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾

٤٩- مزيل الإشكال في آية : ﴿ **وَلَوْ أَسْمَعَهُم** ﴾ في سورة الأنفال .

٥٠- المسألة المهمَّةُ في سَبَبِ اختلاف الأئمة.

٥١- المِسْكُ الأَزْفر في بيان الحج الأكبر.

٥٢- مغانِمُ السَّعادة في فَضْل الإفادة على العبادة.

٥٣- المقالاتُ العزُّوزية في الأدب.

٥٤- المنبِّهات لحكم ذبائح القبور والمزارات.

٥٥- مورد المحِبين في أسماء سيد المرسلين ﷺ [١].

٥٦- النَّجْدة في زَجْر من تهاونَ بأحكام العِدَّة .

٥٧- النصيحة في الصلاة المفروضة الصَّحيحة.

٥٨- نظم جمع الجوامع.

٥٩- النَّفْح المِسْكي في قراءة ابن كثير المكي.

٦٠- النَّسْمة الحجازية في المذاكرة البنغازية[٢].

٦١- الهلال في بيان حركة الإقبال[٣] .

---

(١) طبع ضمن كتاب "محمدالمكي بن عَزُّوز - حياته وآثاره" ، ص٩٥-١٠٠ للأستاذ علي الرضا الحسيني.

(٢) توجد منه نسخة في ١٥ ورقة ، اطلعت عليها بمكتبة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، وعندي صورة منها ، وهي أجوبة عن أسئلة في العقيدة من الديار البنغازية، وصاحب الأسئلة هو الفاضل الشيخ بدر الدين البنغازي وتشتمل على أربع مسائل: الأولى تتعلق بالقضاء والقدر ، والثانية : بالكسب ، والثالثة : بالإرادة، والرابعة : بقوله تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ ، وجاء في آخر النسخة : تمَّ تحريره غرَّة شهر المولد النبوي سنة ١٣٠٤ أربع وثلاثمائة وألف على يد مؤلفه الحقير ، أخذ الله بيده، وختم له بخير وللمسلمين أجمعين ، والإذن التام لمن وجد فيه من المحققين بعد إمعان النظر خللاً أن يصلحه إعانة على الحق ، والثواب على الله بفضله ، والحمد لله رب العالمين .

(٣) توجد منه نسخة بخط المؤلف في خمس ورقات في مكتبة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، انتهى من كتابتها في أواخر قعدة الحرام سنة ١٣٠١ بتونس .

٦٢- هيئةُ الناسك في أنَّ القبضَ في الصلاةِ هو مذهبُ الإمام مالك[1].

وكذلك كانت له عِدَّةُ مقالاتٍ في عدد من الجرائد والمجلات كالحاضرة، والزهرة، وثمرات الفنون، والمقطَّم، والأهرام، والمؤيَّد، والهلال، وغيرها .. لو جُمِعَتْ لكانت سِفْراً جامِعاً للأدب والأخلاق والتاريخ.

---

(١) طبعت بمطبعة روشن باسطنبول عام ١٣٢٧هـ، وطبعت للمرةِ الثانية ضمن كتاب: "مرشد الحائض في صلاةِ العادل والقابض" بمصر عام ١٣٨٢هـ، وضمن مجموع "رسائل ابن عَزُّوز" بدمشق عام ١٤٠٤هـ، وقد ردَّ على هذه الرسالة الشيخ محمد بن يوسف الكافي (١٢٧٨-١٣٨٠) رحمه الله تعالى في رسالته "نُصْرة السالك على من أنكر مشهورية السَّدْل في مذهب مالك". ثُمَّ طبعت رسالة ابن عزُّوز: "هيئة الناسك" محقّقة، وصدرت عن دار طَيْبَة في الرياض سنة ١٤١٧هـ، وترجم المحقّق لمؤلفها ترجمةً مختصرةً جداً، واقتصر على ذِكرِ ستّة من مؤلفاته، وأفرد فصلاً في الكلام على عقيدته ص٢٠، واكتفى بنسبته إلى التصوف، دون أن يكلّفَ نفسه الرجوعَ إلى مؤلفاته في العقيدة -وبخاصةٍ هذه الرسالة التي قمتُ بخدمتها- والتي تشهد باعتداله وإنصافه واتّباعه لمنهج السلف الصالح، فنسأل الله سبحانه القصْدَ والإنْصاف، والتثبُّتَ ومُجانبةَ الاعتساف. وانظر ما يأتي في بيان منهجه العلمي ص٣٥-٤٤.

وكانت بينه وبين السيد محمد عبدالحي الكتاني مراسلات، قال الكتاني في "فهرس الفهارس"[1]: "وطالت مكاتبتي ومراسلتي معه واتّصالي بهِ إلى أن مات، بحيث لو جُمعت المكاتبات الَّتي جَرَتْ بيني وبينه لخرجَتْ في مجلدةٍ متوسطةٍ، وكلَّما تذكَّرْتُ موته أظلمَتِ الدنيا في عيني .. رحمه الله رحمةَ الأبرار" انتهى.

منهجه العلمي:

يتّسِمُ منهجُ ابن عزُّوز العلمي بالتَّحَرِّي والدِّقَّةِ، وسَعَةِ الاطّلاع، وتنوُّعِ المعارف، مع التحَلّي بالإنصاف والاعتدال.

قال العلامة المسند محمد عبد الحي الكتاني في "فهرس الفهارس"[2]: "وأعجب ما كان فيه الهيامُ بالأثر، والدعاء إلى السُّنّة، مع كونه كان شيخ طريقة، ومن المطَّلِعين على الأفكار العَصْرِية، وهذه نادرةٌ من النوادر في زماننا هذا الَّذي كَثُرَ فيه الإفراط والتفريط، وقَلَّ مَن يَسْلُكُ فيه طريقَ الوسط، والأخذ من كُلِّ شيءٍ بأحسنه، عاملاً على قوله تعالى: ﴿**وأمُرْ قومَكَ يأخُذُوا بأَحْسَنِها**﴾[3].

وقال العلامة محمد الخضر حسين: "وكان خالُنا وأستاذنا الشيخ المكي بن عزُّوز قد سافر إلى الآستانة، وتولى دراسة الحديث بدار الفنون.

---

(١) ٢: ٨٦١

(٢) ٢: ٨٥٦

(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٥.

وأُذيع عنه في تونس بأنه صار يقول بفتح باب الاجتهاد ، ولما لقيته بالآستانة ذكر بعض الحاضرين له هذه المسألة ، فقال: "إني مالكي المسائل الاجتهادية ، أما إذا ورد حديث صحيح فَأَعمَلُ به ولو خالف المذهب"[1].

ويقول ابن عزُّوز في قصيدةٍ أرسلها إلى المؤرِّخ عبدالعزيز الرشيد (١٣٠٥-١٣٥٧) مصوِّراً حالَ العلماء بين الإفراطِ والتفريط[2] :

ترى الفضلاءَ عن بدعٍ صُمُوتا ... ترى العلماء أشتاتاً عِزينا

فمنهم تاركٌ لسبيل طَه ... كأن لم يُبْصِر الهادي أمينا

ومنهج صالحي السَّلفِ المعلَّى ... رَأَوْهُ ضَلالةً نهجاً حزونا

ومنهم مُفرطٌ يبغي دليلاً ... فيعدلُ عن سبيل الراشِدينا

يُحَرِّفُ آيةَ القرآن قصْداً ... لفكر راقَهُ ماذا لقينا

---

(١) دراسات في الشريعة الإسلامية ، مقال :" كيف تستنبط القواعد من الكتاب والسُّنَّة " ص١٧ .

(٢) مجلة الكويت ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، عام ١٣٤٦ ، ص ٣١٣ ، وقد كان تعرُّفُ المؤرِّخ عبدالعزيز أحمد الرشيد البداح الكويتي بالسيد مكي بن عَزُّوز عن طريق شيخه العلاَّمة محمود شُكري الآلوسي رحمه الله ، فقد طَلَبَ منه بعد طباعةِ رسالته "تحذير المسلمين من اتباع غير سبيلِ المؤمنين" التي طبعت في بغداد ١٣٢٩هـ أن يهديها إلى جملةٍ من أهل الفضل والعلم ، ومن بينهم الأستاذ المكي بن عَزُّوز ، فأرسل له تقريظاً نشره في مجلة "الكويت".

ـأين توسُّطٌ أين اعتدالٌ ... إلهُ الخلق من حيْفٍ يقينا

ويقول رحمهُ الله تعالى في رسالته السابقة: "إنَّ قلبي مُوجَعٌ من غربةِ الدين وأهله وقلَّةِ أنصاره.. وأعني بالعلم والدين: علمَ السُّنَّةِ ، وما الدينُ إلاَّ اتباعُهَا وإيثارها على عُصاراتِ الآراء ، وهجوماتِ المتفقهة ، وما التوحيدُ إلاَّ توحيدُ السلفِ الصالح ، وأما غيره فأشبه بالضلالات ، وزَلَقات الهفوات" [1] .

ثُمَّ يقول في رسالته واصِفاً علماءَ عصره ، ومُقَسِّماً لهم إلى ثلاثةِ أقسام: "إننا نجد فقيهاً تَقِيّاً محبّاً للسنَّة ، ومبغِضاً للبدعةِ متعفِّفاً عن تناولِ الحرام ، واقِفاً موقفَ النصح والإرشادِ للخَلْقِ ، حسنَ النِّيَّةِ ، لكنه جاهلٌ بعباداتِ النبي ﷺ ، وما كان عليه في شؤونه كلِّها ، وقد يكون عارِفاً بِهَا أو ببعضها ، ويترك المتابعةَ النبويَّةَ عمداً لأنها خالَفَتْ قولَ فقهائه ، ولو تخبره بإصلاحِ عبادةٍ أو تحريرِ حكمٍ شرعيٍّ بنصٍّ نَبَوِيٍّ يَنْفُرُ منك نُفْرَتَه من العدو ، ووراءاكَ مخادِعاً لك ، ولَرُبَّما اتَّخَذَكَ عَدُوّاً مبيناً بعد المحبةِ والصحبةِ ، ويحكم بضلالِك.

كُلُّ ذَلِكَ لِغُلُوِّهِ في التقليد ، ولا يخفى أَنَّ أولئكَ لا يُقالُ لهم علماءَ إلاَّ مجازاً ، لا خلافَ في ذَلِكَ كما قاله ابن عبد البر وغيره.

---

(١) الكويت ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، ص ٤٥٥ .

وتجد آخر متفنّناً بعدّةِ علومٍ ، وربّما يكونُ مطّلعاً على دواوين الحديث ، نبيهاً ، له هِمّةٌ تنبُو به عن التقليد ، يُبالِغُ في تتبُّعِ الأدِلّةِ فينقلبُ عن الدينِ وغيرتِهِ ، في اعتقادِ تأثيرِ الطبيعةِ حتى ينكرَ معجزاتِ الأنبياء ، وينكرَ كونَها خارقةً للعادةِ ونحو ذَلِكَ من القول بنفي حشرِ الأجسادِ في الآخرةِ ، ونفي تناسُلِ البشرِ من آدمَ وحوّاء .. الخ[1] .

وبعضُ هؤلاءِ أيضاً لهم حسنُ نِيَّةٍ في تعدّيهم الحدود ، فهذان الفريقان اللذان هما على طرَفَيْ نقيض: أحدهُما مُفْرِطٌ ، والآخر مفرِّطٌ ، كلاهُما يعدُّهما المغفّلون من علماء الدين ، ولكلٍّ منهما أتباعٌ وأنصار. (انعق بما شئتَ تجد أتباعاً).

والقِسمُ الثالث: وهُم هُم الأوسَطون الّذِينَ تفقّهوا فقه الأئمةِ رضوان الله عليهم ، واعتَنوا بالحديثِ الشريف مع تفنُّنٍ في الأصول والعلومِ العربية ، ودقّقوا مسائلهم الدينية ، فما كان من الفقه سالماً من مصادمة سُنَّةٍ بقوا عليه ، وما صادَمَهَا نبذُوه ، وعَذَرُوا قائلَهُ بعدمِ بلوغ الخبر له.

هذا فيما يتعلق بالعلم العملي ، وأمّا الاعتقاديّ فهو معذورٌ في الابتداء بكُتُبِ المتكلّمين ، ثُمَّ يترقّى إلى التعرُّف بطريقةِ السلف ، ولا تُؤخَذ حقيقتُها إلاّ من كتبِ شيخِ الإسلام ابن تيمية ، وصاحِبِهِ الّذي هو

(١) وهُمُ الّذِينَ يعنيهم في عدةِ مباحث من رسالته في "العقيدةِ الإسلامية".

نسخةٌ صحيحةٌ منه لا تحريفَ فيها ، الشمسُ ابنُ القيِّم ، فيعتقدُ ما هناكَ بأدلةٍ متينةٍ وإيمانٍ راسخ ، فيصبح من الفرقةِ الناجيةِ التي عرَّفَها النبيُّ ﷺ بأنهم على ما كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه.

وهذا القسم الثالث الّذي هو الصِّراطُ المستقيم المدعوُّ بالهداية إليه في الفاتحةِ بكلِّ ركعةٍ قليلٌ في الوجودِ مع الأسف.

قالَ تَعالَى: **﴿وقليلٌ من عبادِيَ الشّكور﴾** [1] فأنا أنظر شرقاً وغرباً فأرى كما قيل[2] :

ما أكثر النّاس لا بل ما أقلَّهُمُ ... الله يعلمُ أنّي لم أقُلْ فَنَدا

إني لأفتحُ عيني حينَ أفتحُها ... على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

ربما أجد في مليون من الخلق واحداً ، فأنا أشدُّ فرحاً به من ولادةِ ولدٍ ذكرٍ لابن السّتّين الفاقدِ البنين.

بقي سؤالٌ هنا: يقول قائل: حيث إنَّ الفريقين المشار إليهما في قسمَي الإفراط والتفريط يرونَ أنهم على صوابٍ ، ولم يتعمَّدوا الضلالةَ فلِمَ لا يعذرون ، وإنما الأعمال بالنّيات؟

(١) من سورة سبأ ، الآية ١٣.

(٢) البيتان مشهوران لدعبل بن علي الخزاعي .

فنقول: ذَلِكَ لا يدفع عنهم المسؤولية ولا قُبحَ الضلالة كما صرَّحَ به قوله تعالى: ﴿فريقاً هَدَى وفريقاً حَقَّ عليهم الضَّلالة إنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطينَ أَوْلياءَ من دون ا لله وَيَحْسَبونَ أنَّهم مُهْتَدُون﴾(١) فحُسْبَانُهم أنهم على هُدى لا يفيدهم شيئاً ، قاله ابن جرير الطَّبَرِيّ في "تفسيره"(٢) ، ومثله آية: ﴿قُلْ هَلْ نُنبِّئُكُمْ بالأخْسَرين﴾ إلى قوله: ﴿وهُمْ يَحْسَبونَ أنَّهم يُحسِنُونَ صُنْعا﴾(٣) .

ثُمَّ يقولُ رحمه ا لله متحدِّثاً عن نشأته العلمية وأثر الرِّحلة في تكوينه العلمي ، وسَعَةِ اطِّلاعه ومعارفه ، وتحلِّيه بالإنصاف: "فأنا قد رُبِّيتُ في

---

(١) من سورة الأعراف ، الآية ٣٠.

(٢) قال الإمام الطبري في "جامع البيان" ١٢:٣٨٨ "يقول تعالى ذِكره : إنَّ الفريق الَّذِي حقَّ عليهم الضلالة ، إنَّما ضلُّوا عن سبيل ا لله وجاروا عن قَصْد المحجَّة ، باتِّخاذهم الشياطين نُصراء من دون ا لله ، وظُهراء ، جهلاً منهم بخطأ ما هم عليه من ذَلِكَ ، بل فعلوا ذَلِكَ وهم يظنُّون أنَّهم على هدى وحق، وأنَّ الصواب ما أتوه وركبوا . وهذا من أبْيَن الدلالة على خطأ قول من زعم أنَّ ا لله لايعذِّب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها ، إلاَّ أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها ، لأنَّ ذَلِكَ لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الَّذِي ضلَّ وهو يحسب أنَّه هادٍ ، وفريق الهدى فرقٌ . وقد فرَّق ا لله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية " انتهى .

(٣) من سورة الكهف ، الآية ١٠٤ .

معهدِ العلم من صِغَري ، وقد وسَّعَ ا لله علينا من رزقه ما سهَّلَ به القراءةَ زمانَ التعلُّم والإقْراء على شيوخ عديدة ، على اختلافِ مشاربهم ، وتفاوت درجاتهم تفنُّناً وأخلاقاً ، وارتحلْتُ إلى بلدان عديدة ، فجمعتُ بعض ما كان متفرِّقاً من العلوم والحمد لله ، ولكنَّ لَهْوَ الشباب حالَ بيني وبين الاستكمال في العلم والتهذيب ، وأيضاً لانعرف في بلادِنا المغربية إلاَّ التقليدَ الأعمى ، فقد كُنَّا نعدُّ الفتوى بحديثِ البخاري ومسلم ضلالاً ، وكما شدَّدَ علينا شيوخُنا في ذَلِكَ شدَّدْنا على تلاميذِنا هناك ، فالتاجرُ كما اشترى يبيعُ ويزيدُ المكْسَب.

فمِنْ ذَلِكَ أنِّي عند سفَري إلى المشرق استعارَ مِنِّي ابن أُخْتِي السيد الخضر ابن الحسين الَّذِي لقيتموه في المدينة(١) "نَيْلَ الأوطار" للشَّوكاني . فماتركْتُه حتى أقْسَمَ لي با لله أنه لا يتَّبعهُ فيما يقول.

---

(١) قال الأستاذ المؤرِّخ عبدالعزيز الرشيد في مجلة "الكويت" في الجزء السابع من المجلد الأول ، سنة ١٣٤٦ ، ص ٣٤٣ عن العلاَّمة محمد الخضر حسين: "انعقدتْ أواصر المحبَّةِ بيني وبين هذا الأستاذ المحقِّق في المدينة المنوَّرة عام مجاورَتي فيها ، فكنتُ أعتَدُّ التَّعرُّفَ بفضيلته من نِعَمِ الأسفار التي لا زلتُ أقتطفُ ثِمارَها.

والحق أقول: إنِّي لو لم أركب ثَبَجَ البحر في تلك السَّفْرَةِ إلاَّ للاجتماع به وبأمثاله لكانت الصفقةُ الرابحةُ ، فلقد شهدتُ منه الفكرَ الناضج ، والعلمَ الواسع النزيه ، والتحقيقَ المدهش البديع الَّذِي يحسُّ به جليسُهُ في كُلِّ =

ومن ذلك: أنّي وجدتُ في عام ١٣٠٠ كتاب "الروضة النديَّة" للسيد صِدِّيق حسن خان ، يُباع عند كُتُبيٍّ في مَسْكرة ، اسمه الشيخ الأخضر السنوسي العُقْبي فَنَهَرْتُهُ وزجَرْتُهُ ، وقلت له: حرام عليك تبيع "الروضة النديَّة" ، فصار يعتذر بِمَسْكنةٍ كأنه فعل خيانة.

أمَّا تصانيفُ ابن تيمية وابن القيِّم ، فوالله ما نظرتُ فيهما سطراً لِنُفْرةِ قلوبنا منهما ، ومَنْ جهِلَ شيئاً عاداه ، لكن في العاجز رائحةُ استعدادٍ وشوقٍ للدليل.

فلمَّا ارتحلتُ إلى المشرق سنة ١٣١٦ واطَّلَعْتُ على كتبِ أهل الشأن باستغراقِ الوقت لا واشي ولا رقيب ، وأمْعَنْتُ النظر بدون تعصُّبٍ فتحَ الله على القلب بقَبولِ الحقيقة ، وعرفتُ سوءَ الغشاوةِ التي

= مجلسٍ من مجلسه ، وشهدتُ فوق هذا لفضيلته مجلساً عَقَدَهُ في الحرم النَّبَوِيِّ على ساكنه أفضل الصلاة والسلام باقتراحِ بعض أهل الفضل هناك ، ليفسِّرَ قوله تعالى: **﴿إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لهم مِنَّا الحُسْنَى أولئك عنها مُبْعَدُون﴾** [الأنبياء:١٠٢] فكانَ مجلساً تُشَدُّ إليه الرحال لفوائده وطرائفه ، استغرق ما يزيدُ على الساعة ، وفضيلتُهُ ينتقِلُ فيه من بحثٍ إلى آخر ، ويُطْرِفُ الأسماعَ بمقولاتٍ مهمةٍ عن مختلفِ العلماء بأسلوبٍ عذْبٍ وكلامٍ قويٍّ بليغ ، كل هذا ولم يكن بين الاقتراح وسفره من المدينة إلاّ برهةً وجيزةً لا تمكِّنُهُ من اشتغاله بأُهْبَةِ السفر من مراجعةِ هاتيك الدُّرَرِ من مظانِّها ، وهذا برهانٌ على رسوخِ قدَمِهِ في متنوِّعِ العلوم".انتهى

كانت على بصَري ، وتدرَّجْتُ في هذا الأمر حتى صارت كتبَ الشوكاني وصدِّيق خان ، وشروح "بلوغ المرام" وما والاها أراها من أعزِّ ما يُطالَع.

أمَّا كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم فمن لم يشبع ولم يُرْوَ بهَا فهو لا يعرف العلم ، ويلحق بهَا كتب السَّفَّاريني [١] ، و"جلاء العينين" للسيد نعمان الآلوسي [٢] ، وآثار إبراهيم الوزير [٣] ونحوهم ، ومنذ عرفتُ الحقائق استرذلتُ الحكم بلا دليل ، والحمد لله.

ومن اللطائف أنَّ في الشهر الأول والثاني من انفتاح البصيرةِ أُلقي إليَّ في مُبَشِّرةٍ مناميَّةٍ قوله تعالى: **﴿سَيقولُ السُّفَهاءُ من النَّاسِ ما ولَّاهُمْ**

(١) محمد بن أحمد بن سالم السفَّاريني الأثري الحنبلي ، ولد في(سفارين) من قرى نابلس ، سنة ١١١٤، وتوفي فيها سنة ١١٨٨ ، من أشهر كتبه : "لوامع الأنوار البهية "شرح منظومته " الدرة المضيَّة في عَقْد أهل الفرقة المرضية" ، و" لوائح الأنوار السنية " شرح قصيدة ابن أبي داود، و"غذاء الألباب شرح منظومة الآداب" .

(٢) نعمان بن محمد الآلوسي ، من أعلام الأسرة الآلوسية ، ولد ببغداد سنة ١٢٥٢ وتوفي سنة ١٣١٧ ، من أشهر كتبه : " جلاء العينين في محاكمة الأحمدَيْن " ابن تيمية وابن حجر الهيتمي رحمهما الله تعالى .

(٣) محمد بن إبراهيم الوزير ، من أعيان علماء اليمن ، ولد سنة ٧٧٥ ، وتوفي سنة ٨٤٠رحمه الله تعالى ، ومن أشهركتبه : " العواصم و القواصم "، ومختصره "الروض الباسم ".

عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُوا عَلَيها قُلْ للهِ المَشْرِقُ والمغرِبُ يهدِي مَنْ يشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتقيم﴾ [1] .

ثناءُ العلماء عليه:

أثنى عليه مفتي الشافعية بمكة المكرمة الشهاب أحمد زيني دحلان (المتوفَّى سنة ١٣١٤) رحمه الله تعالى في إجازته له بقوله: "قد اشتهر في الأقطار بلا شكٍّ ولا مَيْن، ولاسيما في الحرمين الشريفين بالعلم والحلم، نخبةُ العلماءِ والأعيان، وخلاصةُ الأعيان من ذوي العرفان، سراج إفريقيَّة، بل بدر تلك الأصقاع الغربية، الأستاذ الكامل، جامع ما تفرَّق من الفضائل والفواضل" [2] .

وقال فيه عالم الطائف العلامة عبدالحفيظ القاري في مَطْلع سؤالٍ قدَّمه له: "فقدَّمتُ هذا السؤال المنظوم، إلى علاَّمة العرب والروم، الأستاذ الكامل، جامع الفضائل، ومقدَّم العلماء الأفاضل، السيد محمد مكّي بن عزُّوز التونسي سلَّمه الله، ثُمَّ قال:

مَنْ نرتجي للدين يكشف غُمَّةً   عَمَّتْ على الإسلام بالإغْماء

(١) سورة البقرة آية :١٤٢ .

(٢) فهرس الفهارس ٢: ٨٥٧، وقال الكتاني:"وهذه الحَلاَة نادرةٌ من مثل الشيخ دحلان، يعلم ذَلِكَ من تتبع حلاه في إجازته لأهل المشرق والمغرب وهي كثيرة".

غير ابن عزُّوز إماماً للهُدى   بالحق يفتي لا بأخذِ رشاء

من مغربٍ في مشرقٍ يُبدي السَّنا   في المَطْلِعَين له ضِياً كَذُكاء

إنْ كان فينا قائمٌ فهو الَّذي   بالعلمِ يرقى ذِرْوَةَ الجَوْزاء[1]

وقال السيِّد محمد عبدالحي الكتاني: "هذا الرجلُ كان مسندَ إفريقيَّة ونادرتها، لم نرَ ولم نسمع فيها بأكثر اعتناءً منه بالرواية والإسناد والإتقان والمعرفة ومزيد تبحُّرٍ في بقيةِ العلوم، والاطّلاع على الخبايا والغرائب من الفنون والكتب، والرحلة الواسعة، وكثرة الشيوخ"[2] .

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى يوم الخميس في الثاني من شهر صفر سنة ١٣٣٣، عن أربعةٍ وستين سنة، ودُفِنَ في مقبرةِ (يحيى أفندي) في اسطنبول .

رثاؤه :

ورثاه جماعةٌ من أدَباء تونس والجزائر، ومن تلك المراثي مرثيَّتا ابن أخته العلامة محمد الخضر حسين، ومرثيَّة العلامة المجاهد الطيب العُقْبِي رحمهما الله تعالى.

(١) الأجوبة المكيَّة عن الأسئلة الحجازية، ص١٠٤.

(٢) فهرس الفهارس ٢: ٨٥٦.

وأُوردُ بعض الأبيات من قصيدة الشيخ محمد الخضر حسين في رثاء خاله العلاَّمة محمد المكي بن عزوز ، بعنوان :"ها هنا شمس علوم " ، ثمّ أُتبعها بأبيات مختارة للشيخ الطيِّب العُقْبي في رثاء العلاَّمة ابن عزُّوز .

هاهنا شمسُ علوم[١]

رُبَّ شَمْس طَلَعَتْ في مغربٍ … وتوارى في ثرى الشرق سَناها

هَهُنَا شَمْسُ علوم غربت … بَعْدَ أن أبلت (بترشيش) ضُحاها[٢]

بفؤادي لوعةٌ من فقدِها … كلَّما أذكرهُ اشتدَّ لظاها

فقِفا لمحةَ طَرْفٍ نقْتَني … عِبَراً من سيرةٍ طابَ شذاها

أيُّها الراحلُ قد روَّعتَنا … بفراقٍ حرَمَ العينَ كَراها

لَكَ نفسٌ سَرَحَتْ همَّتُها … في مراعي العلم من عهدِ صِباها

أينمَا كنتَ تداعَتْ أمَمٌ … تَتملَّى روضةً يحلُو جَنَاها

وتفاءلْتَ فأزْمعتَ النَّوى … و (بإستانبول) ألقيتَ عصاها[٣]

---

(١) عادَ الأستاذ محمد الخضر حسين من ألمانية سنة ١٣٣٤هـ إلى الآستانة ، وكان خاله العلامة الشيخ محمد المكي بن عَزُّوز قد توفِّيَ بها قبل قدوم صاحب الديوان بنحو شهرين ، فزارَ قبره ، وبهذه المناسبة قال هذه القصيدة وهي في ديوانه: "خواطر الحياة" ، ص ٢٥٨.

(٢) ترشيش اسم قديم من أسماء تونس.

(٣) ألقى عصاه: بلغ موضعه وأقامَ واطمأنَّ ، وترك الأسفار ، وكانت رحلته إلى الآستانة سنة ١٣١٦هـ.

لَمْ تعِشْ فيها غريباً فقَرا … بَةُ أهل النُّبْل أحكَمْتَ عُراها

عرَّجَ النَّاعي على أنديةٍ … كنتَ إن وافيتَها قُطْبَ رحاها[٤]

طِبْ مُقاماً (يا ابنَ عزُّوز) فقد … كُنتَ تعطي دعوةَ الحقِّ مُناها



---

(٤) قُطْب الرَّحى: سيد القوم الَّذِي يدور عليه أمرهم.

وهذه بعضُ أبياتٍ مختارة من رثاء العلامة المجاهدالشاعر الطيِّب العُقْبي [1] رحمه الله تعالى:

هـي الـدارُ في أحداثِهـا تتجـرَّمُ[2]   سـرورٌ فـأحزانٌ فعـرسٌ فمـأتَمُ
حَنـانَيْكَ إنّـا لِلْمَنِيَّـةِ عُرْضَـةٌ   وكلُّ ابن أنثى فهو للموتِ مُسْلَمُ
وَكُلُّ بليغ مِصْقَع[3] فهو عندهـا   إذا طَرَقَتْ يوماً من الدَّهْر مُفْحَمُ
وَمَا المكثُ في دار الغـرور لعالِم   حقيقتهـا إلاَّ زعـافٌ وعلقـمُ[4]
عجبتُ لِلَذِي لُـبٍّ يُغَـرُّ بِسِلْمِها   وَمَـا سِلْمُها إلاَّ خسـارٌ ومَغْـرَمُ
أماتَ ابنُ عـزوز وأودت علومُـهُ   أم الرُّكنُ ركنُ الدين أمسى يُهَـدَّمُ؟

---

(١) العالم المجاهد الشيخ الطيِّب بن محمد بن إبراهيم العُقبي المولود ببلدة سيدي عقبة بالجزائر في شهر شوال سنة ١٣٠٧ ، هـاجر مع عائلته إلى المدينة المنورة وهـو ابن خمس أو ست سنوات ، وتلقَّى تعليمه بـالحرم النبـوي الشريف حتى أصبح معلِّماً فيه ، ونفاه الأتراك من المدينة ، ثمَّ عيَّنه الشريف حسين بعد عودته من المنفى مديراً لتحرير جريـدة القبلـة ، عـاد إلى الجزائـر سنة ١٣٣٧(١٩٢٠) ليعمل في مجال الإصلاح الديـني بالخطابـة والكتابـة ، وكان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريـين ، وأصـدر صحيفة " الإصلاح " سنة ١٣٤٦ في الجزائـر . (نهضـة الجزائـر الحديثـة ، لمحمد علي دبوز ٢:١٠٥) .

(٢) تتجرَّم : يقال تجرمَ الليل : أي تمَّ وانقضى .

(٣) المصقع : البليغ يتفنَّن بمذاهب القول.

(٤) العلقم : سمٌّ زعافٌ يقتل سريعاً.

بلـى إنَّهـا الأقـدارُ وَافَـتْ برزْئِـهِ   وَمَا كَـانَ ظَنِّـي أن يُـدَكَّ يَلَمْلَـمُ[1]
أتـاني نَعِـيُّ الحَـبْر في جُنْـح ليلـةٍ   ويـا ليتهـا في الدهـر لم تـكُ تُعْلَـمُ
(محمـدُ) يـا (المكِّـيُّ) مـالكَ راحـلٌ   أزُهـداً بنـا أم في سـبيلك مغْنَـمُ
إلى الله أشـكو مـا لفقـدِكَ مَسَّـني   من البـؤس والضَّرَّاء والقلبُ يُكلَـمُ
فقد كنتَ لي رُكنـاً شـديداً فخـانَني   زمـاني وأمـرُ اللهِ في الخلـق مُـبرَمُ
تكنَّفَـنِي جيشٌ مـن الحـزن عـارمٌ   فوَلَّتْ لـه جيشـانُ صـبري تُهْـزَمُ
ونادَتْ بيَ الأحلام: حسبُكَ فـاتَّئِدْ   فأجرُكَ في (الأستاذ) بالصبر أعظَـمُ
سأبكيكَ محمودَ المقـاصدِ مـا بكـت   مُطوَّقَـةٌ في أَيْكِهـا تَـتَرنَّمُ
وتسـكبُ عيـني عـبرةً بعـدَ عـبرَةٍ   تؤازرُهـا أخـرى فُـرادى وتـوأَمُ
عليـكَ سَـلامُ اللهِ حَيّـاً وميِّتـاً   فـآخِرُ عهـدي أنَّـني بـكَ مُغْـرَمُ[2]

❊ ❊ ❊

---

(١) يَلَمْلَم : اسم جبل من جبال اليمن .

(٣) قصيدة العلامة المجاهد الطيِّب العُقْبي رحمه الله تعالى ، نُشِرَتْ في كتاب "شعراء الجزائـر في العصر الحاضر" ، الجزء الأول ، ص ١٣٨-١٤٢ ، طبعـة تونـس سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٣٦ للأستاذ محمد الهادي السنوسي الزاهري.

وقد قدَّمَ الشاعر قصيدته بقوله: (وهذه قصيدة قلتُها بالمدينـة المنورة أرثـي بهَـا العلامـة الشيخ محمد المكِّي بن عَزُّوز دفين دار السعادة ، لَمَّا بَلَغَني خـبرُ وفاتـه ، وكـان ممـا يعزُّ عليَّ كثيراً لِما بيني وبينه من المؤانسةِ وعظيمِ الوداد ، ولَـمْ أرثِ أحـداً قبلـه ، فهـي أولُ مرثِيَّةٍ لي). من كتاب "محمد المكي بن عزُّوز" ص ١٧٧-١٨١ .

تحية شعرية

أهداني العالِم الفاضل مجد مكّي كتاباً شرح فيه العقيدة الإسلامية للعلّامة محمد المكّي ابن عزُّوز، فبعثت له بهذه التحيّة:

وافَتْ (خِزَانةُ عِلْمٍ) في رَوائعها — وازْدانَ مَجْدُكَ مِنْ لألائِهَا مَجْدَا

قرأتُ مِن صفحاتِ الحقِّ أَسْطُرَها — إذ خَطَّها مؤمنٌ قد طَوَّعَ الجُهْدَا

وَرُحْتُ أَرْشُفُ مِن نَعْمَائِهَا عَسَلاً — حُلوَ المذاقِ وأَجْني الزَّهْرَ والوَرْدَا

كَأَنِّي في رِيَاضِ الخُلْدِ مُنْطَلِقٌ — وَمَوْكِبُ النُّورِ حَوْلي يَطلُبُ الوِرْدَا

لَمَّا شَرَحتَ مِن الإسلام صَفْوَ هُدى — صُدُورُنا انشَرَحت مُذْ طالَتِ السَّعْدَا

بُورِكتَ مِن عالِمٍ فَذٍّ لـه صِلَةٌ — بِرَبِّه صِلَةٌ شَدَّت لك الزِّنْدَا

سُبحانه وتعالى في تفضُّلِه — حَبَاكَ مِن قلمٍ لا يعرفُ الغِمْدَا

أَوْفَيْتَ بالعهدِ والأيَّامُ شَاهدة — كذا العقيدةُ توفي العهدَ والوعْدَا

لا شكَّ أنَّ رِضاءَ الله مَطْلَبُكُم — فمدَّكُم بجنودٍ فَاقَتِ العَدَّا

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ في دنيا وآخرة — لك المثوبةُ لا تدري لها حَدَّا

مَنْ ذا يُرافِقُ في تِجْوالِه عَلَماً — مِن (آلِ عَزُّوزَ) إلاَّ رَافَقَ الأُسْدَا

كِلاكُما نسبةُ المكِّيِّ تُشْهِرُه — نِعْمَ المُسمَّى إذا ما صادَفَ النِّدَّا

إني لأحسَبُ أنَّ الشيخَ ناظِرُنَا — يُومي إليكَ ويُهدي وَجْهَه الودَّا

الحمدُ للّهِ أنَّا مُسلمونَ لَهُ — ونرفعُ الشُّكْرَ للمنَّانِ والحَمْدَا

علي الرضا الحسيني

دمشق ٢ ذو الحجة ١٤٢٠هـ

شَرْحُ
العَقِيدَةِ الإِسْلامِيَّةِ

بقلم

مجد بن أحمد مكي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

-مَقْصِدُ هذه الرسالة-

لَمَّا مَنَّ اللهُ تعالى على البلادِ العثمانيَّة بالإطْلاق من قَيْد الاستبداد ، وتضييق العلوم والمعارف ، تَنَفَّسَت صُدورُ الأُمَّةِ ، واتَّحَدوا في سبيل التَّرَقِّي بعُلُوِّ الهمَّةِ ، وأخذَ كُلٌّ منهم بعَضُدِ أخيه ليُميطَ عنه جَهَالة ، أو يُرشِدَهُ إلى الخروج من ضَلالة ، أو يرفعَهُ من حضيضِ كَسَلٍ إلى أَوْجِ عِرفانٍ أو عمل .

ولا يَنْجَحُ قومٌ إلاَّ باتِّحاد ، ونشرِ كلٌّ منهم ما عنده من علمٍ أو سَدَاد ، والطاعةِ للناصحين ، وتنظيف القلوبِ من الحقدِ الكَمين .

وقد أشْرَقَتْ مبادئُ النَّجاح كما يُشْرِقُ أولُ الفجر مؤْذِناً بالصَّباح ، وتصدَّى كلُّ مُتْقِنِ صِناعةٍ إلى إبْرازِها للمَيْدان ، لينتفعَ الجميعُ من الجميع حكمةً من الجليل الديَّان .

وكان تعلُّمُ الطلبة في المكاتب أول لازمٍ في برنامج إصلاح المملكة ، ليُحسِنَ كُلٌّ خدمةَ الدولة والمِلَّة ، ويعقل ما فعله وما تركه .

وحيثُ إنَّ الحظَّ الوافر من الدروس لعلوم الطبيعيات ، ولا يستغني عنها الطَّلَبةُ في باب ما يؤول للصناعات ، ولا نزاعَ بين التَّفنُّنِ وعلم الدين



لمن استكملها ، ولكن لِخَفَاءِ تطبيقِ العقل على النقل يقع الخطأ ، وقد يَزِلُّ الاعتقاد الديني ولا يُشعر بِهِ .

فأردنا بهذه الرسالة حفظَ عقيدة الإسلام للطلبة باللّسانين الجَلِيلَيْن: العربيِّ لسانِ الدين ، والتركيِّ لسانِ الدولة ، ملاحِظين في معظمها سدَّ الثغور المظنون صدور الضَّرر منها في العقيدة الإسلامية ، حتّى لا تفوتهم إحدى الفضيلتين: فضيلة الدِّراية فيما يزاولونه ، وفضيلةِ التَّمَسُّكِ بالعُرْوَةِ الوُثقَى من الإسلام الضامنة لسعادةِ الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾[1].

وسَلامٌ على المُرْسَلين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

محمد المكي بن عزوز

(١) من سورةِ آلِ عمران، الآية: ٨٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نوم﴾ [١] .

لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، قديمٌ[٢] لا أوَّلَ لوجوده ، باقٍ لا نهاية لبقائه ، جلَّ أن

---

(١) سورةُ البقرة، من الآية: ٢٥٤ ، وآيةُ الكرسي أعظم آية في القرآن كما ثبت في صحيح مسلم (٨١٠) ، وقوله عَزَّ وجَلّ: **﴿اللهُ لا إلـهَ إلاَّ هُـوَ﴾** نفيُ الإلهيَّةِ عن كُلِّ ما سِواه ، وإثباتُ الإلهيَّة له سبحانه ، **﴿ الحي ﴾** يعني : الباقي على الأبد ، الدائم بلا زوال ، **﴿ القيوم ﴾** القائم بتدبير خلقِهِ في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه **﴿ لا تأخذه سِنَةٌ ولانوم ﴾** السِّنَةُ: ما يتقدَّمُ النوم من الفُتور الَّذي يُسمَّى نُعاساً وهو النوم الخفيف ، والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة ، والمعنى : لاتأخذه سِنَةٌ فضلاً عن أنْ يأخذه النوم ؛ لأنَّ النوم والسهو والغفلة محالٌ على الله تعالى ؛ لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم ، وذلك نقصٌ وآفة ، والله تعالى منزَّهٌ عن النقصِ والآفات ، وَأَنَّ ذَلِكَ تغيُّرٌ ، والله تعالى منزَّهٌ عن التغيُّر (تفسير الخازن ١ : ١٧٩) .

(٢) لفظ (القديم) في وصف الله عز وجل ، شاع ذكره في كثير من المؤلَّفات في العقائد قديماً وحديثاً . وهذا اللفظ ليس من الأسماء الحسنى لله تعالى ، وإنما هو من تعبير العلماء لإيضاح المقام ، وتقريب المعنى لاسم (الأول) ، فإنَّ (القديم) في لغة العرب : المتقدِّم على غيره ، فيقولون: هذا قديم، =

يَلْحَقَهُ تصوُّرٌ، أو يُشَخِّصَهُ فكرٌ، فكلُّ ما يخطُرُ ببالِكَ فربُّنا مُخَالِفٌ لذلك، ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[1] ،

= للعتيق، وهذا حديث، للجديد، ولم يستعملوا القديم إلاّ في المتقدِّم على غيره، لا فيما لايَسْبِقْه عدم (شرح الطحاوية ١:٧٧) .

وقد أنكر جماعة من العلماء إطلاق (القديم) على الله تعالى؛ لأَنَّهُ ليس من الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والذي ورد في الكتاب والسنة هو لفظ (الأول)، ففي سورة الحديد قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ**﴾ . وفي صحيح مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ: " **اللهمَّ أنت الأوَّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء ...**" وانظر ما يأتي ص٢٦٦.

(١) سورة الشورى، الآية:١١.وفي معنى هذه الآية عقد القاضي عياض فصلاً في كتابه " الشفا " ٣٣٧-٣٤٠ فقال ما ملخصه : " هو أن تعتقد أنَّ الله تعالى جلَّ اسمُهُ في عظمته وكبريائه وملكوته، وحُسْنى أسمائه، وعليِّ صفاته، لا يُشْبِهُ شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشبَّهُ به، وأنَّ ما جاء مِمّا أطلقه الشَّرْع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذْ صفاتُ القديم بخلاف صفاتِ المخلوق، فكما أنَّ ذاته لا تُشْبِهُ الذوات، كذلك صفاته لاتُشْبِهُ صفات المخلوقين؛ إذ صفاتهم لاتنفكُّ عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذَلِكَ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه، =

= وكفى في هذا قوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ ولله درُّ من قال من العلماء العارفين المحقّقين: " التوحيد إثبات ذات غير مُشْبِهَةٍ للذوات، ولا معطَّلةٍ عن الصفات " . وزاد هذه النكتة الواسِطيُّ (ت ٤٢٠) رحمه الله بياناً، وهي مقصودنا، فقال: " ليس كذاتِهِ ذاتٌ، ولا كاسمِهِ اسمٌ، ولا كفعلِهِ فعلٌ، ولا كصفتِهِ صفةٌ، إلاّ من جهةِ موافقةِ اللفظِ اللفظَ، وجلّت الذّاتُ القديمة أن تكون لها صفةٌ حديثةٌ، كما استحال أن تكون للذّات المُحدَثة صفةٌ قديمة " . وهذا كلُّه مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم .

وقال آخر من مشايخنا: ماتوهَّمتموه بأوهامكم، أو أدركتموه بعقولكم فهو مُحْدَثٌ مثلكم .

وما أحسنَ قولَ ذي النُّون المصري: وما تصوَّر في وهمِكَ فالله بخلافه . وهذا تفسير لقوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾، ثبَّتنا الله وإيَّاك على التوحيد والإثباتِ والتنزيهِ، وجنَّبنا طَرَفي الضَّلالة والغَوايةِ من التعطيلِ والتشبيهِ بمنّه ورحمته " انتهى .

وأما الحكمة في ذكر حرف الكاف من قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ فللمُفسِّرين كلامٌ طويلٌ، ومن أحسن من أوضح الحكمة مِن ذِكْرِ (حرف الكاف) العلامة المفسِّر الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه " النبأ العظيم " ص ١٣٣-١٣٦ وبيَّن ذَلِكَ من طريقين فقال: " **الطريق الأول**: هو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور، أنه لو قيل: (ليس مثله شيء) لكان ذَلِكَ نفياً للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب..فكان وضع =

= هذا الحرف في الكلام إقْصاءً للعالم عن المُمَاثَلَة وعمَّا يشبه المماثَلَة وما يَدْنو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مِثْلاً لله ، فَضْلاً عن أن يكون مِثلاً له على الحقيقة ، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى .

والطريق الثاني : وهو أدقهما مَسْلكاً ، أن المقصود الأوَّلي من هذه الجملة، وهو نفي الشبيه ، وإن كان يكفي لأدائه أن يقال : " ليس كالله شيء " أو " ليس مثله شيء " لكن هذا القدر ليس هو كلَّ ما ترمي إليه الآية الكريمة ، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجهِ حجته وطريق برهانه العقلي .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصةً في خُلُقه فقلت : " فلان لايكذب ولايبخل " أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجرَّدة عن دليلها، فإذا زدت كلمة فقلت :"مثل فلان لايكذب ولايبخل" لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كُلّيٍّ ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيَمِهِ الكريمة لا يكون كذلك، لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذَلِكَ النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة :" مثله تعالى لا يكون له مثل " . تعني أن من كانت له تلك الصفات الحُسْنى ، وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتّسع الوجود لاثنين من جنسهِ . فلا جَرَم جيء بلفظين كلٌّ واحد منهما يؤدِّي معنى المماثلة ، ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى ، والآخر دعامة لها وبرهاناً . فالتشبيه المدلول عليه بـ" الكاف " =

= لمَّا تصوَّب إليه النفي تأدَّى به أصل التوحيد المطلوب ، ولفظ "المثل" المصرَّح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبَّه به على برهان ذَلِكَ المطلوب .

واعلم أنَّ البرهان الَّذِي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهانٌ طريفٌ في إثبات وحدة الصانع لا نعلم أحداً من علماء الكلام حَامَ حَوْله ، فكلُّ براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدُّد بإبطال لوازمه وآثاره حسبما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا** ﴾ [الأنبياء:٢٢] .

أما آية الشورى المذكورة ، فإنها ناظرةٌ إلى معنى وراء ذَلِكَ ينقض فرض التعدُّد من أساسه ، ويقرِّرُ استحالته الذاتيَّة في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار . فكأننا بهَا تقول لنا : إنَّ حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدُّد والاشتراك والتماثل في مفهومها ، كلا ، فإنَّ الَّذِي يقبل ذَلِكَ إنَّما هو الكمال الإضافي الناقص ، أما الكمال التام المُطْلق الَّذِي هو قوام معنى الإلهيَّة فإنَّ حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والإثْنَيْنيَّة ؛ لأنَّك مهما حقَّقت معنى الإلهيَّة حقَّقت تقدُّماً على كلِّ شيء ، وإنشاءً لِكُلِّ شيء : ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوات والأرض** ﴾ ، وحقَّقت سلطاناً على كلِّ شيء ، وعلواً فوق كلِّ شيء : ﴿**لَهُ مَقَاليدُ السَّمَواتِ وَالأَرْض** ﴾ .

فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضتَ ؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبوقاً ، ومُنشِئاً مُنْشَئاً ، ومُستعلياً مُسْتعلىً عليه ، أو لأحلتَ الكمال المُطْلق إلى كمال مقيّد فيهما ؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً . فأنَّى يكون كلٌّ منهما إلهاً =

وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ[١] ، العَفُوُّ الغفور[٢] ،

= وللإله المثل الأعلى ؟ أرأيتَ كم أفدنا من هذه "الكاف" وجوهاً من المعاني كُلّهَا شافٍ كافٍ ؟ " انتهى كلامه رحمه الله تعالى ، وانظر فيما يتعلّق بهذه الآية الكريمة كتاب " كمال العناية بتوجيه ما في ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ من الكناية " ، للعلامة المفسِّر المحدِّث الشيخ أحمد رافع الطهطاوي رحمه الله تعالى .

(١) **العزيز** : هو الغالب القوي الّذِي لايُغلَب . والعزَّةُ في الأصل : القوة والشدَّة والغلبة (النهاية ٣:٢٢٨) .

والحكيم : فعيل بمعنى فاعل ، أي الحَكَم ، أو بمعنى مُفْعِل ، أي : هو الّذِي يُحكم الأشياء ويتقنها . وقيل : الحكيم ذو الحكمة (النهاية ١:٤١٩) . وقد تكرَّر ذكر الاسمين الكريمين: ﴿ **العزيزُ الحكيم** ﴾ معاً في القرآن الكريم في سبعة وأربعين موضعاً .

قال ابن القيم في " الداء والدواء " ص١٥٢ :" العزَّة كمالُ القدرة ، والحكمة كمال العلم ، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء ، ويأمرُ وينهى ، ويثيبُ ويُعاقبُ ، فهاتان الصفتان مَصْدر الخلق والأمر " .

(٢) **العَفُوُّ** : فعولٌ من العَفْو ، وهو التجاوز عن الذنب ، وتركُ العقاب عليه ، وأصله : المحو والطَّمْسُ ، وهو من أبنية المبالغة (النهاية ٣:٢٦٥) . =

الرَّؤوفُ الرَّحيمُ[١] ،

= **الغفور** : السَّاتر لذنوب عباده وعيوبهم ، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، وأصل الغَفْر : التغطية ، والمغفرة : إلباس الله تعالى العفوَ للمذنبين (النهاية ٣:٣٧٣) .وقد تكرَّر ذكر هذين الاسمين الكريمين : ﴿**العفوُّ الغفورُ** ﴾ معاً في القرآن الكريم في أربعة مواضع .

(١) **الرؤوف** : هو الرحيمُ بعباده ، العطوفُ عليهم بألطافه ، والرأفة أرقُّ الرحمة، ولاتكاد تقع في الكراهة ، والرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة(النهاية ٢:١٧٦).

الرحيم : فعيل من رَحِم ، وهو الّذِي كَثُرت رحمته ، وفي (الرحمن) من المبالغة ماليس في (الرحيم) ؛ لأنَّ في (الرحيم) زيادة واحدة ، وفي (الرحمن) زيادتين ، وزيادة اللفظ تدلُّ على زيادة المعنى ، ولذا جاء في الدعاء : "**يارحمنَ الدنيا** " ؛ لأنَّهُ يعمُّ المؤمنَ والكافر " **ورحيمَ الآخرة** " ؛ لأنَّهُ يخصُّ المؤمن . (تفسير النسفي ١:١٥) .

وقد تكرر ذكر هذين الاسمين الكريمين ﴿ **الرؤوفُ الرحيم** ﴾ معاً في القرآن الكريم في ثمانية مواضع ، وأما الموضع التاسع فهو في صفة النبيِّ ﷺ، قال تعالى :﴿ **لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أنْفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمُؤمنينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة :١٢٨] .

شديدُ العقاب [1] .

كان العالَمُ[2] -وهو جميعُ ما سِوى الله- في العَـدَم[3] ، والله هـو الَّذِي أَوْجَدَهُ بمشيئتِهِ من غير احْتيـاجٍ إليـهِ ، ولا تفكُّـرٍ في إيجاده ، فكلُّـهُ

(١) **شديد العقاب** : هو الَّذِي يُشَدِّدُ العقاب على من شاء ، وقد تكرَّر ذكر هذه الصفة : ﴿ **شديد العقاب** ﴾ في كتاب الله في أربعة عشر موضعاً ، و ﴿ **شديد العذاب** ﴾ في موضع واحد في قوله سبحانه : ﴿... **أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً وأَنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ** ﴾ [البقرة :١٦٥] ، و ﴿ **شديد المِحَال** ﴾ في موضع واحد في قوله عزَّ وجل : ﴿ **وَهُوَ شَدِيدُ المِحَال** ﴾ [الرعد :١٣] أي : الوصول في خُفْيةٍ إلى ما فيه حكمةٌ .

(٢) **العالَم** :اسمٌ لِكُلِّ موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه جميع الخلق ، واشتقاق العالَم من العَلَم ، وقيل: من العلامة ، وهو في الأصل : اسمٌ لما يُعلم به ؛ كالطابَع والخاتَم لما يُطبَع به ويُختَم به ، وإنَّما سميَّ بذلك ؛ لأنَّهُ دالٌّ على الخالق سبحانه وتعالى ، ولهذا أحالنا الله تعالى عليه في معرفة وحدانيَّته فقال عزَّ وجل : ﴿ **أَوَ لَم يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف:١٨٥] .

(٣) روى البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد (٧٤١٨) عن عِمْرَان بن حُصَين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "**كانَ اللهُ ولم يكن شيءٌ قبلَه ، وكان عرشُهُ على الماء** " . قال الحافظ في " الفتح" ١٣: ٤١٠ :" قوله : =

مُلْكُهُ يتصرَّفُ فيه وحدَهُ كما يشاء ، فلا يُنْسَبُ إليه جَوْرٌ[1] فيما أَوْجَد أو أَعْدم ، أو منعَ أو أعطى ، إنْ أَنْعَمَ فبفضْلِهِ ،

= " **كان الله ولم يكن شيءٌ قبله** " تقدَّم في بَدْء الخلق بلفظ : " **ولم يكن شيء غيره**"، وفي رواية أبي معاوية -الضرير - :" **كان الله قبل كلِّ شيء**" وهو بمعنى :" **كان الله ولاشيء معه** " ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤: ٤٣١ بلفظ: "**كان الله تعالى قبل كُلِّ شيءٍ ، وكان عرشه على الماء**" .

(١) أي : ظلم ، والظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وقد نزَّه الله سبحانه نفسه عن الظلم فقال : ﴿ **وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران:١٠٨] ﴿**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [آل عمران :١٨٢، والحج :١٠] ، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بظلاَّم للعَبيد** ﴾ [فصلت :٤٦] ، ﴿ **وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ [ق:٢٩] ، ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ [النساء :٤٠] ، ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً** ﴾ [يونس :٤٤] .ومن أسمائه الحسنى : العدلُ ، الَّذِي كل أفعاله وأحكامه سدَادٌ وصوابٌ وحقٌّ .

قال الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمه الله تعالى في " الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى "١: ٤٤١ :" ومن أسمائه الحسنى : **العدل** . قال تعالى :﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك صِدْقاً وَعَدْلاً** ﴾ [الأنعام :١١٥] :" وإذا كانت كلماته العدل، فهو العدل ، لأنَّ كلماته هي كلامه ، وكلُّ فعلٍ من أفعاله إنَّما يقع بكلامه ، فكلامه صدق . والعدل خلاف الجَوْر ، وهو في صفة =

= الله تعالى يكون وصفاً ذاتيًّا له ، بمعنى سلب الجور عنه ، فيرجع إلى حكمه الأزلي في عباده . وقد يجوز في وضع اللسان أن يكون العدل بمعنى ذو العدل ، فيكون من صفات الأفعال .

فالله سبحانه هو العدل المطلق الَّذي قوله حقٌّ ، وفعله حقٌّ وقضاؤه الفصل وحكمه العدل ، يقبض ويبسط ، ويعطي ويمنع ، ويعزُّ ويذلُّ ، ويرفع ويخفض ، ويقدِّم ويؤخِّر ، ويضرُّ وينفع ... " انتهى .

وقال ابن القيم في "الفوائد" ص ٣٦٠-٣٦١ :" فالله سبحانه هو الَّذي أصلح الفاسدين ، وتاب على المذنبين ، وهدى الضَّالِّين ، وأنقذ الهالكين ، وعلَّم الجاهلين ، وبصَّر المتحيِّرين ، وذكَّر الغافلين ، وآوى الشَّاردين ، وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدَّة التمرُّد والعتوِّ عليه ، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه ، والإقرار بربوبيَّته ووحدانيَّته ، حتى إذا أيس من استجابته والإقرار بربوبيَّته ووحدانيَّته أخَذَهُ ببعض كفرهِ وعتوِّهِ وتمرُّدِهِ ؛ بحيث يُعذرُ العبد من نفسه ، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه ، وهو الظالم لنفسه ، كما قال تعالى عن أهل النار:﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِم فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِير**﴾ [الملك : ١١] ، وقال عمَّن أهلكهم في الدنيا : إنَّهم لما رأوا آياته ، وأحسُّوا بعذابه ، قالوا : ﴿ **يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُم حَتَّى جَعَلْنَاهُم حَصِيداً خَامِدِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٤-١٥] ، وقال الحسن : لقد دخلوا النار، وإنَّ حمده لفي قلوبهم ، ما وجدوا عليه حجةً ولا سبيلاً . =

وإنْ مَنَعَ فبعدْلِه[1] ، ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَل**﴾[2]،

= ولهذا قال تعالى : ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَقِيلَ : الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الأنعام:٤٥].

(١) وما أصدقَ قولَ الشاعر الحكيم:

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ	كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إنْ عُذِّبوا فَبِعَدْلِهِ أو نُعِّمُوا	فَبِفَضْلِهِ وهو الكريمُ الواسعُ

وقال ابن القيِّم في كتابه " الفوائد " ص٩٥ :" طوبى لمن أنصف ربَّه ؛ فأقرَّ بالجهل في علمه ، والآفاتِ في عمله ، والعيوبِ في نفسه ، والتفريطِ في حقّه ..فإنْ آخذه بذنوبه ؛ رأى عدلَه ، وإن لم يؤاخذه بهَا ؛ رأى فضله .. ونكتة المسألة وسرُّها : أنه لايرى ربَّه إلاَّ محسناً ، ولا يرى نفسه إلاَّ مسيئاً أو مُفرِّطاً أو مُقصِّراً ، فيرى كلَّ ما يَسُرُّه من فضل ربِّه عليه وإحسانه إليه ، وكلَّ ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه " .

وقال أيضاً ص٧٦ :" وقضاؤه كلُّه عدل ..وثوابه لمن يستحقُّ الثواب بفضله ورحمته ، وعقابه لمن يستحقُّ العقاب بعدله وحكمته " .

(٢) سورةُ الأنبياء، من الآية: ٢٣. قال ابن كثير في تفسيره ٥:٢٣١٢: " أي : هو الحاكم الَّذي لامُعقِّب لحكمهِ ، ولايعترض عليه أحدٌ ، لعظمته وجلاله وكبريائِه وعلمه وحُكمه وعدله ولطفه ﴿ **وَهُمْ يُسْئَلونَ** ﴾ أي : وهو سائلٌ خَلْقَه عمَّا يعملون ، كقولِهِ تعالى :﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِين** =

= عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [الحجر :٩٢-٩٣] . وهذا كقوله تعالى :﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَيُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون :٨٨] انتهى . أي : هو السيِّد العظيم الَّذِي لاأعظم منه ، الَّذِي له الخلق والأمر ، ولا مُعَقِّب لحكمه ، الَّذِي لا يُمَانَع ولايُخَالَف ، وماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن " انتهى .

وقال الشيخ يوسف الدجوي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ : "إنَّ المراد تقرير كونه تعالى حكيماً بالغ الحكمة فلا يُسْأَلُ عمَّا يَفعل ثقةً بحكمته . أو المراد : تقرير العظمة الإلهيَّة ، والقيام بآداب العبودية ، ويُراد به تعليمُنا حُسْن الأدب مع الله ، فنطمئنُّ في كلِّ ما يأمر ، ونذعنُ لِكُلِّ مايريد، وليس يغيب عنك سبب الخذلان الأبدي لإبليس ، باتّهامه لحكمة الحكيم ، وجراءته على ربِّه العظيم ورجوعه إلى استحسانه لا إلى إيمانه وإيقانه ، وتعويله على قياسه الفاسد ونظره الكاسد .

ولا بأسَ أن نلفتَ نظرك بعد ذَلِكَ إلى أمرٍ بديع : وهو أنَّ الحكمة أن تنظر في حال السائل الَّذِي يطلب منك الجواب قبل أنْ تُجيبَهُ حتى إذا كان يناسبُه الجواب ولا يعلو عن استعداده أقررته على السؤال ، وشَفَيْت عِلَّتَهُ بما يريد من الجواب ، وإذا كان لايمكنه أن يفهمه ، وكان من علوم أخرى غير طبقته كان ذكره عبثاً ، وربما كان ضرراً كبيراً عليه .

ومن المعلوم : أنَّ فعل كل أحد يصدرُ منه على مقْدار علمه ، فإذا كان فعله سبحانه على قدر علمه ، وعلمُه على قدر ذاته ، وذاته لا تحيط بها العقول، فكذلك علمه ، فكذلك فعله ، فنحن في حجاب عن الكل . =

﴿كُلَّ يومٍ هُوَ في شأن﴾ (١).

= ونزيدك ههنا أنَّ الوجودَ كله سلسلة واحدة ، تتجاذب أجزاؤها ، وترتبط حِكَمُها على وجهٍ لا يحيط به ، إلاَّ الله سبحانه الَّذِي لا تتناهى كمالاته ، ولا تنْحصر معلوماته ، ولا تُفهم أسراره في مخلوقاته ؛ لأنَّها مترابطة غير متناهية ، ، فلا يمكن إدراكها على التحقيق إلاَّ له سبحانه .

والخلاصة : أنَّ الآية مَسُوقةٌ لبيان عظمة الإلهيَّة في سَعَة علمها ، وأنَّ ذَلِكَ يعلو عن حد الإدْراك ، ويرتفع عن متناول الطاقة البشرية ، فإنَّ للإلهيَّة شأناً آخر لا تُدركه العقول ، ولا تصل إليه الأفهام ، فإنَّها مقصورة على إدراك شؤون الحوادث التي تماثلها ، ولا تتعدَّاها إلى شؤون الربوبيَّة ، فذلك يتوقف على تناسبٍ في الصفات وتماثل في الكمالات ، وأنَّ نسبة علمك إلى علمه ، كنسبة قدرتك إلى قدرته ، ونسبة ذاتك إلى ذاته ، ، هذا مع العلم بأنَّ الفعل في حجابٍ عن العقول كالذات والصفة ، فكما لا تعرف كنه ذاته ، لا يمكن أن تعرف كنه صفاته ، ولا كنه أفعاله ، وهي لوازم مرتَّبة .

ولك أن تجعل الآية واردة في خصوص سرِّ القضاء والقدر ، فهو لا يُسأل عمَّا يفعل لرحمته بك كي تقف عند حدِّك حيث لم تكن مستعداً لفهم الجواب ، والوصول إلى ما تتوق إليه نفسك التي تريد أن تتجاوز درجتها، وتتعدى غايتها " انتهى . (مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي ٢:١٦-٢٧ باختصار) .

(١) سورةُ الرحمن، الآية: ٢٩ ، ومعنى قوله سُبْحَانَهُ : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي:من شأنه أنه يحيي ويميت ، ويرزقُ ويعزُّ قوماً ، ويُفقِرُ ويُذِلُّ قوماً ،=

غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه ، وجميعُ ما عَدَاه مفتقِرٌ إليه[1] .

يَهْدِي من يشاءُ ، ويضلُّ من يشاءُ[2] .

= ويشفي مريضاً ، ويمرضُ صحيحاً ، ويفرِّجُ عن مكـروب ، ويجيـبُ داعيـاً ، ويُعطي سائلاً ، ويغفر ذنباً ، إلى ما لا يُحْصَى من أفعالـه في خَلْقِـهِ سُبْحَانَهُ وتعالى.

(1) قال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُـمُ الفُقَـرَاءُ إلى اللهِ وَاللهُ هُـوَ الغَنِـيُّ الحَمِيـد﴾** [فـاطر: ١٥] . وقـال سُبْحَانَهُ : **﴿يَسْأَلُهُ مَـنْ في السَّـمَوَاتِ وَالأَرْض﴾** [الرحمن: ٢٩] ، فكلُّ المخلوقات من الملائكةِ والإنس والجن مُفْتَقِرَةٌ إلى اللهِ تعالى ، عاجزةٌ عن تحصيلِ ما تحتاجُ إليه ، فهو الغنيُّ بنفسه عن كلِّ ماسواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه . ومتى شهد العبد غنى ربِّه ، وفَقْرَ المخلوقاتِ إليه ، وشدَّة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنه لا غنى عنه طرفة عين ، صار فقره إلى ربِّه وصفاً لازماً له ، فلا يفتقر إلى العباد ، ولا يعلِّق أملَهُ ورجاءه بهم ، فتحقَّق عبوديَّته وتوكُّله على الله عز وجل .
وفي الحديث القدسي الَّذِي رواه مسلم ٤:١٩٩٤ (٥٥) : "**يا عبادي: كلُّكُمْ جَائعٌ إلاَّ مَن أطْعَمْتُه ، فاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكم ، ياعبادي كلُّكم عارٍ إلاَّ مَن كسوتُه ، فاسْتكسوني أَكْسُكُمْ**" . فينبغي للعبد أن يعلم أنه في غايةِ الفقرِ إلى الله ، وعليه أن يَسْتَشْعِرَ أنه عبدٌ لله ، محتاجٌ إليه.

(2) قال الله تعالى : **﴿ يُضِلُّ من يشاء ويهدي مَن يشاء ﴾** [النحل:٩٣] و[فاطر :٨] . وقال عزَّ وجل : **﴿ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾** [الأنعام :٣٩] ، وقال سبحانه : **﴿ وَاللهُ يَهْدِي=**

= **مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾** [البقرة : ٢١٣] و [النور :٤٦] . والمراد بالهدى هنا : التوفيق والإلهام ، وهذه الهداية هي المستلزمة للاهتداء . والمراد بالضلال : الخذلان . فالله تعالى إذا شاء هداية عبده يهتدي ، وإذا أراد ضلالَه وهلاكَهُ يعتدي .

قال ابن القيم في "الفوائد" ص٢٣٣ :" وقد أجمع العارفون على أنَّ كلَّ خير، فأصله بتوفيق الله للعبد ، وكلَّ شرٍّ ، فأصله : خذلانهُ لعبده . وأجمعوا أنَّ التوفيق أن لا يكِلك الله إلى نفسك ، وأنَّ الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك ..فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، يضعُ التوفيق في مواضعه اللائقة به ، والخذلان في مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم " انتهى .

وأنواع الهداية المذكورة في كتاب الله أربعة : أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق قال تعالى : **﴿ الَّذِي أعطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾** [طه:٥٠] . **والنوع الثاني** : هداية البيان والدلالة على كلِّ خير ، والتحذير من كل شر. قال تعالى : **﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾** [البلد:١٠] أي : بيَّنا له الطريقين الواضحين : طريق الخير وطريق الشر . وهذه الهداية أوجبها الله على نفسه رحمة بعباده ، قال تعالى : **﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾** [الليل:١٢] . وبهذه الهداية يظهر اختيار العاقل المكلَّف : فإمَّا أن يختار ويستحبَّ الإيمان ، وإما أن يختار ويستحب العمَى على الهُدى . قال تعالى : **﴿ وأمَّا ثمودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى ﴾**[فصلت :١٧] =

= أي : بيّنا لهم وأرشدناهم ودَلَلْناهم . وقال تعالى:﴿ إنّا هَدَيْنَـاهُ السَّـبِيلَ إمَّـا شاكِراً وإمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : ٣] .

والنوع الثالث : هداية التوفيق والإلهام المستلزمة للاهتداء التي ذكرتُها آنفاً، والتي وردت فيها أكثر آياتِ الهداية ، وهي المقْصودة في قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِين** ﴾ [الأنعام :١٤٩] ، وفي قوله سبحانه : ﴿ **وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نفسٍ هُداها** ﴾ [السجدة :١٣] . وهذه الهداية هي المعنيَّةُ في قوله تعالى : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيم** ﴾ ، ولا يملك هذه الهداية ولا يقدر عليها إلاّ الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ **مَنْ يَهْدِ الله فهوَ المهتدِ وَمَنْ يُضْلِل فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً** ﴾ [الكهف :١٧] . وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هَاد** ﴾ [الرعد :٣٣] و [الزمر :٢٣] و [غافر : ٣٣] .

النوع الرابع : غاية هذه الهداية ، وهي الهداية إلى الجنّة ، قال تعالى :﴿ **إنَّ الَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِم رَبُّهم بإيْمَانِهِم تَجْري من تَحْتِهِمُ الأنْهَار فِي جَنَّاتِ النَّعيم** ﴾ [يونس :٩] . وقال أهل الجنة فيها :﴿**الحمدُلله الَّذِي هَدانا لِهَذا** ﴾ [الأعراف :٤٣] . (لوامع الأنوار للسفّاريني ١:٣٣٤-٣٣٥ بتصرف واختصار) .

أفعالُه وأحكامُه كلُّها الحكمة[1] ،

---

(١) ومن أسمائه سُبْحَانَهُ :الحكيم أي : المتقن لخلق الأشياء بحسن التدبير وبديع التقدير ، بحيث يخضع العقل لرفعته ، ويشهد بإتقان صنعته ، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه** ﴾ [السجدة :٧] وقال : ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾ [الفرقان :٢] ، وقد تكرَّر ذِكرُ هذا الاسم الكريم (الحكيم) في (٨١) موضعاً في القرآن ، والحكمة: وضع الأشياء في مواضعها ، وإيجادها على غاية الإحكام ، فقد وَضَعَ الحكيم العليم سُبْحَانَهُ كُلَّ شيءٍ في الموضع الّذي لا يصلح إلاّ له ، ولا يليق إلاّ به.

قال ابن القيم في " الفوائد " ص٢٢٤-٢٢٥ :" فأحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأعلم العالمين ، الّذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم ، إذا أنزل بهم ما يكرهون ، كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم ، نظراً منه لهم ، وإحساناً إليهم ، ولطفاً بهم ، ولو مكّنوا من الاختيار لأنفسهم ، لعَجَزوا عن القيام بمصالحهم علماً وإرادة وعملاً ، لكنه سبحانه تولّى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته ، أحبُّوا أم كرهوا ، فعرف ذَلِكَ الموقنون بأسمائه وصفاته يتّهموه في شيء من أحكامه ، وخفيَ ذَلِكَ على الجُهّال بأسمائِهِ وصفاته ، فنازعوا تدبيرَهُ ، وقدحوا في حكمته ، ولم ينقادوا لحُكْمِهِ ، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الباطلة،وسياساتهم الجائرة ، فلا لربِّهم عرفوا ، ولا لمصالحهم حصَّلوا ، والله الموفق" انتهى .

لم يخلق شيئاً عبثاً[1] ، أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ علماً[2] ،

---

(١) قالَ تعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] . وقال سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أنْ يُتْرَكَ سُدَى﴾ [القيامة :٣٦] ، وقال عزَّ وجَلّ : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] ، وفي سورةِ الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأرضَ وَمَا بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ [٣٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ص :٢٧] . وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بالحقِّ ﴾ [الحجر:٨٥] ، وقال سبحانه بعد ذكْرِ آياته ، أوَّلَ سورة يونس : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بالحقِّ ﴾ [يونس : ٥] ، فالله سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما ، والجنَّ والإنس لمعرفته وطاعته ، وتنزَّه سبحانه وتعالى عن العبث والباطل . قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمَاً ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

(٢) قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢] ، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ، وقال عز وجل : ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيْطَاً ﴾ [النساء :١٠٨] أي : عالم بجميع أعمال عباده ، حافظٌ لها ، لايعزب عنه شيء منها .

وأحْصَى كُلَّ شيءٍ عَدَداً[1] .

لا يَتَجَدَّدُ له علمٌ بتجدُّدِ الأشياء ، هُوَ الَّذِي يُنْشِئُها على وَفْقِ ما في عِلْمِه[2] .

فعَّالٌ لِما يُريد[3]، لا مُعَقِّبَ لحكمِهِ[4] ، ولا رَادَّ لقضائِهِ ، مُقَلِّبُ القلوب، يحولُ بينَ المرءِ وقلبه[5] .

---

(١) قال تعالى: ﴿وأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِم وَأَحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً﴾ [الجن: ٢٨] ، أي : حصَّله وأحاط به ، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُم وعدَّهُمْ عدًّا﴾ [مريم: ٩٤] .

(٢) لأنَّ الله سُبْحَانَهُ قد سَبَقَ عِلْمُهُ بالكائنات ، وقدَّرَ مقاديرَها قبل خلقِها ، فإنَّ حصولَ المخلوقاتِ على ما فيها من بدائعِ الصُّنع وغرائب الحِكَمِ لا يُتصوَّر إيجادها إلاَّ من عالِمٍ قد سَبَقَ علمه على إيجادها.

(٣) قال الله تعالى :﴿ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْد ﴾ [سورة هود :١٠٧] . وقال سبحانه: ﴿ ذُو العَرْشِ المَجيد ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد ﴾ [البروج :١٥-١٦]

(٤) أي لايؤخِّر حكمه مؤخِّر ، قال الله تعالى: ﴿واللهُ يحكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] أي : لا رادَّ ولا مُبْطِلَ له.

(٥) قال الله سُبْحَانَهُ : ﴿واعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، من الحوْلِ بين الشَّيءِ والشَّيء ، بمعنى الحَجْز والفصْل بينهما ، أي: يحولُ بين المرءِ وخواطر قلبه ، فيمنعه من حصول ما لم يُرِدْهُ منه لحكمة تقتضي ذَلِكَ ، فلا يقْدر الإنسان أن يُدرِكَ شيئاً من =

هو رازقٌ [1] منْ أَرَادَ ، متى أَرَادَ ، أين أَرَادَ ، كما أَرَادَ ، بِمَـا أَرَادَ من المال أو الجاهِ أو العلوم أو الأخلاق أو غيرها [2] .

= إيمانٍ أو كفرٍ إلاَّ بمشيئته تعالى ، فالله سُبْحَانَهُ هو المتصرِّف في القلوب كيف يشاء .

روى مسلمٌ (٢٦٥٤) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "**إنَّ قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرِّفُه حيث شاء**" ، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: "اللهمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ صَرِّف قلوبَنا على طاعتك".

(١) قال الراغب في "المفردات" ص٣٥١-٣٥٢ :" الرِّزقُ يُقَال لِلعَطَاء الجَاري دنيوياً كان أمْ أُخْرَوِياً . والرَّازق يُقال لِخَالِقِ الرِّزق ، ومُعْطِيهِ ، والمُسبِّب لَهُ، وَهُوَ الله تعالى ، ويُقَال ذَلِكَ للإنْسان الَّذِي يَصِير سَبباً في وصول الرِّزق. والرزَّاق لايقال إلاَّ لله تعالى ". وفي "القاموس": الرِّزق -بالكسر- ماينتفع به كل مرتزق والجمع أرزاق ، وبالفتح : المصدر .

(٢) قال ابن الأثير في " النهاية " ٢١٩:٢ :" في أسماء الله تعالى (الرزَّاق) ، وهو الَّذِي خَلَق الأرزاق ، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوْصَلها إليهم . وفعَّال : من أبنية المبالغة. والأرزاق نوعان : ظاهرةٌ للأبْدان كالأقْوات ، وباطنةٌ للقلوبِ والنفوس كالمعارف والعلوم ".

وقال العلاَّمة الشيخ محمد الحَنيفي الحلبي المتوفى بجدة سنة ١٣٤٢ رحمه الله تعالى في "المنهاج السَّديد" ص ١١٩-١٢٠ :" الرزق عند أهل السنَّة:=

قال تعالى: **﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾**[1].

= ماسَاقَهُ الله إلى مخلوقاته فانتفع به بالفعل ، فدخل رزْقُ الإنسان وسائر الدوابِّ وغيرها ، وشمل المأكول وغيره .

وإذا كان الرِّزق ما انتفع به ، فكلُّ ما انتفع به الإنسان أو غيره فقد رَزَقَهُ الله إيَّاه ، فالله يرزق الحلالَ والمكروهَ والمحرَّم . والمُعتزلة خصُّوا الرِّزق بالمملوك شرعاً . وقالوا : إنَّما يرزق الله الحلال فقط ، ولايرزقُ المحرَّم والمكروه ، وهذه المسألة من فروع عقيدتهم الفاسدة :"الحُسْن والقبح العَقْليين" . ويلزم عليه : أنَّ مَنْ أكلَ الحرام طول عمره لم يرزقه الله أصلاً، وهو خلافُ النصوص فهو مردود " انتهى باختصار.

(١) من سورة الحجر ، الآية:٢١ ، ومعنى الآية: وَمَا من شيءٍ إلاَّ عند الله في حكمه وتصرُّفه وأمره وتدبيره ، **﴿خَزَائِنُه﴾** جمع خزانة ، وهي اسمٌ للمكان الَّذِي تُخزَنُ فيه نفائسُ الأموال للحفظ ، والكلام تمثيلٌ لإفادةِ أنَّ مقدوراته التي لا تُحصَى في كونِها محجوبةً عن الخلق ، مَصونةً عن الوصول إليها مع وفور رغبتهم فيها ، وفي كونِها متهيِّئةً للإيجاد والتكوين ، بحيثُ متى تعلَّقت إرادته تعالى بوجودها وُجدت بلا إبْطاء ، شبيهة بنفائسِ الأموال المخزونةِ للحفظ المعدَّة للتصرُّف فيها بإرادةِ مالكِها **﴿وما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بقدَرٍ مَعْلُوم﴾** وما توجد شيئاً من تلك المقدورات إلاَّ بمقدارٍ معيَّن تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه المشيئة . (صفوةُ البيان ، ص ٣٣٦). =

خَلَقَ العرشَ[1]

= قال ابن القيم في " الفوائد " ص٤٣٧ : " قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر : ٢١] مُتضمِّنٌ لكنزٍ مِنَ الكنوز ، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ لا يُطْلَبُ إلاَّ ممَّن عنده خزائنه ، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه ، وأنَّ طلبهُ من غيره طَلَبٌ ممَّن ليس عنده ، ولا يقدر عليه " انتهى .

(١) قال البيهقي في " الأسماء والصفات" ص٣٩٢ : " اتفقت أقاويل أهل التفسير على أنَّ العرش هو السَّرير ، وأنَّه جسمٌ خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبَّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به ، واستقباله في الصلاة ، وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة على صحَّة ماذهبوا إليه " انتهى .
وقد ذَكَرَ سُبْحَانَهُ (العرش) في كتابه في إحدى وعشرين آية ، وبيَّنَ عظمتَهُ ، وكرامتَهُ ، ورفْعَتَهُ ، وسَعَتَهُ ، وحَمَلَتَهُ ، قال تعالى: ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] ، ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] .
وفي صحيح البخاري (٧٤٢٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**إذا سألتم الله فسَلوهُ الفردوسَ ، فإنّه أوْسَطُ الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن**".
كما ذَكَرَ سُبْحَانَهُ حَمَلَةَ العرش وَمَدَحَهُمْ وبيَّنَ وظائفهم ، فقال سُبْحَانَهُ : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا..﴾ [غافر: ٧] .
=

والكُرسيَّ[1] ، وخلق اللوحَ والقلم[2]، وخلقَ الملائكةَ والجنَّ والإنسَ وَسَائِرَ الحيوانات ، وهو مُغذِّيها برَّاً وبحراً ، ليلاً ونهاراً .

= والعرشُ العظيم مُحيطٌ بجميع العوالم ، وهو مَصْدر البيانات والبَلاغات الإلهيَّة؛ فتبلَّغ أولاً للذين يحملون العرش ومَنْ حَوْلَهُ .
وقد بيَّنَ سُبْحَانَهُ أنَّ التدابيرَ الإلهيَّة ، والأوامرَ الربَّانية تتنزَّلُ من عالم العرش ، فما تكادُ تمرُّ بآيةٍ يُخبرُ فيها سُبْحَانَهُ أنه استوى على العرش إلاَّ وجاءَ بعدها ما يدلُّ على التدبير ، أوالتسخير ، أو التصرُّف في المخلوقات.

(١) قَالَ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وأصل الكرسي في اللغة: من تركُّب الشيء بعضه على بعض ، ومنه: الكُرَّاسة لِتَركُّبِ بعضِ أوراقِها على بعض ، واختلفوا في المراد بالكرسِيِّ على عِدَّةِ أقوال: أحدها: أنَّ الكرسِيَّ هو العرش ، والقولُ الثاني: أنَّ الكرسيَّ غيرُ العرش ، وهو أمامه ، وهو فوق السموات السبع ودون العرش .
قال الحافظ في "الفتح" ١٣:٤١١ : "وفي حديثِ أبي ذر الطويل الَّذِي صححه ابن حبان ٢:٧٦(٣٦١) أنَّ رسول الله ﷺ قال: " **يا أبا ذر ما السَّموات السَّبعُ مع الكُرسيِّ إلاَّ كحلقةٍ مُلْقَاةٍ بأرضِ فلاةٍ ، وفضلُ العرش على الكرسي كفضل الفلاةِ على الحلقة**" . فعالَم الكرسيِّ وَمَا حواه من سَمَوَاتٍ وأرضين بالنسبة لعالم العرش كحلقةٍ في فلاة.
وينظر تفسير الطبري ٥:٤٠١-٤٠٢وَمَا رجَّحه من قول ابن عباس رَضِيَ الله عنْهُمَا .

(٢) سيأتي الكلام عن اللوح والقلم في مباحث القدَر ص١٣٤-١٣٦.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [1] .

---

(١) من سورة الأنعام ، الآية: ٥٩ ، ومعنى الآية الكريمة: ﴿مفاتِحُ الغَيْب﴾ مفاتح جمع مِفْتح -بكسر الميم- : المفتاح الَّذِي يُفتَح به المِغْلاق ، أي: عنده سبحانه مفاتيح الغيب ؛ لأَنَّهُ سبحانه عالم بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب ، أو المراد بالمفاتح جمع مَفتَح -بفتح الميم- : الخزانة ، أي عنده خزائن الغيب .

والمراد بمفاتح الغيب ما رواه البخاري في صحيحه (٩٩٢) في كتاب الاستسقاء عن عبدا لله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال : " **مَفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاَّ الله تعالى: لا يعلم أحدٌ ما يكونُ في غدٍ ، ولا يعلمُ أحدٌ ما يكونُ في الأرحام ، ولا تعلم نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت ، ولا يدري أحدٌ متى يجيئُ المطر** " .

وقال ابن عباس : إنّها خَزائنُ غيب السَّموات والأرض من الأقْدار والأرزاق .

ولما قال الله تعالى: ﴿**وَعَنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ**﴾ على سبيل الإجْمال ، ذَكَرَ من بَعْد ذَلِكَ الإجمالِ ما يدلُّ على التفصيل : ﴿**ويعلمُ ما في البرِّ والبحر**﴾ من عجائب مصنوعاته وغرائب مُبْتَدَعَاتِهِ ، وَمَا فيهما من أصناف المخلوقات ما يعجز الوصف عن إدراكِها ، مِمَّا يَدُلُّ على عظيم قدرته وسَعَةِ علمه ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها**﴾ أي: يعلمُ عددها وأحوالها قبل السقوط =

= وبعده ﴿**ولا رَطْبٍ ولا يَابِس**﴾ قال ابن عباس : الرَّطْب : الماء ، واليابس : البادية ، وقيل : المراد بالرَّطْب: الحي ، واليابس: الميت ، وقيل: هو عبارة عن كل شيءٍ ؛ لأن جميعَ الأشياء إما رطبة وإما يابسة . وَذَكَر الله تعالى هذه الأشياء المحسوسة ليدلَّ بهَا على غيرها ، فقدَّم ذكر البرِّ والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة مافيها من المعادن والحيوان وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها ، ثمَّ ذكر بعد ذَلِكَ ما هو أقلُّ من ذَلِكَ ، وهو مُشَاهَدٌ لكلِّ أحد ؛ لأنَّ الورقة الساقطة والثابتة يراها كلُّ أحد ، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلاَّ الله تعالى ، ثمَّ ذكر بعد ذَلِكَ ما هو أصغر من الورقة وهي الحبَّة ، ثمَّ ذكر بعد ذَلِكَ مثالاً بجمع الكُلَّ ، وهو الرَّطْب واليابس ، فذكر هذه الأشياء ، وأنَّه لايخرج شيءٌ عن علمه سبحانه ، فصارت هذه الأمثال مُنبِّهةً على عَظَمةٍ عظيمة ، وقدرةٍ عالية ، وعلم واسع، فسبحان العليم الخبير .

﴿ **إلاَّ في كتابٍ مُبين** ﴾ فيه قولان : أحدهما أنَّ الكتاب المبين هو علمُ الله الَّذِي لايُغيَّر ولا يبدَّل ، والثاني : أنَّ المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ؛ لأنَّ الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، وفائدة إحصاء الأشياء كُلِّهَا في هذا الكتاب لتقف الملائكة على إنفاذ علمه .

ونبَّه بذلك على على تعظيم الحساب ، وأعلم عباده بأنَّه لا يفوته شيءٌ مما يصنعونه، لأنَّ من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتابٍ ، فهو إلى =

= إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع " انتهى من " تفسير الخازن" ٢:٢١ ، وانظر : في شرح حديث ابن عمر المتقدِّم : " **مفاتح الغيب خمس .....**" كتاب "فتح الباري" للحافظ ابن رجب الحنبلي ٩:٢٦٧-٢٧٢ .

وقال الحافظ ابن كثير في " تفسيره" ٤:١٧٥٨ :" فأخبرا لله تعالى أنّه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدوابُّ السَّارحة ، في قوله :﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ على ا للهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدعَها كُلٌّ في كِتَابٍ مُبِين**﴾ [هود :٦] .

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف بعلمه بحركات المُكلَّفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى:﴿ **وَمَاتَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهُودَاً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرضِ ولا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِين**﴾ [يونس :٦١] فهو سبحانه يعلمُ جميعَ أحوال نبيِّه ﷺ وأحوال أمَّته ، وجميع الخلائق في كلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظة ، وأنّه لايعْزُب عن علمه وبصره مثقال ذرَّةٍ في حقارتها وصغرها في السَّموات ولا في الأرض ، ولاأصغر من ذَلِكَ ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين "انتهى.

س١- هل يُقال: ا لله كائنٌ في كلِّ مكان؟

لا يقال ؛ لأنه صورة القول بالحلول والاتحاد ، وهو كفرٌ ، فا للهُ مُسْتَوٍ على عرشِهِ[1] ،بَائِنٌ من خَلْقِه[2]، قريبٌ لَهُمْ بعلمِهِ

(١) قال تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ على العَرْش اسْتَوى**﴾ [طه : ٥] ، وقال سُبْحَانَهُ : ﴿ **ثمَّ اسْتَوى على العَرش** ﴾ وورد النصُّ القرآنِيُّ الكريم بهذا اللفظ في ستةِ مواضع من كتابِ ا لله العزيز ، وذلك في سورةِ الأعراف الآية ٥٤ ، وفي سورةِ يونس الآية ٣، وفي سورةِ الرعد الآية ٢ ، وفي سورةِ الفرقان الآية ٥٩ ، وفي سورةِ السجدة الآية ٤ ، وفي سورةِ الحديد الآية ٤ .

(٢) بمعنى أنه غير مُمَازِجٍ للخَلْق ، يقال : بانَ منه وعنه : بعُدَ وانفصل .

قال الشيخ العارف مَعْمَرْ بن أحمد الأصفهاني (ت ٤١٨) أحد شيوخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة :" وإنه عزَّ وجل مُسْتَوٍ على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، والخلق منه بائنون بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة ؛ لأنَّهُ الفرد البائن من الخلق ، الواحد الغني عن الخلق .." (القاعدة المراكشية ٥:١٩١ ، والصواعق المرسلة ٤:١٢٩٠) .

وقال الشيخ ابن تيمية في " التوسُّل والوسيلة " :" وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، ليس في مخلوقاته شيءٌ من ذاته ، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته ، وهو سبحانه غنيٌ عن العرش وعن سائر المخلوقات " (الفتاوى الكبرى ١:٣٦٧) .

وملائكته[1].

---

(1) قال تعالى :﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة :١٨٦] . وقال عزَّ وَجَلّ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنعلمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ونَحنُ أَقْرَبُ إليهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦] أي: ونحن بعلمِنا به وبأحواله أقربُ إليه من أقربِ شيءٍ إليه ، وهو عرقُ الوريد الّذي في باطن عنقه ، فالمراد : القربُ بالعلمِ لا القرب في المكان ؛ لاستحالته عليه تعالى .

قال ابن القيم في " الفوائد " ص٥٠ :" أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به ، حتى علِم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة ، وأنَّ ذَلِكَ أدنى إليه من العرق الّذِي هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذَلِكَ العرق . وقال شيخنا – أي ابن تيمية – : المراد بقوله ﴿**نَحْنُ**﴾ ؛ أي : ملائكتنا ؛ كما قال : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة : ١٨] ؛ أي : إذا قرأه عليك رسولنا جبريل . قال : ويدلُّ عليه قوله :﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ** ﴾ [ق:١٧] ؛ فقيَّد القربَ المذكور بتلقي المَلَكَيْن ، ولو كان المرادُ به قُربَ الذات ، لم يتقيَّد بوقت تلقّي المَلَكَيْن " انتهى .

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرونَ**﴾ [الواقعة: ٨٥] أي : ونحن أقربُ إلى المحتضَرِ منكم بعلمِنا وقدرَتِنا أو ملائكتِنا ورسلِنا، ولكنّكم لاتَرَوْنَهُم . =

= قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في " فتح الباري " ٣:١١١-١١٧ :" وقد أخبر الله تعالى بقربه ممَّن دعاه وإجابته له تعالى ، فقال : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيب..** ﴾ وقد رُوي في سبب نزولها : أنَّ أعرابياً قال : يارسول الله ! أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿**وإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فَإِنّي قَرِيب**﴾ خرجه ابن جرير وابن أبي حاتم. وروى عبدالرزّاق عن جعفر بن سليمان ، عن عوف ، عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله ﷺ : أين ربُّنا ؟ فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ **وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ** ﴾ .

وقد خرج البخاري في الدعوات (٦٦١٠) : " **إنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنّكم تدعون سميعاً قريباً** " وفي المسند ٤:٤٠٢ : " **إنّه أقربُ إليكم من أعناقِ رَوَاحِلِكم** " .

ولم يكن أصحاب النبي ﷺ يفهمون من هذه النصوص غيرَ المعنى الصحيح المراد بها ، فيستفيدون بذلك معرفة عظمة الله وإجلاله ، واطّلاعه على عباده ، وإحاطته بهم ، وقربه من عابديه ، وإجابته لدعائهم ، فيزدادون خشيةً لله وتعظيما، وإجلالاً ومهابةً ، ومراقبةً واستحياءً ، ويعبدونه كأنّهم يرونه .

ثم حدث بعدهم من قلَّ ورعه ، وساء فهمه وقصْده ، وضعفت عظمة الله وهيبته في صدره ، وأراد أن يرى الناس امتيازه عليهم بدقة الفهم وقوة النظر، فزعم أنَّ هذه النصوص تدلُّ على أنَّ الله بذاته في كلِّ مكان . =

= كما يُحكى ذَلكَ عن طوائف من الجهميَّة والمعتزلة ومَنْ وافقهم . تعالى الله عمَّا يقولون عُلوّاً كبيراً . وهذا شيء ما خَطَر لمن كان قبلهم من الصحابة رضي الله عنهم . وهؤلاء ممَّن يتبع ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله ، وقد حذَّر النبيُّ ﷺ أمَّته منهم في حديث عائشة رضي الله عنها الصحيح المتفق عليه -البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥) -

وتعلّقوا -أيضاً- بما فهموه بفهمهم القاصر مع قصدهم الفاسد ، بآياتٍ في كتاب الله تعالى ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَمَا كُنْتُم** ﴾ [الحديد:٤] ، وقوله : ﴿ **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم** ﴾ [المجادلة :٧] . فقال من قال من علماء السلف حينئذٍ : إنما أراد أنه معهم بعلمه ، وقصدوا بذلك إبطال ما قاله أولئك مما لم يكن أحدٌ قبلهم قاله ولا فهمه من القرآن .

وحكى ابن عبد البر وغيره إجماعَ العلماء من الصحابة والتابعين في تأويل قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَمَا كُنْتُم** ﴾ [الحديد :٤] أنَّ المراد علمه .

وكلُّ هذا قصدوا به ردَّ قول من قال : إنَّه تعالى بذاته في كلِّ مكان .

وزعم بعض من تَحَذْلَق أنَّ ما قاله هؤلاء الأئمة خطأ ؛ لأنَّ علم الله صفة لا تفارق ذاته .

وهذا سوء ظنٍّ منه بأئمة الإسلام ؛ فإنَّهم لم يريدوا ما ظنَّه بهم ، وإنَّما أرادوا أنَّ علم الله متعلِّقٌ بما في الأمكنة كلِّها ، ففيها معلوماته لا صفةُ ذاته كما وقعت الإشارة في القرآن إلى ذَلكَ بقوله : ﴿ **وسِعَ كلَّ شيء علماً** ﴾ [طه : ٩٨] . وقوله : ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً** ﴾ =

واستواؤه تعالى على العرش يجبُ الإيمانُ بِهِ دونَ تعرُّضٍ لِكَيْفِيَّتِه[1] ، كالسَّمْعِ والبصَر ، وسائرِ صفاتِهِ تعالى الثابتةِ بلسان

= [غافر:٧] ، وقوله : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخْرُجُ منْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَمَا كُنْتُم** ﴾ [الحديد : ٤] .

ثمَّ قال : " وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ قربَ الله من خلقه شاملٌ لهم ..وليس هذا القرب كقُرب الخلق المعهود منهم ، كما ظنَّه مَنْ ظنَّه من أهل الضلال، وإنَّما هو قربٌ ليس يشبه قرب المخلوقين ، كما أنَّ الموصوف به ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾ [الشورى :١١] " انتهى .

وقال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ٨:٤٠٢ :" قلت : إنَّ الجهميَّة يقولون: إنَّ الباري تعالى في كلِّ مكان ، والسَّلف يقولون : إنَّ علم الباري في كلِّ مكان . ويحتجُّون بقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَمَا كُنْتُم** ﴾ [الحديد:٤] يعني : بالعلم ، ويقولون : إنَّه على عرشه استوى ، كما نطق به القرآن والسنَّة " انتهى .

(١) قال الإمام أبو عمرو الداني المتوفى سنة (٤٤٤) رحمه الله تعالى في " الرسالة الوافية" ص٥٢:" واستواؤه جلَّ جلاله : علوُّه بغير كيفيَّةٍ ، و لا تحديد ، ولا مجاورة ، و لا مماسَّة " انتهى . و قال الإمام جمال الدين الغزنوي الحنفي المتوفَّى سنة (٥٩٣) رحمه الله تعالى في كتابه "أصول الدين" ص ٧٥: "استواؤه على العرش حقٌّ وصِدْقٌ ، ونحن نؤمنُ ونعتقد على الوجه الَّذي أراده ، ولا نشتغل بكيفيته" انتهى. =

الشَّرع[١] .

= وقال الإمام الحافظ البيهقي في " الأسماء والصفات " ص٣٩٦ :" وليس قولنا: إنَّ الله استوى على العرش، أي مماسٌّ له ، أو متمكِّنٌ فيه ، أو متحيِّزٌ في جهةٍ من جهاته ، لكنه بائنٌ من جميع خلقه ، بل هو خبرٌ جاء به التوقيف فقلنا به ، وَنَفَيْنَا عنه التكييف ، إذ ليس كمثلِهِ شيءٌ ، وبالله التوفيق" انتهى، ونقله الحافظ ابن حجر في "الفتح" ١٣:٤١٣ .

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣:١٤٣٨ عند تفسير قوله تعالى :﴿ ثُمَّ اسْتوى عَلى العَرْش ﴾ [الأعراف :٥٤] : " فللنّاس في هذا المقام مقالاتٌ كثيرةٌ جداً ، ليس هذا موضعَ بسطها ، وإنَّما يُسْلَك في هذا المقام مذهبُ السَّلف الصالح : مالكٍ ، والأَوْزاعي ، والثَّوري ، واللَّيْثِ بن سعد ، والشافعي، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهُويه ، وغيرهم من أئمَّة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إِمْرارُها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادَرُ إلى أذهان المُشبِّهين منفيٌّ عن الله، فإنَّ الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ ، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم : نُعيم بن حمَّاد الخزاعي شيخ البخاري- : "من شبَّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جَحَد ما وصَف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسَه ولا رسولُه تشبيه " . =

هَذَا الَّذِي اتَّفق عليه الأئمةُ الأربعة وغيرُهم من أساطين

= فمن أثبتَ لله تعالى ما وردت به الآيات الصَّريحة والأخبار الصَّحيحة ، على الوجْهِ الَّذِي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن اللهِ تعالى النقائص ، فقد سَلَك سَبيل الهُدى " انتهى .

وقال الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١٠:٦١٠ -٦١١ في ترجمة نُعيم بن حمَّاد (ت٢٢٩) : بعد أن ساق بسنده إليه قوله :" من شبَّه الله بخلقه فقد كفر ..." . قلت : هذا الكلام حق ، نعوذ بالله من التشبيه ، ومن إنكار أحاديث الصفات ، فما ينكر الثابت منها مَنْ فَقِهَ ، وإنَّما بعد الإيمان بهَا هنا مقامان مذمومان : **تأويلُها وصرفُها عن موضوع الخطاب** ، فما أوَّلها السَّلف ولا حرَّفوا ألفاظَها عن مواضِعِها ، بل آمنُوا بِهَا ، وأمَرُّوها كما جاءت .

المقام الثاني : المَبَالَغةُ في إثباتها ، وتصوُّرها من جنس صفاتِ البشر ، وتشكُّلها في الذِّهن ، فهذا جهلٌ وضلال ، وإنَّما الصفةُ تابعةٌ للموصوف ، فإذا كان الموصوف عزَّ وجل لم نَرَه ، ولا أخبرنا أحدٌ أنَّه عاينه ، مع قوله لنا في تنزيله : ﴿ لَيْسَ كمثِلِه شَيءٌ ﴾ ، فكيف يبقى لأذهاننا مجالٌ في إثبات كيفيَّة الباري ، تعالى الله عن ذَلِكَ ، فكذلكَ صفاتُهُ المقدَّسة ، نُقِرُّ بِهَا ونعتقد أنَّها حقٌّ ، ولا نمثِّلها أصْلاً ولا نشكِّلها " انتهى .

السُّنَّة[1]، وهو المعقول.

(١) روى أبو القاسم اللالكائي في كتاب " السنة " ٣:٤٣٢(٧٤٠) عن محمد ابن الحسن صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى قال : " اتّفق الفقهاء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ عزَّ وجل من غير تفسير ولا وصْف ولا تشبيه " . وقال الترمذي تعقيباً على حديث أبي هريرة في كتاب صفة الجنة ٤:٥٩٧ (٢٥٥٧) :" والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك ، وابن عُيينة ، ووكيع وغيرهم ، أنّهم رَوَوْا هذه الأشياء ، ثم قالوا : تُرْوَى هذه الأحاديث ويؤمَنُ بها ، ولا يُقال : كيف ؟ وهذا الّذي اختاره أهل الحديث : أن يرووا هذه الأشياء كما جاءت ويؤمَن بها ، ولا تفسَّر ، ولا تُتَوَهَّمُ ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا أمر أهل العلم الّذي اختاروه وذهبوا إليه " انتهى .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى:"الاستواءُ معلومٌ ، والكَيْفُ غير معقول ، والإيمانُ بِهِ واجبٌ ، والسُّؤالُ عنه بدعة" ، وقد اشتهرت هذه المقولة عن الإمام مالك ، وعن غيره من السَّلف ، وأخرجها عنه البيهقي في "الأسماء والصفات" ص ٤٠٨-٤٠٩ ، وجوَّدَ إسنادَها الحافظُ ابن حجر في "الفتح" ١٣ : ٤٠٦-٤٠٧.

وفي " الانتقاء " لابن عبدالبر ص ٧٣ :" قال الوليد بن مسلم : سألت الأوْزاعيَّ وسفيانَ الثوري ومالكَ بن أنس والليثَ بن سعد عن هذه =

ولا يجوزُ التفكُّرُ في ذات الله تعالى[1] .

= الأحاديث التي فيها ذكر الرُّؤية ، فقالوا : أمِرُّوها كما جاءت ، بلا كيف .

وكان مالكٌ كثيراً ما يتمثّل بقول الشاعر :

وخير أمور الدين ماكان سنّةً وشرُّ الأمور المُحْدثات البدائع

(١) ومن أين للمخلوق أن يتفكّرَ في ذاتِ خالقه؟ ومن أين للعاجز أن يتفكّرَ في القادر ؟ ومن أين للجاهل أن يتفكّر في العالم؟ ومن أين للمحدودِ أن يتفكّرَ في الواسع؟ فالعقلُ الإنسانيُّ أعْجَزُ من أن يحيط بحقيقةِ الذاتِ الإلهية .

قال العلامة المفسِّر المحدِّث أحمد رافع الطهطاوي في " كمال العناية" ص٧٢-٧٣ :" إنَّ الله سبحانه خلق العقول وأعطاها قوة الفكر ، وجعل لها حدّاً تقف عنده ، فإذا تفكّرت فيما هو في طَوْرها وحدِّها ووفّت النظر حقّه أصابَتْ بإذن الله تعالى ، وإذا تفكّرت فيما هو خارج عن طَوْرها ووراء حدِّها ركبت مَتْن عمياء ، وخَبَطَت خَبْطَ عشواء ، فلم يثبت لها قدَم، و لم تركز على أمر تطمئن إليه " انتهى .

وإذا ثَبتَ عجزُ الإنسانِ عن معرفة كُنْهِ كثيرٍ من الأشياء من حولهِ ، بل لم يعرف حقيقةَ نفسه ، وكيف يعمل عقله ، فكيف يطمعُ أن يدرك كنهَ ربِّه سُبْحَانَهُ؟ والله جلَّ وعلا يقول: ﴿**يعلمُ مَا بَيْنَ أيديهِمْ وَمَا خلفَهُمْ ولا يُحيطُونَ به عِلْماً**﴾ [طه:١١٠] ، ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. =

= وفي الحديث: "**تفكّروا في آلاءِ الله ولا تفكّروا في الله فتهلِكوا**" ، رواه أبو نُعيمٍ في "الحلية" عن ابنِ عباسٍ ﷺ ، وفي رواية: "**تفكّروا في خلقِ الله ولا تتفكّروا في الله**" رواه أبو الشيخ في العظمة ١ :٢١٠(١) والطبراني في "الأوسط" ٦ :٢٥٠(٦٣١٩)عن ابن عمر مرفوعاً بأسانيدَ ضعيفة ، والحديث حَسَنٌ بمجموعِ طرُقِهِ.

وناجَى رسولُ الله ﷺ ربَّهُ فقال:"**لا أُحصي ثناءً عَلَيكَ أنْتَ كَمَا أثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**" رواه مسلم (٤٨٦).

ورُوِيَ عن أبي بكرٍ الصدِّيق ﷺ: "العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراك".

قال الطهطاوي في " كمال العناية " ص٧٣ :" يعني : أنَّ عجز العقول عن الوصول إلى هذه المعرفة التي هي نهاية الإدراك ناشئٌ من كمال الإدراك . ويحتمل : أنَّ المراد أنَّ هذا العجز إدراك لما هو مطلوب شرعاً من الوقف ، وأنَّ إدراك هذا العجز إدراك عظيم .

ومقالة الصديق هذه مِصْرَاعٌ موزون بلا قصد وقد ضمَّنها بعضهم ، فقال :

لايعرف الله إلاَّ الله فاتَّئِـدُوا ... والدينُ دينـان إيمانٌ وإشْـراك

وللعقول حدودٌ لا تجاوزهـا ... والعجز عن دَرَك الإدراك إدْراك "

ويقولُ الإمام أبو القاسم الجنيد (ت٢٩٧) رحمه الله تعالى : "لا يعرف الله إلاَّ الله".

ولذلك يجبُ على الإنسانِ أن يوفِّر جهده العقليَّ ، ولا يضيِّعه فيما لا قُدْرَةَ عليه ، ولا سبيلَ إلى معرفتِهِ ، وأن يبتعدَ عن هذه السَّاحةِ ، لأنها سَتُدخلُهُ في متاهةٍ لا يصل فيها إلى قرار. =

س٢- هل يُفَسَّر استَوى باسْتولى في آيـة: ﴿الرَّحْمَـنُ عَلَـى العَـرْشِ اسْتَوَى﴾؟

= يقول الإمام الفخر الرازي (ت٦٠٦) رحمه الله تعالى:

العلمُ للرَّحمنِ جلَّ جلالُهُ ... وسِوَاه في جَهَلاته يَتَغَمْغَمُ

مَا للتُرابِ وللعلوم وإنَّما ... يسـعَى ليعلم أنه لا يعلم

وقال السيوطي في رسالته " القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربَّه " كما في " الحاوي " ٢ :٢٤٠ :

قـل لمـن يَفْهَـمُ عنِّـي مـا أقـول ... قَصِّـر القـولَ فـذا شـَرحٌ يطُـول

هـو سـرٌّ غـامض مِـنْ دُونِـهِ ... ضُربـت والله أعنـاقُ الفحـول

أنـتَ لا تَعْـرفُ إيَّـاك وَلا ... تَـدْر مَنْ أَنْتَ وَلا كَيْفَ الوُصُـول

لا ولا تَـدْر صِفَـاتٍ رُكِّبَـتْ ... فيك حَـارَتْ في خَفَايَاهَـا العُقُـول

أيـنَ منـك الـرُّوح في جوهرهـا ... هـل تراهـا فترى كيف تجـول ؟

هـذه الأنفـاسُ هـل تحصرهـا ... لاولاتـدري متـى عنـك تـزول

أيـن منـك العقـل والفهـم إذا ... غَلَـبَ النـومُ فقـل لي يـاجهول

أنـت أكـلُ الخـبز لاتعرفـه ... كيـف يجري منك أم كيف تبـول

فـإذا كـانت طوايـاكَ الـتي ... بـين جَنْبيـك كـذا فيهـا ضلـول

كيف تدري مَنْ على العرش استوى؟ ... لاتقل كيف استوى كيف النزول؟

كيف يحكـي الـرب أم كيف يُـرى ؟ ... فَلَعَمْـري ليـس ذا إلاَّ الفضـول

جـلَّ ذاتاً وصـفاتاً وسَـمَا ... وتَعَالى قَـدْرُه عَـمَّا تقول

لا يجوزُ تفسيره باستولى ولا بغيرها [١] . وأيضاً: لا يستقيم ؛ لأن استواء الاستيلاء يكونُ بعد المنازعة والمغالبة ، تعالى الله عن ذلك ،

---

(١) قال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء "١٠:٥٠٥-٥٠٦:" قلت : قد فسَّر علماء السَّلف المهم من الألفاظ وغير المهم ، وما أبقوا ممكناً ، وآيات الصفات وأحاديثها لم يتعرَّضوا لتأويلها أصلاً ، وهي أهمُّ الدين ، فلو كان تأويلُها سائغاً أو حتماً ، لبادروا إليه ، فعُلِمَ قطعاً أنَّ قراءتها وإمْرارها على ما جاءت هو الحقُّ ، ولا تفسير لها غير ذَلِكَ . فنؤمن بذلك ونسكت اقتداءً بالسلف ، معتقدين أنَّها صفاتٌ لله تعالى ، استأثر الله بعلم حقائقها ، وأنَّها لا تشبه صفات المخلوقين ، كما أنَّ ذاته المقدَّسة لا تُماثل ذوات المخلوقين، فالكتاب والسنَّة نطق بهَا ،والرسولُ ﷺ بلَّغ ،وما تعرَّض لتأويل، مع كون الباري قال :﴿ **لِتُبيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِم**﴾[النحل:٤٤]. فعلينا : الإيمان والتسليم للنصوص ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " .

وقال أيضاً ١٢:٢٢١ :" إنَّ كل نصٍ ألقاه ﷺ إلى أمَّته ، ولم يزدهم فيه تفسيراً ، ولا هم سألوه ، ولا فسَّروه لمن بعدهم ، فإنَّ قراءته تفسيره ، فلا يُزاد عليه ، ولا يُبْحث فيه ، ولا سيما إذا كان في أسماء الله وصفاته المقدَّسة" انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب في"فضل علم السَّلف على علم الخلف" ص٥٤:"والصَّواب ما عليه السَّلف من إمرار آياتِ الصفات وأحاديثها =

= كما جاءت من غير تفسيرٍ لها ولا تكييف ولا تمثيل ، ولا يصحُّ عن أحدٍ منهم خلاف ذَلِكَ ألبتة ، خصوصاً الإمام أحمد ، ولا خوضٍ في معانيها ، ولاضرب مثل من الأمثال لها " .

وقال أيضاً في " اخْتِيَار الأَوْلى" ص٤٠-٤١ :" وأمَّا وصفُ النَّبي ﷺ لربِّه عزَّ وجل بما وصف به ، فكلُّ ما وصف النبيُّ ﷺ به ربَّه عزَّ وجل ، فهو حقٌّ وصدقٌ يجب الإيمان والتصديق به كما وصف الله عزَّ وجل به نفسه مع نفي التمثيل عنه ، ومن أشكل عليه فهمُ شيء من ذَلِكَ واشتَبَهَ عليه فليقل كما مدح الله تعالى الراسخين في العلم وأخبر عنهم أنَّهم يقولون عند المتشابه : ﴿ **آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا** ﴾ [آل عمران :٧] ، وكما قال النبي ﷺ في القرآن :" **وما جهلتم منه فكِلُوهُ إلى عالِمِهِ** " أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما ، ولا يتكلَّف ما لاعلم له به ، فإنَّه يُخشَى عليه من ذَلِكَ الهَلَكَةُ " انتهى .

وقال ابن رجب في " فتح الباري" ٣:١١٧ :" فلهذا اتَّفق السَّلف الصالح على إمرار هذه النصوص كما جاءت من غير زيادة ولا نقص ، وما أشكل فهمه منها ، وقَصُرَ العقل عن إدراكه وُكِلَ إلى عالِمِهِ " انتهى .

وقال أيضاً في "فتح الباري" ٧:٢٣٤ :" كل ما أثبَتَهُ الله لنفسه أو أثبَتَهُ له رسولُه ، فإنَّه حقٌّ وصدقٌ يجب اعتقاد ثبوته مع نفي التمثيل عنه . فكما أنَّ الله ليس كمثله شيء في ذاته فكذلك في صفاته ، وما أشكل فهمُه من ذَلِكَ، فإنَّه يقال فيه ما مدح الله الراسخين من أهل العلم أنَّهم يقولون =

كبيتِ استواءِ بِشْرٍ على العراق الَّذِي استدلَّ بِهِ المعتزلة[1].

ومنهم سَرَى إلى بعض المتأخِّرِينَ من أهلِ السُّنَّةِ ، فهو قولُ المعتزلة ، وقد ردَّ عليهم أبو الحسن الأشعري في ذلك رداً

= عند المتشابهات : ﴿ **آمنَّا به كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا** ﴾ [آل عمران :٧] ، وما أمر به رسول الله ﷺ في مُتشابه الكتاب أنَّه يُردُّ إلى عالِمِهِ ، والله يقول الحقَّ ويهدي السبيل " .

ثمَّ قال ٧: ٢٤٠ :" وأمَّا السَّلف وأئمة أهل الحديث فعلى الطَّريقة الأولى، وهي الإيمان بجميع ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّه أثبته له ، مع نفيِ التمثيلِ والكيفيَّة عنه ، كما قاله ربيعة ومالك وغيرهما من أئمة الهدى في الاستواء ، وروي عن أمِّ سلمة أمِّ المؤمنين . وقال مثل ذَلِكَ غيرهم من العلماء في النزول ، وكذلك القول في سائر الصفات ، والله سبحانه وتعالى الموفّق " انتهى.

(١) وهو: قد استوى بِشْرٌ على العراقِ — مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ
أورده الجوهريُّ المتوفى سنة (٣٩٣)في "الصحاح" مادة (سوا) ٦: ٢٣٨٥ ، وعند ابن منظور في "اللسان" مادة (سوا) ١٤: ٤١٤ ، ولم ينسباه لأحدٍ ، ونسبه ابن كثير في "البداية والنهاية "٧:٩ و الزَّبيدي في "التاج" ١٠: ١٨٩ للأخطل.

بليغاً[1] ، وابن عبدالبر[2] وغيرُهما من المحققين فَلْيَسْتَفِدْها من لم يَسْبِقْ له العلمُ بها.

❁❁❁

(١) انظر: "الإبانة" ص ١١٩-١٢٧، و "الرسالة إلى أهل الثغر " ص ٢٣٣-٢٣٤ لأبي الحسن الأشعري .

(٢) انظر: "التمهيد" لابن عبدالبر ٧: ١٢٨ وَمَا بعدها.

س٣- مَن همُ الملائكة وما وظيفتهم؟

عبادٌ لله مطيعونَ عابدون معصومون ، وهم أجْرامٌ من نور[١]، لا إناثَ ولا ذكور [٢] ، وقد يَتَشكَّلونَ بشكلِ الآدَمِيِّ عند الحاجة [٣] .

---

(١) والدليل على أنَّهم أجرامٌ من نور ، مارواه مسلم في صحيحه (٥٣١٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " **خُلقت الملائكة من نور ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار ، وخُلق آدم مما وُصف لكم** " . وقد أنكر قومٌ من الزائِغينَ كون الملائكة أجساماً من نور ، وقالوا: إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنةِ في المخلوقات ، وهذا تكذيبٌ لكتابِ الله تعالى ، وسنةِ رسوله ﷺ، وإجماعِ المسلمين.

(٢) قال تعالى رداً على المشركين الَّذِينَ حكموا على الملائكة بالأنوثة :﴿**وجَعلُوا الملائكةَ الَّذِينَ هُمْ عبادُ الرَّحمن إناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُم ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهم ويُسْألونَ**﴾ [الزخرف :١٩] . ومن ثَمَّ نصَّ العلماء في كتب العقائد على كفر من قال بأنوثة الملائكة لمعارضة صريحِ النَّصِّ القرآني ، كما نصُّوا على التبْديع المفسِّق لمن قال بذكورتهم .

(٣) وذلك حسب المناسبات التي تقتضيها الحالات التي يتشَكَّلون فيها . قال الله تعالى مُخبراً عن مريم عليها السلام :﴿ **فأرسَلْنَا إليها رُوحَنا فَتَمثَّلَ لها بَشراً سَوِيّاً** ﴾ [مريم :١٧] أي : سويَّ الخَلْق ، كامل البنية ، ومن تمثُّلات =

منهم الأربعة: جِبْريل ، وميكائيل ، وإسْرافيل[١] ،

= الملائكة حسب المناسبة ، ما ذكره الله تعالى عنهم في قصة ضيف إبراهيم ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِين...**﴾ [الذاريات :٢٤] .

وتمثُّلات الملائكة تكون على مقتضى الحالات التي يأتون بهَا كما أمرهم الله تعالى. ومن ذَلِكَ تمثُّل المَلَك بصورة أبرص ، ثمَّ بصورة أقرع ، ثـمَّ بصورة أعمى ، كما في الصحيحين : البخاري (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤) .

ومن تمثُّلات الملائكة عليهم السلام ما ثَبتَ في الصحاح أنَّ جبريل عليه السلام كان يأتي النَّبيَّ ﷺ بصورةِ رجلٍ أعرابيٍ ، حَسن المنظر ، وكثيراً ما كان يتمثَّل بصورة دحية بن خليفة ؛ لأنَّهُ كان جميل الصُّورة حسَن الهيئة .

(١) قال ابن القيم في "إغاثة اللهفان" ٢: ١٢٢: "ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبريل، وميكائيل ، وإسرافيل ؛ فجبريل : موكَّلٌ بالوحي الَّذِي به حياةُ القلوب والأرواح ؛ وميكائيل : موكَّلٌ بالقَطْرِ الَّذِي به حياةُ الأرض والنبات والحيوان ؛ وإسرافيل : موكَّلٌ بالنفخ في الصُّور الَّذِي به حياةُ الخلق بعد مماتهم" انتهى . ومثله في "زاد المعاد" ١:٤٣ .

روى الطبراني ١١:٣٧٩ (١٢٠٦١) والبيهقي في " شُعَب الإيمان " ١:١٧٧من حديث ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "**على أيِّ شيءٍ أنت؟ قال: على الريح والجنود. قال: وعلى أيِّ شيءٍ ميكائيل؟ قال: على النبات والقَطْر ،قال: وعلى أيِّ شيءٍ مَلَكُ المَوْت؟** =

وَعِزرائيل(١).

ومنهم: ملائكةٌ مُوَكَّلونَ بِكُلِّ إنْسان يتعاقَبونَ لَيليِّين وَنَهارِيِّين(٢)، يكتبونَ كُلَّ ما يقولُ أو يفعلُ من الحَسَناتِ

= **قال: على قَبْض الأرواح"**. قال الحافظ في الفتح ٦: ٣٠٧ :"وفي إسناده محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وقد ضُعِّفَ لسوءِ حفظه و لم يُتْرك".

(١) عِزْرائيل ملك الموت. قال السيوطي في "زَهْر الرُّبى" ٤: ١٢٠: "لم يرد تسميته في حديث مرفوع، وورد عن وهب بن منبِّه: اسمه عزرائيل، رواه أبو الشيخ ٣:٨٩٩ (٤٣٩) في "العظمة". انتهى. كما رواه أبو الشيخ عن أشعث بن أسلم البصري (٤٤٣). وقال السيوطي أيضاً في "الديباج" ٥: ٣٥٨: "ورد في أثرٍ عن وهب اسمه عزرائيل، ومعناه: عبدالجبَّار". وانظر مزيد تفصيل عند قول المؤلف ص٢٩٢ :" وعزرائيل هو ملك الموت قابض الأرواح بإذن الله ".

(٢) روى البخاري في مواضع من صحيحه منها: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (٥٥٥)، وكتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٢٣)، ومسلم في كتاب المساجد ١: ٤٣٩ (٦٣٢) من حديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "**يتعاقبونَ فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعونَ في صلاةِ الفجر وصلاةِ العصر، ثُمَّ يعرُجُ الذين باتوا -أو كانوا- فيكم، فيسألُهُم -وهو أعلم بهم-: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصَلُّونَ، وأتيناهم وهُمْ يُصَلُّون**". =

والسيِّئات إلى أن يموتَ(١).

= والتعاقب: التناوب والتداول. والمعنى: أنَّ كلَّ ملائكة تأتي تَعْقِبُ الأخرى.

وهؤلاء الملائكة: هم الحَفَظَةُ في قولِ أكثرِ أهل العلم، وقيل: إنَّما هم موكَّلون برفعِ أعمال اليوم والليلة.

(١) فالملائكةُ الحَفَظَةُ الموكَّلونَ بالعبادِ على صنفين:

الصنف الأول: الَّذينَ يَحفظون الإنسان من المكاره والشَّدائد، وموكلون بتسيير مداركه وجسمه، قال تعالى: ﴿**له مُعقِّباتٌ من بينِ يديهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾ [الرعد: ١١] فهُمْ يحفظونه من أجلِ أنَّ الله أمرَهُمْ بذلك.

قال الحافظ في "الفتح" ٨:٣٧٢ :" وروى الطبراني -بإسناد حسن- عن ابن عباس في قوله تعالى :﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ و َمِنْ خَلْفِهِ** ﴾ قال: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفِهِ، فإذا جاء قدره خلَّوْا عنه ".

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُون**﴾ [الأنعام: ٦١].

والصنف الثاني: الملائكةُ الذين يحفظون على الإنسان أقوالَهُ وأعمالَهُ الحِسِّية والقلْبيَّة، ويكتبونَهَا.

قال تعالى: ﴿**وإنَّ عَلَيْكُم لَحافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون**﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. =

ومنهم: المَلَكان اللذان يَسْألان الميِّتَ في قبره عن دينه [1] .

ومنهم: خَزَنةُ الجنَّة [2] ، وخزنَةُ النَّار [3] .

= وقال سُبْحَانَهُ : ﴿إِذْ يتلقّى المتلقّيان عَنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيهِ رَقيبٌ عَتيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨] . وقد جاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال ، يكتُبان الأعمال: صاحب اليمين يكتب الحسناتِ ، وصاحبُ الشمال يكتبُ السيِّئات ، ومَلَكان آخران يحفظانِه ويحرُسانِه ، واحدٌ من ورائه ، وواحدٌ أمامَهُ.

(١) انظر ما يأتي في الفصل السابع ص٢٩٦ عند قول المؤلِّف رحمه الله تعالى:"وسُؤالُ الملكَيْن حقٌّ ..."

(٢) **الخَزَنَةُ** : جمع خازن ، وهو المؤْتَمَنُ على الشيء قد استحفظه ، فعلى كلِّ بابٍ من أبواب الجنَّة الثمانية خَزَنَةٌ وكِّلوا بذلك ، يستقبلون المؤمنين حين دخولهم ، ويرحِّبون بقدومهم ، ويكرمونهم بالتحيَّات . قال تعالى:﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا ربَّهُم إلى الجنَّةِ زُمَرَاً حتّى إذَا جَاؤُوهَا وفُتِحَتْ أبْوابُها وقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلامٌ عَلَيْكُم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر :٧٣] ، ورئيسُ أولئك الخزنة هو (رضوان) ، واسمُه مشتَقٌّ من الرضا ؛ لأنَّ أهل الجنة رضي الله عنهم ، ورضوا عنه.

(٣) وهم الزَّبانية الغِلاظُ الشِّداد الموكَّلون بتعذيب من يدخلها ، وقد وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ عَلَيهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُم ويَفْعَلونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم :٦] .

=

ومنهم غيرُ ذلك : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُو ﴾ [1] .

= ويسمَّى رئيس خزنة النار (مالكاً) . قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَينا ربُّك ﴾ [الزخرف:٧٧] .

ويقال لخزَنة النَّار : (الزَّبانية) ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ [العلق :١٧-١٨] وسمي ملائكة العذاب بذلك لدفعهم بقوة .

وخزنة النَّار الموكَّلون عليها المتولون أمرها تسعة عشر مَلَكاً ، وإليهم مرجع زبانيتها وسائر خزنتها . قال تعالى : ﴿ عَلَيهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنَةً للَّذينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : ٣٠-٣١]. وليس هذا العدد حاصراً لجميع الملائكة الموكَّلين بجهنَّم وتعذيب داخِلِها من الكفَّار والعصاة ، فقد روى مسلم (٢٨٤٢) والترمذي (٢٥٧٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **يؤتى بالنَّار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملَك يجرُّونها**".

وذهب كثير من العلماء إلى أنَّ تمييز العدد (تسعة عشر) المحذوف هو : صنفٌ ، أو صفٌّ ، أو ألف . وأنَّ التقدير : عليها تسعة عشر صفّاً من الملائكة ، أو صنفاً ، أو ألفاً . (الإيمان بالملائكة عليهم السلام ، للشيخ عبدالله سراج الدين ، ص١٢٣-١٢٧) .

(١) من سورة المدثر ، الآية: ٣١.

س٤- مَن هم الجنُّ؟

هُم جِنس"[١] يَرَوْننا ولا نراهم[٢] ،

(١) عالم الجن من العوالم الكونيَّةِ ، كعالم الملائكةِ ، وقد أخبر الله تعالى أنه خلقه من مارجٍ من نارٍ ، وأنه قادرٌ على الأعمالِ الشَّاقَّةِ ، و لم يختلف أهلُ المِلَلِ في وجودهم ، بل اعترفوا به كالمسلمين ، وإن اختلفوا في حقيقتهم ، ولا تلازُمَ بين الوجودِ والعلم بالحقائق ، ولا بينه وبين الرؤيةِ بالحواس ، فكثيرٌ من الأشياءِ الموجودةِ لا تزالُ حقائقُها مجهولةً ، وأسرارُها محجبةً ، وكثيرٌ منها لا يرى بالحواس ، ألا ترى الروح -وهي مما لا شكَّ في وجودِها في الإنسان والحيوان- لم يدرك كُنْهَهَا أحدٌ و لم يرَها أحدٌ ، وغايةُ ما علمَ الإنسانُ من أمرها بعض صفاتها وآثارها ، وكم في العوالم من أسرارٍ ، وفي الكونِ من حُجُبٍ وأسْتارٍ ، أحاط بها خالق الكون ومُبْدعه ، ومنها ما استأثر بعلمه ، و لم يطْلع عليها أحداً من خلقه . "صفوةُ البيان" ص ٧٥٢ .

(٢) أي : بصورتهم الجبليَّة ، وإن كانوا يُرَوْن حين يتشكَّلون بأشكال أخرى قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف :٢٧] ، وقبيلُهُ : جنوده من الجنِّ أو نسلُهُ ، فهُم يَرَوْنَ الإنْسَ كما يرى بعضُهم بعضاً دون اختلاف ، أمَّا الجنُّ فهُم أخفياء عن الإنس ، فإنَّ كلمةَ (جن) تدلُّ على الخَفاء ، ومنه الجَنين في بطن أمه ، فإنه لا يُرى ، ومنه المِجَنُّ يُلبَسُ في الحُروب.

قال السُّبكي في " طبقات الشَّافعية " ١٤٨:٣ : "وفي "مناقب الشافعي " للآبريِّ : أنَّ حرملة قال : سمعتُ الشَّافعي ﷺ يقول : من زَعَمَ مِنْ أهل=

مكلَّفون بتوحيدِ الله وعبادته مثل الإنس[١] ،

= العدَالة أنّه يَرى الجنَّ أبْطَلْنا شهادته ، لقوله تعالى :﴿ إِنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ من حَيْثُ لاتَرَوْنَهُم ﴾ إلاّ أنْ يَكُونَ الزَّاعِمُ نَبيّاً " .

واختار الحافظ ابن حجر في "الفتح" ٤٥٩:٦ : أنّه يمكن رؤية الجنّي في حالة تصوُّره بغير صورتهِ ، وأمَّا رؤيته على صورته التي خُلِق عليها فلاَ ، وأنّ ذَلِكَ هو مقصود الآية . ورجَّح الحافظُ هذا القول في "الفتح" ٤٨٩:٤ ويمكن حمل كلام الشافعي الّذِي سبق نقله على هذا المعنى ، والله أعلم .

(١) قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنْسِ ألَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ منكُمْ يقصُّونَ عليكم آياتي ويُنذِرونكُمْ لقاءَ يومِكُمْ هذا قالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أنفسِنا﴾.[الأنعام:١٣٠] أي : اعترفوا بأنهم بلغتهم رسالاتُ ربِّهم ، وأنذروهم لقاء يومهم هذا .

فالجنُّ مكلّفون مثلُنا ، وفي سورة الرَّحمن وجَّهَ الخطابَ إليهم مع الإنْسِ مُقْترنين في الإنذار بالنَّار وعذابها ، والبِشارَة بالجنَّة ونعيمِها .

قال القرطبي في "الجامع" ١٦٩:١٧ في تفسير سورة الرَّحمن :" هذه السورة والأحقاف ، وقُلْ أُوحيَ -الجن- دليلٌ على أنَّ الجنَّ مُخَاطبون مأمورون منهيُّون مُثابون مُعاقَبون كالإنسِ سواء ، مؤمنهم كمؤمنِهم ، وكافرهُم ككافرِهم ، لافرق بيننا وبينهم في شيءٍ من ذَلِكَ " انتهى .

وَمِمَّا يدلُّ على أنَّ الجنَّ مُكلَّفون ولهم جزاء في الآخرة ما نقله السُّبكي في "الطبقات" ٦٩:٢ عن محمد بن عبدا لله بن عبدالحكم أنّه سُئِل عن الجنّ : =

= هل لهم في الآخرة جزاءٌ على أعمالهم ؟ فقال : نعم . والقرآن يدلُّ على ذَلِكَ .
قال تعالى :﴿ ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .
قال القرطبي في "الجامع"٧:٨٧ في تفسير قوله تعالى :﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ومَارَبُّك بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون ﴾ :" أي : من الجنِّ والإنس ، كما في آية أخرى : ﴿ أُوْلَئكَ الَّذِينَ حقَّ عَلَيْهِم القَوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إنَّهُم كانُوا خَاسِرين ﴾ [الأحقاف :١٨]، ثمّ قال : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّاعَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُم أَعْمَالَهم وهم لايُظْلَمُون ﴾ [الأحقاف :١٩] .
وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ المطيعَ من الجنِّ في الجنَّةِ ، والعاصي منهم في النَّار ، كالإنْس سَواءٌ ، وهو أصحُّ ماقيل في ذَلِكَ فاعلمه" انتهى .
وقال الإمام ابن القيِّم في " طريق الهجرتين" ص٥٧٨ :" الَّذِي عليه جمهور أهل الإسلام أنَّهم مأمورون منهيُّون مكلَّفون بالشريعة الإسلامية ، وأدلَّة القرآن والسنَّة على ذَلِكَ أكثر من أن تُحْصَر . قال الله تعالى : ﴿ أولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِم القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الجِنِّ والإِنْس ﴾ [الأحقاف :١٨] ثمَّ قال بعد ذَلِكَ : ﴿ وَلِكلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أي في الخير والشر ، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم ، وأنَّ مُسيئهم كما يستحقُّ العذاب بإساءته ، فمُحْسنُهم يستحقُّ الدرجات بإحسانه ، فدلَّ ذَلِكَ لا محالة أنَّهم كانوا مأمورين بالشرائع ، متعبَّدين بهَا في الدنيا ، ولذلك استحقُّوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر " . ثمَّ ساق أدلَّة أخرى كثيرة في تكليف الجنّ في كتابه "طريق الهجرتين" فانظرها -إن شئت-فيه : ص٥٧٨-٥٩٠ . =

منهم الصَّالِحون ، ومنهم دونَ ذلك[1] .

= وقال ابن القيم في " عِدَةِ الصَّابرين " ص٤٧ :" فإن قيل : فهل هم مكلَّفون على الوجه الَّذِي كُلِّفنا نحن به أم على وجهٍ آخر ؟ قيل : ما كان من لوازم النفوس ؛ كالحبِّ والبغض ، والإيمان والتصديق ، والموالاةِ والمعاداةِ ، فنحن وهم مستوون فيه ، وما كان من لوازم الأبدان ؛ كغُسل الجنابة ، وغَسْل الأعضاء في الوضوء ، والاستنجاء ، والختان ، وغُسْل الحيض ونحو ذَلِكَ ، فلا تجب مساواتهم لنا في تكلُّفه ، وإن تعلَّق ذَلِكَ بهم على وجهٍ يناسب خِلقَتهم وحياتهم " انتهى .

(١) قال الإمام ابن القيِّم في "طريق الهجرتين" ص٥٧٢ :" وقد اتَّفق المسلمون على أنَّ منهم المؤمن والكافر ، والبَرُّ والفاجر ...قال تعالى إخباراً عنهم : ﴿وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَدا﴾ [سورةُالجن:١١] أي : أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرِّقة ، والقِدَدجمع قِدة ، كقطعة وقطع وزناً ومعنى . وهي من القدِّ ، وهو القطع .
وقال تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُون ومِنَّا القَاسِطُون ﴾ [الجن:١٤] فالمسلمون الَّذِينَ آمنوا بالله ورسولِه منهم ، والقاسطون : الجائرون العادلون عن الحق ، يقال : أَقْسَطَ الرجل إذا عَدَلَ فهو مُقْسط ، ومنه : ﴿ وَأَقْسِطوا إنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطينَ ﴾ [الحجرات :٩] . ، وَقَسَطَ إذا جار فهو قاسط ﴿وأمَّا القاسِطُونَ فكانوا لِجَهَنَّم حَطَباً﴾ [الجن:١٥].وقد تضمَّنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات : صالحين ، ودون الصالحين، وكفار . وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنَّها ثلاثة : أبرار، ومقتصدون ، وكفار . =

ومنهم إبليسُ اللعين وذريّتُهُ الخُبثاءُ المضِلّون [1] .

ثُمَّ إنَّ جميعَ الجنِّ داخِلون تحت المسؤولية [2] بالرِّسالة المحمديَّة ، وقد بَلَّغَهُمُ النبيُّ ﷺ ؛ فآمنَ منهم مَنْ سَبَقَتْ له السَّعادة[3] .

= فالصالحون بإزاء الأبرار ، ومَنْ دونهم بإزاء المُقْتصدين ، والقاسطون بإزاء الكفار .

ولَمّا كان الإنس أكمل من الجنِّ وأتمَّ عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أُخر ليس شيءٌ منها في الجن ، وهم : الرُّسل ، والأنبياء ، والمقرَّبون . فليس في الجنِّ صنفٌ من هؤلاء " انتهى .

(١) قال الحافظ ابن رجب في "فتح الباري" ٧:٦٢ : "وقد اختلف في الجنِّ والشياطين: هل هم جنسٌ واحد أوْ لا ؟ فقال طائفة : الجنُّ كلُّهم ولد إبليس كما أنَّ الإنس كلّهم ولدُ آدم . روي هذا عن ابن عباس من وجه فيه نظر ، وروي أيضاً عن الحسن وأنّه قال : مؤمنهم وليُّ الله له الثواب ، ومشركهم شيطان له العقاب . وقال طائفة : بل الشياطين ولد إبليس ، وهم كفار ، ولايموتون إلاّ مع إبليس ، والجنُّ ليسوا شياطين ، وهم يموتون وفيهم المؤمن والكافر "انتهى .

(٢) الأولى أن يقول : " مكلفون بالإيمان بالرسالة المحمَّديَّة " .

(٣) وقد أخبرَنا الله تعالى أنَّ الجنَّ بلغتهم دعوةُ سيِّدنا محمد ﷺ ، كما بلغتهم دعوةُ موسى عليه السلام من قبل ، وأنّهم جاؤوا يستمعونَ القرآن كما =

س٥- لأيِّ شيءٍ خُلِقَ الجنُّ والإنس؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾[1] .

= قال سُبْحَانَهُ : ﴿وإذْ صرَفْنا إليكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتوا فلمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُنذِرين قَالُوا يَاقَوْمَنَا إنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنزِلَ من بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيه يَهْدِي إلى الحَقِّ وإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَاقومَنا أَجِيبُوا دَاعيَ اللهِ وآمِنوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذُنوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢٩] .

وقال سُبْحَانَهُ : ﴿قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنَّهُ استمَعَ نفرٌ مِنَ الجنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِربِّنا أَحَداً..﴾ [سورة الجن:١-٢]

(١) من سورة الذاريات ، الآية: ٥٦ .أي: وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ مُمْتَحَنين في هذه الحياةِ الدنيا إلاّ لأطلبَ منهم في رحلةِ امتحانهم أن يعبدوني. فاللام في قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدون﴾ ليست تعليلية لبيان الغاية من الخلق ، بل هي لبيان المطلوب في رحلةِ امتحان المخلوقين. ولو كانت هذه اللام للتعليل، ولبيان الغاية من الخلق، ما استطاع أحدٌ من الجنِّ والإنس أن يعصيَ اللهَ في شيءٍ ، لأنَّ مرادَ الله لا يَتخلَّف.

فالغاية من خلق الجن والإنس: الابتلاء. قال تعالى:﴿الَّذي خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ﴾[الملك:٢].وقال سبحانه:﴿إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زينةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ =

= **عَمَلاً﴾** [الكهف: ٧] . وقال عزَّ وجل: **﴿إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيه﴾** [الإنسان ٢] . ومطلوبُ الربِّ سبحانه من عباده في رحلةِ امتحانهم هو عبادتهم له . (ابتلاء الإرادة ، لعبدالرحمن حبنكة الميداني ص٥٠-٥١)

وقال العلاّمة المفسِّر نجم الدين الطُّوفي الحنبلي في " التعيين في شرح الأربعين" ص ٣٢٩ :" ولا شكَّ أنَّ الإنسان إنّما أوجد لِيُمْتَحَن بالطاعة والمعصية ؛ ليكونَ من أهل الثواب أو العقاب ، أو من أصحاب اليمين أو الشمال ، بدليل قوله عز وجل : **﴿ إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرْضِ زِيْنَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾** [الكهف : ٨] ، وقوله عز وجل : **﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾** [الملك :٢] . انتهى .

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : **﴿إلا لِيَعْبُدُون﴾** أي : إلاَّ لآمُرَهم أن يعبدوني وأدعُوَهم إلى عبادَتي . "تفسير الخازن" ٤: ١٨٥.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : " خلق الله الخَلْقَ لعبادته ، يعني: ما شاء مِنْ عباده ، أو ليأمر من شاء منهم بعبادته ، ويهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم " . (سنن البيهقي الكبرى ٩: ٣) .

وقال الإمام أبوعمرو الداني في "الرسالة الوافية" ص ٦٧: "ومعنى قوله: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدون﴾** الخصوص ، يريد بعضهم ، وهم الّذِينَ علم أنّهم يعبدونه ؛ لأنَّهُ قال في آيةٍ أخرى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الجنِّ والإنْسِ﴾** [الأعراف: ١٧٩] وَمَنْ ذَرَأَه لجهنّم لم يخلقه =

والأعمالُ الدُّنيَويّة المباحة كالعِمْرانِ والتَّمَتُّعِ إذا كان القَصْدُ حَسَناً فهي من العبادة(١).

= لعبادته . وقال مجاهد: معنى: **﴿لِيَعْبُدونِ﴾** ليعرفون. أي: ليعرفوا أنَّ لهم خالِقاً رازِقاً" انتهى.

وقال العلامة الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله تعالى في تفسيره "صفوة البيان"ص٦٦٩ في تفسير هذه الآية:" أي: لم أخلق الثقلَين إلاّ مهيَّئينَ لعبادَتي بما ركّبتُ فيهم من العقولِ والحواسِّ والقُوى ، فهم على حالةٍ صالحةٍ للعبادةِ مستعدَّةٍ لها ، فذكّرهم بوجودي وتوحيدي وعبادتي ، فَمَنْ جَرَى على مُوجبِ استعدادِهِ وفطرتِهِ آمَنَ بي وعبدَني وحدي ، ومَنْ عَانَدَ استعدادَهُ وفطرتَهُ واتّبعَ هواه ، سَلَكَ غيرَ سبيل المؤمنين " .

(١) قال الإمام العزُّ بن عبدالسلام في " شجرة المعارف والأحوال"ص١٩١:"ولو قصدنا أن نتقرَّب إليه بجميع أعمالنا لَقَبِلَ ذَلِكَ منَّا ، وأثابَنَا عليه ، فلو أكَلْنا أو شربنا أو رقَدْنا أو قعدنا أو لبسنا ، بنيَّة أن نتقوَّى بذلك على طاعته ، لقرَّبنا بذلك إليه وأثابَنَا عليه . بل لو قضى أحدنا وَطَرَهُ من أهله بنيَّة إعفافهنَّ ، وغضِّ أبصارهنَّ ، وسعياً في إيلادهنَّ ولداً يوحِّد الله ويعبُدُه ويشكره ويحمَدُه لأُجرنا على ذَلِكَ من وجوهٍ شتّى على قدر نيَّاتنا ، وقد جعل رسول الله ﷺ ذَلِكَ صدقة فقال :" **وفي بُضْعِ أحدكم صدقة** " – رواه مسلم (١٠٠٦) في الزكاة – ، وحكم بأنَّ اللقمة التي تأكلها الزوجة صدقة – روى البخاري (٢٧٤٢) ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً ، وفيه :" ..**وإنّك مهما أنفقت من نفقة فهي** =

= صدقة ، **حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك** " - ؛ لأنها إن كانت من النفقة الواجبة فهي من الإحسان الواجب ، وإن كانت زائدة عمَّا يجب من النفقة فهي من الإحسان المندوب . فَسُبْحان من كثَّر الطُّرقَ إلى ثوابه لِيَكُون عبادُه في كلِّ حالٍ سائرينَ إليه، ومُقْبلينَ عليه ؛ لِيَجزيَهُم بالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف أو يزيد ، ولن يَهْلِك على الله سبحانه مع هذا الفَضْل واللطف العميم إلاَّ هالك " .

وقال أيضاً ص٤٥٨-٤٥٩ :" وكذلك قد يُثاب الإنسان على أكله ونومه، إذا قصد بهما التقوِّي على الطاعة ، وعلى بعض المزاح إذا قَصَد به جَبْرَ المزوح معه . وعلى ذَلِكَ يُحمل مُزاح الأنبياء عليهم السلام . فكم من راقدٍ على فراشه وهو سائرٌ إلى الله ، وكم من آكلٍ وشاربٍ ومازحٍ وملاعبٍ مُقْتربٌ إلى الله بمقصده " انتهى .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه " الفوائد " ص٣٤١ :" فمن أحبَّ اللَّذّة ودوامها ، والعيشَ الطيِّب ، فليجعل لذَّة الدنيا موصلاً له إلى لذَّة الآخرة بأن يستعينَ بهَا على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته ، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه ، لابحكم مجرَّد الشهوة والهوى .. فطيِّباتُ الدنيا ولذَّاتها ، نِعْمَ العونُ لمن صحَّ طلبه لله وللدار الآخرة ، وكانت همَّته لما هناك " انتهى .

فالأعمال الدنيوية المباحة المشروعة تعدُّ من العبادة: إذا صحبتها النيَّة الصَّالحة، كما تقدَّم نقله ، ويضاف إلى ذَلِكَ أيضاً أن يؤدَّى العملُ بإتقان وإحسان ، كما في الحديث الَّذي رواه مسلم (١٩٥٥) :"**إنَّ الله كَتَبَ** =

خلقهم فأرسل إليهم أنبياءَ اختارهم من خلقه(١) .

= **الإحسانَ على كُلِّ شيء**" . "**إنَّ الله يُحبُّ إذا عَمِل أحدُكُم عملاً أن يتقِنَهُ**" . رواه البيهقي في "شعب الإيمان" عن عائشة ، وألاَّ يشغله عملُه الدنيويُّ عن واجباته الدينية. فإذا راعى المسلم هذه الأمور كان في سائر أعماله الدنيوية عابداً لله سبحانه وتعالى .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٧] أي: اصْطَفَيْنَاهُم للنبوَّةِ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤] .وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٥] . وقال سبحانه : ﴿**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ**﴾ [ص: ٤٧] .

قال الإمام ابن القيِّم في " زاد المعاد " ٣٩:١ :" إنَّ الله سبحانه هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾ [القصص :٦٨] . والمرادُ بالاختيار هنا : الاجْتبَاء والاصْطِفَاء ، فهو اختيارٌ بعدَ الخلق ، وقوله سبحانه : ﴿ **مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** ﴾ نفيٌ ؛ أي: ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحدَهُ ، فكما أنَّه المنفرد بالخلق ، فهو المنفرد بالاختيار منه ، فليس لأحدٍ أن يخلق سواه ، ولا أن يختار سواه ، فإنَّه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ، ومحالِّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له ، وغيره لا يشاركه في ذَلِكَ بوجه " .

ثم يقول ٤٣:١ :" وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، على مافي حديث =

= أبي ذر رضي الله عنه الّذي رواه أحمد (٥:١٧٨-١٧٩) ، وابن حبان في صحيحه ٧٦:٢ (٣٦١) . واختياره أولي العزم منهم ، وهم خمسة المذكورون في سورة الأحزاب (٧)، والشورى (١٣) " انتهى .

وقال ابن القيّم أيضاً في " طريق الهجرتين" ص١٧٦ :" فالله سبحانه أعلم حيثُ يجعل رسالته أصلاً وميراثاً ، فهو أعلمُ بمن يصلحُ لتحمُّل رسالته ، فيؤدِّيها إلى عباده بالأمانة والنّصيحة ، وتعظيم المُرسِل ، والقيام بحقّه ، والصَّبر على أوامره ، والشكر لنعمه ، والتقرُّب إليه ، ومن لا يصلح لذلك".

ثمَّ قال ص ٥٠٣-٥٠٥ :" فأكرمُ الخلق على الله ، وأخصُّهم بالزُّلفى لديه رسله، وهم المصْطفَون من عباده الّذينَ سلّم عليهم في العالمين ، كما قال تعالى :﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات :١٨١] ، وقال تعالى :﴿ **قُلِ الحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** ﴾ [النمل :٥٩] .. وقد أخبر سبحانه أنّه أخلصهم : ﴿ **بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار * وإنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأخْيَارِ** ﴾ [ص:٤٦] ، ويكفي في فضلهم وشرفهم أنَّ الله سبحانه اختصَّهم بوحيه ، وجَعَلَهم أمناءَ على رسالته ، وواسطةً بينه وبين عباده ، وخصَّهم بأنواعِ كراماتِهِ : فمنهم من اتَّخَذَهُ خليلاً ، ومنهم من كلَّمه تكليماً ، ومنهم من رَفَعَهُ مكاناً عَلِيّاً على سائرهم درجات .

و لم يجعل لعبادِهِ وُصولاً إليه إلاّ من طريقِهم ، ولادخولاً إلى جنّته إلاّ خلفهم، و لم يُكرم أحداً منهم بكرامة إلاّ على أيديهم ؛ فهم أقْرَبُ الخلق إليه وسيلة ، وأرفعهم عنده درجة ، وأحبُّهم إليه وأكرمهم عليه . =

وَأَوْحَى إليهم الشَّرائع[1] ،

= وبالجملة : فخير الدنيا والآخرة إنّما ناله العبادُ على أيديهم ، وبهم عُرِف الله ، وبهم عُبِد وأُطيع ، وبهم حَصَلت محابُّه في الأرض .

وأعلاهم منزلة أولو العزم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحَاً والَّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ ومُوسى وَعيسَى** ﴾ [الشورى :١٣] .

وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدُورُ الشَّفاعة حتّى يردُّوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ " انتهى.

(١) الشريعة في اللغة : الطريقُ الموصِلُ إلى المَقْصِد ، وفي الاصطلاح : كلُّ ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام ، فكلُّ ما في الدين من عقائد وأحكام ، يسمَّى شريعة ، قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحَاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتفرَّقوا فِيهِ**﴾ [الشورى:١٣] .

قال الإمام أبو منصور الأزهري في "الزاهر" ص٥٥٢ :" والأصل في قوله عزَّ وجل : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّين** ﴾ أي : بيَّن وأَوْضَحَ ونهج . قال الله عزَّ وجل :﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجَاً** ﴾ [المائدة : ٤٨] ، أي : طريقاً واضحاً أمرنا بالاستقامة عليه . **فالشَّرعُ** هو : الإبانة ، والله تعالى هو الشارع لعباده الدين ، وليس لأحدٍ أن يشرع فيه ماليس منه إلاّ أن يشرِّع نبيٌّ بأمر الله تعالى ؛ فإنَّ شرع النّبي هو شرعُ الله عزَّ وجل ؛لأنّه =

وَجَعَلَ الملائكةَ سُفَراءَ بينه وبينهم[١] ، وألزمَ جميعَ الأمم التَّوحيدَ وتصديقَ الرُّسُلِ .

= قال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] .

يقال : شَرَعَت الإبلُ الشريعة : إذا وَرَدَته فَكَرَعَتْ فيه . قال بعض أهل اللغة في قول الله عزَّ وجل : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة :٤٨] فالشِّرعة : ابتداء الطريق ، والمنهاج : معظمُه " انتهى .

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨] أي: على طريقةٍ ومنهاجٍ واضحٍ من أَمْرِنا الَّذِي أَمَرْنا به مَنْ قبلَكَ من رُسُلِنا، والشَّريعةُ في الأصل: ما يَرِدُهُ الناسُ من المياه والأنهار ، وجمعها شرائع ، واستعيرت للدين ؛ لأنَّ العباد بأخذِهم بها تحيا نفوسهم ، كما يحيا العِطَاشُ بالماء (صفوة البيان ، ص ٦٣٥) .

(١) قال تعالى في وصفِ الملائكةِ الكرام الكاتبين: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥-١٦] ،والسَّفَرَةُ: جمعُ سافرٍ ، ككاتبٍ وكَتَبَة ، والسَّفير: الرسول بين القوم يكشف ويزيلُ ما بينهم من الوَحْشَة ، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل ، والسِّفارة: الرسالة ، فالرسول والملائكةُ والكتبةُ مشتركةٌ في كونها سافرةً عن القوم ما استُبْهِمَ عليهم"(المفردات، ص ٤١٢-٤١٣). =

وسخَّر لعبادِهِ العوالِمَ العُلْويَّة والسُّفليَّة [١] ؛

= وسمَّى الله سبحانه ملائكةَ الوحي : روحاً ، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢] والرُّوح: الوحي ، كما في قوله تعالى: ﴿يُلقِي الرُّوحَ من أمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] ، وإطْلاقُ الروح عليه ، لأنّه بالوحي تحيَا القلوب الميتة بداء الجهل والضلال ، كما أنَّ بالروح حياة الأبدان. والمراد بالملائكة: جبريل عليه السلام رسولُ الوحي ، وَمَنْ معه من حفظةِ الوحي. وقيل: جبريل خاصة. والواحد يُسمَّى باسم الجميع إذا كان رئيساً عظيماً . (صفوة البيان ، ص٣٤٢).

وفي ذَلِكَ تنويهٌ إلى عِظَم الرسالة والنُّبوة ، ورِفْعَةِ منزلة الشرائع الإلهيَّة ، وشرفِ العلوم الربانيَّة الموحَاة إلى الأنبياء والمرسلين ، وأنَّ شرائع الله تعالى مجيدةٌ علياء ، كريمة غرَّاء ؛ لأنَّ الَّذِي شرعها هو الحكيم العليم ، أحكم لها أحكامها ، ووضع لها نظامها على وجهٍ يضمن مصالح العباد وسعادتهم وعزَّتهم وكرامتهم ، فإنَّه سبحانه هو أعلم بهم وبما يصلح شأنهم . فحُقَّ للشرائع الإلهيَّة أن تتنزَّل بهَا أشراف الملائكة وساداتها على أشراف الخليقة الإنسانيَّة وساداتها ، صلوات الله وسلامه عليهم.(الإيمان بالملائكة،ص٩) .

(١) ومن تلك العوالم العلوية المسخَّرة للإنسان : الشمس والقمر والنجوم ، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ و النَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنَّجومُ مُسَخَّراتٌ =

لِيَتَمَتَّعُوا ويشكروه[1].

= بأمره، إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يعقِلونَ﴾ [النحل :١٢] ، ومن تلك العوالم السُّفْلِيَّة ما سَخَّره الله تعالى للإنسان من الحيواناتِ والنباتاتِ والبحار والأنهار ، وكل ما في الأرض لمنفعتنا ، وذلك من أعظم مظاهر تكريم الله سبحانه للإنسان .

"وإذا كانت مظاهرُ الكون المختلفة مُسَخَّرةً لخدمةِ الإنسان ، ومُسَيَّرةً لتحقيق مصالحِهِ ، تكريماً من الله له ونعمةً عليه ، فيجبُ على الإنسان أن يُعمِلَ عقلَه بالتأمُّلِ والفكر إلى معرفة الكثير من حقائق الكون المختلفةِ من حوله ، كاجْتياز طبقات الجو واكتشاف الكواكب القريبة أو البعيدة ، وإلا لم تكن كلمة التسخير جاريةً على حقيقتها ، ولا متضمِّنةً كاملَ معناها ، والمؤمنُ مَدْعوٌّ بدافعِ الإيمان إلى اسْتِطْلاع هذا الكون ، وإدْراك حقائقِهِ من أجل تسخير ما يُمكن تسخيره في سبيل تحقيق مزيدٍ من مُقَوِّمات السعادة الإنسانية العامة في ظلِّ العبودية التامَّة للخالق عزَّ وجل" (كُبرى اليقينيَّات ، ص ٢٩٧-٢٩٨).

(١) قال سبحانه مذكِّراً عباده بما سَخَّر لهم من نعم ، وما أخرج لهم من الأرض من ثمرات ليتمتَّعوا بهَا ويشكروا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأرضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُون ۞ وَجَعَلْنَا فِيْهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُون ۞ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم أَفَلا يَشْكُرُون﴾ [يس :٣٣-٣٥] . وفي تسخير الحيوانات وما ينتج عنها =

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرُونَ﴾ [1].

= من لحوم وألبان وجلود وأصواف ؛ ليتمتعوا ويشكروا أيضاً :﴿ أوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُم فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس :٧١-٧٣] وفي تسخير البحار يقول سبحانه :﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمَاً طَرِيَّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٤] .

وقد وردت هذه الكلمة : ﴿ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ في القرآن الكريم أربع عشرة مرة ، وهي في الغالب تَرِدُ مَسْبوقةً بذكر نعم الله وما سَخَّره لعباده من العوالم العلويَّة والسفليَّة ، وكلمة (لعل) هنا ليست للترجِّي والتوقُّع ، كما هو شأْنُهَا في كلام الناس ؛ لأنَّ الترجِّي والتوقُّع لا يقع من الله تعالى ؛ إذْ هو عالِم الغيب والشهادة ، ولكنَّها بيانُ عِلِّيَّة خلق تلك النِّعم العظيمة وتسخيرها للإنسان ، وبيان أنَّ الله تعالى لم يخلقها لهم إلاَّ ليتمتَّعوا بهَا ويشكروا الله سبحانه على نعمِهِ وأفضالِهِ الكثيرة .

(١) سورة الجاثية ، الآية :١٣ . والتسخير : سياقة إلى الغرض المختصِّ به قهراً. كما في " المفردات " ص٤٠٢ للراغب . وقد تكرَّرت كلمة ﴿سَخَّر ﴾، و ﴿ مُسَخَّرات ﴾ في كتاب الله تعالى ، في أكثر من عشرين آية ، =

ومِن لطفه جلَّ جلاله: أنْ شَرَعَ من العبادات وأحكامِ المعاملات لكلِّ قومٍ[1] ما يليقُ بهم زماناً وإقليماً ، وأنْ جَعَلَ هذه الشَّريعةَ المحمَّديَّةَ سمحاءَ[2] ، ثابتةَ الأصل لا تَتَزَعْزَع ، باسقةَ الأغصان ،

= وانظر إن شئت مرادفات هذه الكلمة ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ ﴿ خَلَقَ لَكُم ﴾، وغيرها من معاني التسخير للكائنات في " المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم" ١:٦٩٥-٦٩٦ .

(١) المراد الأقوام التي أرسلت إليهم الرسل قبل خاتمهم محمد ﷺ

(٢) كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وقال تعالى: ﴿ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]
وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قيل لرسول الله ﷺ: "أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: "**الحنيفيَّةُ السَّمْحَة**" رواه أحمد في "المسند" ١: ٢٣٦ (٢١٠٧) ، والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٨٧) .

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: "**إني لم أُبْعَث باليَهوديَّة ولا بالنصرانيَّة ، ولكن بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحَة** " رواه أحمد في"المسند" ٥: ٢٦٦(٢٢٦٤٧) .

قال الحافظ ابن رجب في "المحجَّة" ص٥٧: "مَا أُعْطِيَتْ أُمَّةٌ مَا أُعْطِيَت هذه الأمة ببركة متابعة نبيِّها ﷺ حيثُ كان أفضلَ الخلق ، وهديُهُ أكمل الهدي مع ما يسَّرَ الله على يديه من دينه ، وَوَضَع به من الآصار والأغلال عن أمَّته.." انتهى.
=

صالحةً لكلِّ قومٍ وكلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ[1] ، خَتَمَ بها الشَّرائع[2]، وَأَدْخَلَ في حدودها[3] كلَّ مكلَّفٍ إلى يومِ القيامة[4] ،

= وقال العلامة نجم الدين الطوفي في " التعيين " ص١٣ :" ولا يُعلم في الأديان أسمح من دينه ﷺ ، يَعرِف ذَلِكَ من استقرأ الأديان . ويكفي من ذَلِكَ قوله عز وجل :﴿ **وَيَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُم وَالأغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم** ﴾ [الأعراف :١٥٧] . قيل : كانت بنو إسرائيل يقْرِضون مَحَلَّ البَوْل من جلودهم إذا أصابهم ، ولا يُجْزِئهم غسله ، وإذا أتى أحدهم ذنباً أصبح مكتوباً على باب داره ، وكانت توبتهم بقتل أنفسهم ، وكان موجب القتل عندهم القصاص عيناً ولا يقبل الدية " انتهى .

(١) وقد دلَّت على ذَلِكَ البراهين القاطعة من الوحي والتاريخ والواقع ، وانظر تفصيل ذَلِكَ في كتاب " شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان " للدكتور يوسف القَرَضاوي حفظه الله ونفع به .

(٢) فهي شريعةٌ باقية مستمرةٌ إلى أن يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها ؛ لأنَّها آخر الشرائع الإلهيَّة وخاتمتها ، والنبيُّ ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم ، انظر ص١٨٠ .

(٣) الأصحُّ عبارةً أن يقول : وفَرَض الإيمان والتعبُّدَ بهَا على كلِّ بالغٍ عاقل .

(٤) قال ابن القيم في " إعلام الموقعين " ١:٣٣٢ :" إنَّ هذا الشرع محيطٌ بأفعال المكلّفين أمراً ونهياً ، وَإذْناً وعفواً ، فقد بيَّن الله سبحانه بكلامه =

فلا يُعبدُ إلاَّ بهَا[1] ،

= وكلام رسوله جميعَ ما أمر به ، وجميع مانهى عنه ، وجميع ما أحلّه الله ، وجميع ماحرَّمه ، وجميع ماعفا ، وبهذا يكون دينه كاملاً " .

وقال أيضاً ١:٣٥٠ :" يتبيَّن للمنصف مقدار هذه الشريعة وجلالَها ، وهيمنتها ، وسَعتَها ، وفضلَها ، وشرفَها على جميع الشرائع . وأنَّ النبيَّ ﷺ كما هو عامُّ الرسالة إلى كلِّ مكلَّف ، فرسالتُه عامَّةٌ في كلِّ شيء من الدين: أصوله وفروعه ، ودقيقه وجليله ، فكما لايخرج أحدٌ عن رسالته ، فكذلك لايخرج حكمٌ تحتاج إليه الأمة عنها ، وعن بيانه لها " انتهى .

(١) لأنَّ الله سبحانه نَسَخَ العمل بالشرائع السماوية السابقة ، وتعبَّد الناسَ وكلَّفهم بعد بعثة سيدنا محمد ﷺ بالشريعة الإسلامية . قال تعالى :﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيْعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا** ﴾ [الجاثية :١٨] . والآياتُ في هذا المعنى كثيرة وصريحة ، منها قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام** ﴾ [آل عمران :١٩] . وقوله سبحانه :﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيْنَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهوَ فِي الآخِرَة مِنَ الخَاسِرِين** ﴾ [آل عمران :٨٥] .

وأمَّا قوله سبحانه :﴿ **وَلْيَحْكُم أَهْلُ الإنْجيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئكَ هُمُ الفَاسِقُون** ﴾ [المائدة :٤٧] فالمراد : ما أنزل الله فيه من تكليف أهل الإنجيل باتِّبَاع النَّبي ﷺ إن أدركوا زمنه ، =

وَشَرَطَ في قَبُول عبادتِهِ الإيمان[1] .

❁❁❁

= والعمل بشريعة القرآن الكريم . وقد ورد في التوراة والإنجيل ذِكر النبيِّ ﷺ وصفاته والبشارة به في مواضع كثيرة .

(١) فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يقبل عملاً مهما كان صَالحاً ما لم يكن صاحب العمل مؤمناً بربِّهِ إيماناً كاملاً صحيحاً ، ومؤمناً بكلِّ ما جاء عنه ، وبما أرسل من رسول ، ومؤمناً بخاتَمِ النَّبيِّينَ محمدٍ ﷺ ، وبما جاء به عن ربِّه عَزَّ وَجَلّ. فالإيمانُ أساسُ قبولِ العبادةِ ، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ من ذكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأولئكَ يدْخُلون الجنّة** ﴾ [النساء: ١٢٤] . وقال سُبْحَانَهُ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلاَ كُفْرانَ لِسَعْيِه**﴾ [الأنبياء: ٩٤] .وقد قال تعالى في أعمال الكافرين :﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَاب** ﴾ [النور:٣٩] . وقال سبحانه :﴿ **وَقَدِمنَا إلى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، فَشَرْطُ قَبول العمل : الإيمان والإخلاص والاقتداء . قال ابن القيم في " الفوائد" ص١٢٤ : " العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرَابَهُ رمْلاً يُثقِلُهُ ولا ينفعُهُ " انتهى .

س٦- ما معنى الإيمان؟

الإيمانُ الكاملُ هو مَجْموعُ ثلاثةِ أُمور: تصديقٌ بالجَنَان[1] ،

---

(١) أي : بالقلب ، وسُمِّيَ القلبُ جَناناً لكَونـهِ مستوراً عـن الحاسَّة -كمـا في "مفردات" الراغب- فالإيمانُ أصْلُه في القلب. قال الله تعالى: ﴿**ولَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبِكُم**﴾ [الحجرات:١٤] ، وقـال تعـالى: ﴿**وَلكـنَّ اللهَ حبَّـبَ إليكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلوبِكُم**﴾ [الحجرات:٧] ، وقـال سبحانه: ﴿**كَتَـبَ في قُلوبِهِم الإيمانَ**﴾ [المجادلة:٢٢] .
وروى أحمد ٤ : ٤٢٠ ، وأبو داود (٤٨٨) والـترمذي (٢٠٣٢) قـال ﷺ: "**يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسانِهِ ، ولم يدخل الإيمانُ إلى قلبه**" .
إلى غير ذَلِكَ من الأدلةِ الصريحة إلى أَنَّ إيمانَ القلب أصلُ الإيمان ، ولا يصحُّ الإيمان بدونِهِ ، وإذا وُجدَ سَرَى إلى الجوارح.
قال الحافظ ابن رجب في "لطائف المعارف"ص٤٠١-٤٠٢:" فالإيمان القائمُ بالقلوب أصلُ كلِّ خير ، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيـا والآخـرة ، وبـه يحصل له سعادةُ الدنيا والآخرة ، والنجاةُ من شقاوة الدنيا والآخرة . ومتـى رَسَخَ الإيمانُ في القلب انبعثت الجوارحُ كُلُّهَا بالأعمال الصالحـة ، واللسـان بـالكلام الطيِّب ؛ كمـا قـال النبيُّ ﷺ :"**ألاَ وإنَّ في الجَسَـد مُضْغَـةً ، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسـدُ كلُّه ، وإذا فَسَـدتْ فَسَـدَ الجَسَـدُ كلُّـهُ ألاَ وهـيَ القلـب** "رواه البخـاري (٥٢) و (٢٠٥١) ومسـلم (١٥٩٩).ولا صـلاح للقلب بدون الإيمان بالله ، وما يدخل في مُسمَّاه من معرفة الله ،وتوحيده ، وخشيته ، ومحبته ، ورجائه ، والإنابة إليه والتوكل عليه . =

وَإقْرارٌ باللسان[1] .

= قـال الحسـن : " ليـس الإيمـان بـالتمني ولا بـالتَّحلِّي ، ولكنَّـه بمـا وَقَـرَ في الصُّدور، وصدَّقته الأعمال " .
فإذا ذاق العبدُ حلاوة الإيمان ، وَوَجَدَ طعمه وحلاوته ، ظهرت ثمـرَةُ ذَلِـكَ على لسانه وجوارحه ، فاستحلى اللسـان ذكـر الله ومـا والاه ، وأسـرعت الجوارح إلى طاعة الله ، فحينئذٍ يدخلُ حُبُّ الإيمان في القلـب كمـا يدخـل حُـبُّ المـاء البـارد والشـديد بـردُهُ في اليـوم الشـديد حـرُّه للظمْـآن الشـديد عطشه، ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلـوب مـن الإلقـاء في النَّـار ، وأمرَّ عليها من الصبر ....فالإيمان بالله ورسوله وظيفةُ القلب واللسان ، ثـمَّ يتبعهما عمل الجوارح " انتهى .

(١) فالإقْرارُ باللسان يدخل في مُسمَّى الإيمان. قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا باللهِ وَمَـا أُنزِلَ إلينا وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْرَاهيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعقـوبَ والأسْـبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسى وعِيسَى وَمَا أُوتيَ النَّبِيُّونَ مـن ربِّهـم لاَ نُفَـرِّقُ بَيْـنَ أَحَـدٍ مِنْهُم وَنحنُ لَهُ مُسْلِمُون**﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].
وروى البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) قولـه ﷺ : "**أُمِـرْتُ أَنْ أُقـاتِلَ النَّـاسَ حتى يقولوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، فإذا قَالُوها عَصَمـوا مِنِّـي دِمَـاءَهُم وأموالَهُـم إلاَّ بحقِّها**". =

وعملٌ صالحٌ بالجوارح[١] ،

= قال الإمام النووي في "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج" ١: ٢١٢: "وفيه أنَّ الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما ، واعتقاد جميع ما أتى به النبي ﷺ" .

وقال أيضاً ١: ١٤٩: "واتفق أهلُ السنَّةِ من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أنَّ المؤمن الَّذِي يحكم بأنه من أهل القِبْلة ، ولا يخلد في النار ، لا يكون إلاَّ من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق بالشهادتين ، فإن اقْتصر على إحداهما لم يكن من أهلِ القِبلةِ أصلاً..."
والمقصود بالنطق بالشهادتين: التصديق بمعانيهما ، والخضوع والانقياد والإخلاص كما جاء ذَلِكَ في النصوص الأخرى.

وقال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١٤: ٣٠٦ بعدما ساق بسنده إلى عثمان بن عفَّان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " **من علم أن لا إله إلاَّ الله دخل الجنَّة** " : " ولا يعلم العبد أن لا إله إلاَّ الله حتى يَبْرأ من كلِّ دين غير الإسلام ، وحتَّى يتلفَّظ بلا إله إلاَّ الله مُوقِناً بهَا ، فلو عَلم وأبى أن يتلفَّظ مع القُدرة يُعدُّ كافراً " انتهى .

(١) فأعمالُ الجوارحِ دَاخلةٌ في الإيمان ، يدلُّ على ذَلِكَ قولُه سبحانه: **﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكُم﴾** [البقرة: ١٤٣] أي: صَلاَتكم إلى بيتِ المقدس ، نزلت فيمن مات قبل أن تُحوَّلَ القِبْلة ، قال ابن عبدالبر في " الانتقاء" =

= ص٧١ : " قال مالك : أقام الناس يصلُّون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أُمِرُوا بالبيت الحرام ، فقال الله تعالى : **﴿ وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيْمَانَكُم ﴾** أي : صلاتكم إلى بيت المقدس " انتهى . وقال رحمه الله في ترجمة الشافعي ص١٣٥ :" قال الشافعي : الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ بالقلب ، ألا ترى قول الله عز وجل : **﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُم ﴾** يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ، فسمَّى الصلاةَ إيماناً ، وهي قولٌ وعملٌ وعقدٌ " انتهى .

ومن الأدلةِ على ذَلِكَ :حديث وفد عبد القيس ، وفيه قوله ﷺ: "**آمُرُكم بالإيمان بالله وحده** " ، وقال: "**هل تَدْرُون ما الإيمانُ بالله وحدَه؟**" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "**شهادة أن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاءُ الزكاة ، وأن تُعطوا من الغنائمِ الخمس..**" رواه البخاري ١: ٢٩ (٥٣) ومسلم كلاهما في الإيمان ١: ٤٨ (٢٣) . ويدلُّ على ذَلِكَ أيضاً حديث شعَب الإيمان: "**الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شعبة ، فأفضلُها قول: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**" رواه مسلمٌ في الإيمان (٥٧) ، وأبو داود (٤٦٤٣) ، والترمذي (٢٦١٤) والنسائي (٥٠٠٥).

قال ابن القيم في " عِدَة الصَّابرين " ص١٧٧ :" الإيمان قولٌ وعملٌ ، والقول : قول القلب واللسان ، والعمل : عمل القلب والجوارح . وبيان ذَلِكَ : أنَّ من عرف الله بقلبه ، ولم يُقرَّ بلسانه لم يكن مؤمناً ؛ كما قال =

= تعالى عن قوم فرعون : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم ﴾ [النمل:١٤] ، وقال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرض بَصَائِر ﴾ [الإسراء : ١٠٢] . فهؤلاء حصل لهم قولُ القلب ، وهو : المعرفة والعلم ، و لم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه ، لم يكن بذلك مؤمناً ، بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقرَّ بلسانه لم يكن بمجرَّد ذَلِكَ مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحبِّ والبُغض ، والموالاة والمعاداة ، فَيُحِبُّ اللهَ ورسوله ، ويوالي أولياء الله ، ويُعادي أعداءه ، ويَستسلِم بقلبه لله وحده ، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته ، والتزام شريعته ظاهراً وباطناً ، وإذا فعل ذَلِكَ لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أُمِر به ، فهذه الأركان الأربعة (قول القلب ، واللسان ، وعمل القلب ، والجوارح) هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه " انتهى .

وقال في "الفوائد" ص٢١٠ : " الإيمان له ظاهرٌ وباطن : فظاهره : قول اللسان ، وعمل الجوارح ، وباطنه : تصديق القلب ، وانقياده ومحبته . فلا ينفع ظاهرٌ لا باطن له ، وإنْ حُقِن به الدِّماء ، وعُصِم به المالُ والذُّرِّيَّة . ولا يُجزئ باطنٌ لا ظاهر له إلاَّ إذا تعذَّر بعجزٍ أو إكراه أو خوف هلاك . فتخلُّف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليلٌ على فساد الباطن ، وخلوُّه من الإيمان . ونقصُهُ دليل نقصِهِ ، وقوَّتُهُ دليلُ قوَّتِهِ " انتهى .

وهو يَزِيدُ ويَنْقُص(١) في القلب(٢) .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿الذينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وقال عزَّ وجلّ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلون﴾ [الأنفال: ٢] ، وقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذينَ اهتَدَوا هُدى﴾ [مريم: ٧٦] ، وقال عزَّ وجل :﴿ وَمَازَادَهُم إلاَّ إِيْمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٢٢] .

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلوبِ المُؤمنينَ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إيمانِهِم﴾ [الفتح: ٤] ، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذينَ آمَنُوا إِيْمَانَا﴾ [المدثر: ٣١] .

(٢) وَمِمَّا يدلُّ على تفاوتِ الإيمان القلبيِّ قوله ﷺ : "يخرجُ من النار من قال: لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ من خير ، ويخرج من النار مَن قال : لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرَّةٍ من خير" رواه البخاري في الإيمان ، بباب زيادة الإيمان ونقصانه ١٠٣:١(٤٤)، ومسلم في الإيمان (٣٢٥).

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " ١٠٣:١ في شرح هذا الحديث :" فيه التفاوت في الإيمان القائم بالقلب من وزن الشعيرة والبُرَّة والذرَّة " . وقال أيضاً ٤٧٥:١٣ :" ويُستفاد منه صحة القول بتجزُّء الإيمان وزيادته ونقصه". =

ولا يُسْلَبُ عن العاصي وصفُ المؤمن إلاَّ إذا شكَّ بقلبه [1] ،

= وقال الإمام النوويُّ في" شرح صحيح مسلم " ١٤٨:١ :"فالأظهرُ –والله أعلم– أَنَّ نفسَ التصديق يزدادُ بكثرةِ النظر ، وتظاهر الأدلةِ ، ولهذا يكونُ إيمانُ الصِّدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم ، بحيثُ لا تعتريهم الشُّبَه ، ولايتزلزلُ إيمانُهم بعارضٍ ، بل لاتزال قلوبهم منشرحة نيِّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال ، وأما غيرهم من المؤلفة قلوبهم ومَنْ قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك ،ولا يتشكَّك عاقلٌ في أَنَّ نفسَ تصديق الصدِّيقِ رضي الله عنه لا يساويه تصديقُ آحادِ الناس" ا. هـ .

وقال الحافظ ابن رجب في " جامع العلوم والحكم " ٢٨:١ :" التصديق القائم بالقلوب يتفاضل ، وهذا هو الصحيح . فإنَّ إيمان الصِّديقين الَّذِينَ يتجلَّى الغيب لقلوبهم حتَّى يصير كأنَّه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شُكِّك لدخله الشك .." انتهى .

(١) **الشَّكُّ:** اعتدالُ النقيضين عند الإنسان وتساويهما كما في "المفردات" ص٤٦١ ، والإيمان لا يغني فيه الظن ، فكيف إذا دخلَهُ الشك؟ قال الله عز وجل: **﴿إنّما المؤمنونَ الَّذِينَ آمنوا باللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾** [الحجرات: ١٥] أي: لم يشكُّوا ، فأمَّا المرتاب فهو من المنافقين الَّذِينَ قال الله فيهم: **﴿وارْتَابَتْ قلوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدون﴾** [التوبة: ٤٥] .

قال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ٣٦٤:١١ :" أما من كان في قلبه شكٌّ من الإيمان بالله ورسوله فهذا ليس بمسلم ، وهو من أصحاب النار ، =

أو نطق كُفراً بلسانه[1] .

= كما أنَّ من في قلبه جزم بالإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه وبالمعاد، وإن اقتحم الكبائر ، فإنه ليس بكافر " انتهى .

قال ابن القيِّم في "مدارج السالكين" ١: ٣٦٧: "أما كفر الشك: فإنَّه لا يَجْزم بصدقه ولا بكذبه ، بل يشك في أمره ، وهذا لا يستمرُّ شكُّه إلاَّ إذا ألزم نفسه الإعْراض عن النظر في آياتِ صدق الرسول ﷺ جملةً ، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها ، فإنه لا يبقى معه شك..".

ومن أمثلة كفر الشك: الشكُّ في صدق الرسول ﷺ ، أو الشك في البعث، أو في شيءٍ من القرآن ، أو في حكمٍ من الأحكام المعلومة من الدِّين بالضرورة ، أو الشك في كفر من دَانَ بغيرِ ملَّةِ المسلمين من المِلَل.

(١) كالقولِ بقِدمِ العالَم وبقائه ، وكذلك مَن سبَّ الله عزَّ وجل أو اسْتَهزأ به أو سبَّ رسوله ﷺ أو تنقَّصه واسْتَخفَّ به ﷺ ، وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام ، أو ادَّعى النبوة ، أو سبَّ أو طعن في الكُتُب المنزَّلةِ من عند الله ، أو أنكر وجودَ الملائكةِ أو الجنِّ ، أو سبَّ الملائكةَ وَاسْتهزأ بهم ، أوأنكر البعثَ بمختلفِ صوره ، كإنكار معاد الأجساد مع الاعتراف بمعادِ الأرواح ، أو القول بتناسخ الأرواح وانتقالِها إلى أجسادٍ أخرى ، أو أنكر الوعد والوعيد من أنواع الثواب وأنواع العقاب ، بأن ادَّعى أنَّ الوعد والوعيد تخييلٌ للحقائق ، أو أنَّ الجنةَ والنارَ يُقْصد بهَا نعيمُ الأرواح =

س٧- الإيمانُ بِمَاذا؟

الإيمانُ با للهِ ، وملائكته ، وكُتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ، واليومِ الآخرِ ، وبالقدر كُلِّهِ(١) .

= أو تألُّمها فقط دون الأجسام ، أو أنَّ أهل النار يتنعَّمون في النار . ومن صور هذا الكفر: السخرية بالوعد والوعيد والاستهزاء بهما.

و كذلك يكفر إذا أنكر حكماً معلوماً من الدين بالضرورة ، والمقصود به: ما كان ظاهراً متواتراً من أحكام الدين معلوماً عند الخاص والعام ، مما أجمعَ عليه العلماء إجماعاً قطعيّاً مثل وجوب الصلاة والزكاة ونحوهما ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة مثل الربا والخمر وغيرهما ، فكلُّ ذَلِكَ من نواقض الإيمان القولية.

وسيأتي مزيدُ بيانٍ للمكفِّرات الاعتقادية و القولية والعملية عند قول المصنف رحمه ا لله تعالى ص١٧٧ : "من كذَّبَ نبيّاً ولو بكلمةٍ كَفَر" ، وعند قوله ص٢٧٣-٢٧٧ "يكفر من قال كلمةَ تحقيرٍ في بعض الأنبياء أو الملائكة أو الكتب الإلهيَّة".

(١) قال الإمام الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١١: ٢٩ :" آمنا با لله تعالى ، وملائكته وكتبه ، ورسله وأقداره ، والبعْث ، والعرض على ا لله يوم الدين، ولو بُسِط هذا السَّطْر وحُرِّر وقُرِّر بأدلته لجاء في خمس مجلدات ، بل ذَلِكَ موجودٌ مشروح لمن رامه ، والقرآن فيه شفاءٌ ورحمة للمؤمنين " انتهى .

س٨- ما معنى: "وبالقدر كُلِّه"؟

هو أن تعتقد أنَّهُ لا يقعَ شيءٌ في الكونِ إلاَّ بعلمِ اللهِ وقدرته وإرادته ، وقد أمر اللهُ القلمَ فكتبَ في اللوحِ ما سيكونُ إلى يومِ القيامة(١) .

(١) والإيمان بكتابة المقادير هو أحد أصول الإيمان ، وفي حديثِ عبادة بن الصامت عن النبيِّ ﷺ : "**أولُ ما خَلَقَ الله القلَمَ ، قال له: اكتُب ، قال: وَمَا أكتُبُ؟ قال: اكتُب ما هو كائن إلى يومِ القيامة**" رواه أبو داود في السنة (٤٦٦٨) ، والترمذي في القدَر (٢١٥٦) وقال : حديث غريب ، وفي التفسير (٣٣١٦) وقال : حديث حسن غريب صحيح . وروى مسلم في صحيحه ٨: ٤٤ (٢٦٤٨) من حديث جابر ﷺ قال : جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم . فقال : يارسول الله ، بيِّن لنا ديننا كأنَّا خُلقنا الآن ، فيما العمل اليوم ؟ أفيما جفَّت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما نستقبل ؟ قال :" **لا ، بل فيما جفَّت به الأقلام وَجَرَتْ به المقادير** ".
وفي وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنْهُمَا :" **واعْلَم أنَّ الأمةَ لواجْتَمعت على أن ينفعوكَ بشيئٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيئ لم يضرُّوك إلاَّ بشيئ قد كتبه عليك، رُفِعت الأقلام وجفَّت الصُّحُف** " رواه أحمد في المسند ١: ٢٩٣ ، والترمذي (٢٦٣٥) وقال : حسن صحيح .
وهذه الكتابة عامَّة شاملة للكليَّات والجزئيات من أمور هذا الكون إلى أن تقوم الساعة وينقضي أمر هذا العالم ، إذ كلُّ ماكُتب فيه سيقع ويكون =

س٩- ما اللوحُ والقلمُ والكتابة؟

هيَ من الغَيبيَّاتِ التي ثَبَتَ وجودُها بِلسانِ الشَّـرع[1] فيجبُ الإيمانُ بها ، ولا يضرُّ عدمُ عِرفانِ كيفيَّاتِها .

= في هذه الدنيا، ولايكون فيها شيءٌ أبداً مهما جلَّ أو دقَّ إلاَّ وهو مقدَّر ، وما قدَّره إلاَّ وقد علمه ، وعلمُ الله تعالى شاملٌ للكليَّات والجزئيات ، كما هو مقرَّر عند أهلِ الحقِّ ، خلافاً لمن كفر من الفلاسفة بقولهم : إنَّ الله تعالى يعلم الكليَّات دون الجزئيات" !!.

(١) أخبرَنا الله تعالى عن تلك العوالم الغيبية الكبرى ، وذكرَ سُبْحَانَهُ اللوحَ المحفوظَ ، والقلم في كتابِهِ الكريم. قَالَ تَعَالَى: ﴿**بَلْ هُوَ قُرآنٌ مجيدٌ ۞ في لَوْحٍ محفوظ**﴾ [البروج:٢١-٢٢] ، فأخبر سُبْحَانَهُ أَنَّ هذا القرآن مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ ، وسُمِّيَ محفوظاً: لأنَّه محفوظٌ عن الزيادة والنقْص ، والتبديل والتغيير ، أو: لأنه محفوظٌ عن الاطلاع عليه إلاَّ لِمَنْ أَطْلَعَهُ الله تعالى ، واللوح المحفوظ قد كتب فيه القلم جميع المقادير.

قال الحافظ ابنُ رَجَب في "لطائف المعارف " ص١٥٩ :"ولا ريب أنَّ علم الله تعالى قديمٌ أزَليٌّ لم يزَل عالما بمَا يُحدثه من مخلوقاته ، ثُمَّ إنَّهُ كتب ذَلِكَ في كتابٍ عنده قبلَ خلقِ السمواتِ والأرض ، ومن حينئذٍ انتقلت المخلوقات من مرتبة العلم إلى مرتبةِ الكتابة ، وهو نوعٌ من أنواعِ الوجودِ الخارجي" .

وأما القلم فهو عالَمٌ من العوالم المخلوقة بأمر الله تعالى ، لا تُعرف ماهيَّته ولا صفاته . =

= وظاهر حديث عبادة بن الصَّامت المتقدِّم ص١٣٣ أنه أول ماخلق الله ، ومثله ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله ﷺ قال :" **إنَّ أوَّل شيءٍ خَلَقه الله القلم ، وَأَمَرَهُ أن يكتبَ كلَّ شيء** " رواه البزَّار ورجاله ثقات كما في "المجمع"٧:١٩٠ .

مع أنَّ حديث عمران بن حُصَيْن الَّذِي رواه البخاري في مواضع من صحيحه ، منها في كتاب التوحيد ١٣:٤٠٣ (٧٤١٨) ، وفيه أنَّ أهل اليمن قالوا للنَّبيِّ ﷺ : جئنَاك لنتفقَّه في الدين ، ولنسألَكَ عن أوَّل هذا الأمر ما كان ؟ فقال لهم :" **كان الله ولم يكن شيءٌ قبله ، وكان عرشه على الماء** " فإنَّه يُشير إلى أسْبقيَّة العرش والماء .

وقال الشيخ ابن تيمية في " منهاج السنة النبوية " ١:٢٥٥ :" وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال :" **إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء** " .وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين ﷺ (الحديث المتقدِّم) . وقد تكلَّم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أوَّل هذه المخلوقات على قولين حكاهما الحافظ أبو العلاء الهَمَذاني (ت٥٦٩) وغيره ، أحدهما : أنه هو العرش ، والثاني : أنه هو القلم ، ورجَّحوا القول الأول لما دلَّ عليه الكتاب والسنَّة أنَّ الله تعالى لما قدَّر مقادير الخلائق بالقلم الَّذِي أمره أن يكتب في اللوح كان عرشُهُ على الماء ، فكان العرش مخلوقاً قبل القلم . قالوا : الآثار المروية أنَّ "**أول ما خلق الله القلم** " معناها من هذا العالم ". =

= وفي "فتح الباري" ٦:٢٨٩ :" حكى أبو العلاء الهمذاني أنَّ للعلماء قولين في أيِّهما خُلق أولاً : العرش أو القلم ؟ قال : والأكثر على سَبق خلْق العرش ، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني " -أي : القلم - وأفاد ابن كثير في أول " البداية والنهاية " ١:٨ أنَّ ابنَ الجوزي تبع ابن جرير ، وقال الحافظ ابن كثير :"يُحمل حديث القلم -" أول ما خلق الله القلم " - على أنّه أوَّل المخلوقات من هذا العالم " . فهي أوليَّةٌ مقيَّدة ، أمَّا الأوليَّة المطلقة بين المخلوقات فللعرش .

وقد أقسم الله سبحانه بالقلم فقال : ﴿ ن ۚ والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرونَ﴾ [القلم: ١-٢] وقد ذَهَبَ كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ القلمَ المقسَم بِهِ هو القلمُ الأولُ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ جميعُ المقادير في اللوحِ المحفوظ. **والكتاباتُ متعددةٌ:** فهناك الكتابةُ الأولى لَمَّا خَلَقَ الله تعالى القلم ، وهناكَ كتابةٌ ثانيةٌ قبل خلقِ السموات والأرض ، وهناك كتابةٌ قبلَ خلقِ آدم ، وهناكَ كتابةٌ عندما يكونُ الجنين في الرَّحِم ، دلَّتْ عليها الأحاديث الصحيحة.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿**وما يَسْطُرون**﴾ فيشمل -والله أعلم- ماتسطِّره الملائكة منْ أفعال العباد وجميع أمورهم المقدَّرة ، نسخاً عن اللوح المحفوظ .

ويشمل أيضاً ما تسطِّره الملائكةُ في صحيفةِ كُلِّ جنينٍ حين يمضي عليه أربعة أشهر -كما سيأتي في حديث ابنِ مسعودٍ-.

ويشمل أيضاً ما تسطِّره الملائكةُ من أعمال بني آدمَ الصَّادِرَةِ عنهم ، قال تعالى: ﴿**إنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية :٢٩] أي: نكتبُ عليكم أعمالكم الصَّادرة منكم ، للمُجَازاةِ عليها.

س١٠- متى تَكْتُبُ الملائكةُ قِسْمَةَ الإنْسان السَّابقة في عِلْمِ الله القديم؟

قَبْل نَفْخِ الرُّوحِ فيه في بطنِ أُمِّهِ يكتب المَلَكُ -بأمرِ الله- أجَلَهُ ورزقَهُ وشقيٌّ أو سعيدٌ ، وما هو لاقِيه في مستقبله[1] .

(١) عن عبدالله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصَّادقُ المَصْدوقُ: "**إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِين يوماً ، ثُمَّ يكونُ في ذَلِكَ عَلَقةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يكونُ في ذَلِكَ مُضْغةً مِثْلَ ذلك ، ثُمَّ يُرسَل إليه المَلَك ، فيَنْفُخُ فيه الرُّوح ، ويُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكتب رزقِهِ وعملِهِ وأجلِهِ ، وشقِيٌّ أو سعيد.**"رواه مسلم(٢٦٤٣)في كتاب القدر بهذا اللفظ.
قال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم " ١:١٦٢: "واختلفت ألفاظ روايات هذا الحديث في ترتيب الكتابة والنفخ ، ففي روايةِ البخاري في صحيحه- في بدء الخلق - : "**وَيُبْعَثُ إليه الملك فَيُؤْمَر بأربع كلماتٍ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فيه الرُّوح**" ففي هذه الرواية تصريحٌ بتأخُّر نفخِ الروح عن الكتابة ، وفي روايةٍ أخرجها البيهقي في "القدر" : "**ثمَّ يبعث الملك ، فينفخ فيه الروح ، ثُمَّ يؤمر بأربعِ كلمات**" ، وهذه الرواية تصرِّحُ بتقدُّم النفخ على الكتابة ، فإمَّا أن يكون هذا من تصرُّف الرواةِ برواياتهم بالمعنى الَّذِي يفهمون ، وإما أن يكون ترتيب الإخبار فقط ، لا ترتيب ما أخبر به".
قال الإمام النووي في "شرح مسلم" ١٦:١٩١:" المراد بجميع ما ذكر من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة أنه يظهر ذَلِكَ للملك ويأمر بإنفاذه وإلا فقضاء الله سابق على ذَلِكَ، وعلمه وإرادته لِكُلِّ ذَلِكَ موجود في الأزل".

س ١١- هل للإنسانِ مَدْخَلٌ في أفعاله؟

نعم فالإنسانُ له اختيارٌ[١] ، للفرقِ الضروريِّ بين حركةِ الارتعاش وحركةِ البطْش[٢] .

وعلى فعله بقَصْده وتعمُّدِهِ ، يُثابُ ويعاقَبُ[٣] :

---

(١) قال السيوطي في " الحاوي " ٢:١٣٧-١٣٨ :" وأما الاختيار الَّذِي أثبته أهل السنة للعبد فالمراد به قصده ذَلِكَ الفعل ، ومَيْلُه إليه ، وتوجُّهُه إليه برضاً منه وإرادةٍ له ، وكونه لم يفعله بإلجاء ولا إكراه ولا قَسْر " انتهى .

(٢) فكتابةُ المقاديرِ السابقةِ لا ينفي اختيار الإنسانِ لأفعاله الاختيارية ، واختيارُ العبد للأعمال الاختيارية ثابتٌ شرعاً وعقلاً .
أمَّا ثبوتُ الاختيار شرعاً: فإنَّ الله سُبْحَانَهُ أثبتَ للإنسانِ حالةَ اختيارٍ ، ورتَّبَ المؤاخذةَ والمعاقبةَ على أفعاله الَّتِي تصدرُ عنه وهو مختارٌ لها ، كما أثبتَ للإنسانِ حالةَ اضطرارٍ ، ورَفَعَ عنه المؤاخذةَ والمعاقبة.
وأمَّا ثبوتُ الاختيار عقلاً ، فما ذكره المؤلف مِمَّا يدركه الإنسان من نفسه أنَّ له أعمالاً تصدر عنه باختياره وإرادته ، كذهابه ومجيئه ، وقيامه وقعوده ، ويعلم أيضاً أنَّ له أعمالاً تصدر عنه دون اختياره ، بل يكون مُضْطراً إليها ، ولا يستطيع دفعها ، كالعطاس ، والرَّعشة ، والتثاؤب ، ونحو ذلك.

(٣) فالإنسان مسؤولٌ عن أعماله الاختيارية التي يقوم بها عن إرادة وقَصْد وتعمُّد ، والتي تقع حَسَبَ علم الله تعالى وكتابتِهِ ومشيئتِهِ وقدرتِهِ . =

= والقرآن والسنّة قد أسندا الأفعال إلى العباد في عشرات ومئات من الآيات والأحاديث ، مثل :" **يعملون - يفعلون - يكسبون - يصنعون**..." وما إلى ذَلِكَ . والقرآن من أوَّله إلى آخره صريحٌ في ترتيب حصول الخيرات والشُّرور في الدنيا والآخرة على أعمال العباد ، فلولا أنَّ الإنسان فاعلُ الفعل ومسؤولٌ عنه ما حاسَبَهُ الله عليه ، ولا آخَذَهُ به وعاقَبَه عليه . ومن ظنَّ أنَّ الله تعالى يُعذِّب عبدَهُ بما لا إرادةَ له فيه ، ولا قدرةَ عليه، فقد ظنَّ بالله تبارك وتعالى ظنَّ السَّوْء ، وجعل له مَثَلَ السَّوْء .

فالله سبحانه يعامل الناس بكسبِهِم ، ويُجازيهم بأعمالهم ، ولا يخاف المحسنُ لديه ظلماً ، ولا هَضْماً ، ولايخاف بَخْساً ولارَهَقاً ، ولا يضيع عمل محسن أبداً ، ولا يضيع على العبد مثقال ذرَّة ولا يُظْلَمها ﴿ **وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرَاً عَظِيمَاً** ﴾ [النساء :٤٠] ، وأنه يجزي السَّيِّئةَ مثلَها ، ويُحْبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب ، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ، ويضاعفُها إلى سبع مئة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة ..." وانظر :" الداء والدواء " لابن القيم ص٢٥-٢٧.

قال العلامة الطُّوفي في " التعيين " ص٨٩ عند شرح قوله ﷺ :" **إنَّ أَحَدَكُم لَيَعملُ بعملِ أهلِ الجنّة حتى ما يكونَ بينه وبينها إلاَّ ذراعٌ ، فيسبقُ عليه الكتاب ، فيعملُ بعملِ أهلِ النار** ...." :" كل هذا إشارة إلى أنّه لابدَّ من سببيَّة الأعمال للسعادة والشقاوة . وتحقيق هذا المقام : أنَّ الله عز وجل خَلَقَ الخَلْقَ ، وركَّب فيهم طباع الخير والشر ، فعلم ما يكون منهم =

﴿لا يُكلّفُ اللهُ نفساً إلاّ وُسعَها﴾ (١) ،

= بحسب مقتضى طباعهم المركوزة فيهم ، فلو أسعدهم وأشقاهم بدون تكليف وعمل اعتماداً على سابق علمه وحكمته فيهم لكان في ذَلِكَ مأموناً غير مُتَّهم ، لكنه سبحانه عادل في حكمه ، حليمٌ في عدله ، والحكمة تقتضي اجتناب مظانِّ التُّهم ، فلو عذّب بعضهم بموجب علمه فيهم لاتّهموه ، فدفع هذه التهمة بأنْ كلّفهم حتّى ظهرت معصيتهم عن طباعهم المركوزة فيهم من القوة إلى الفعل ، وهذا هو سرُّ قوله عز وجل : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] " انتهى .

(١) من سورة البقرة ، الآية:٢٨٦ ، أي : إنَّ التكاليف الشرعية جاءت على نسبةِ ما أعطى الله تعالى الإنسان من القوى الإدراكيَّة والجسمية ، فلم يكلّفه الله تعالى فوقَ طاقته .

وقد جعل الله سبحانه كل التّكاليف الشرعية مما يقدر عليه الناس قدرة مقرونة باليُسْر والتّخفيف : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة :١٨٥] ، ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم ﴾ [النساء : ٢٨] .

قال في " الكليَّات " ص١٠٩ :" الوسْعُ من الاستطاعة : ما يسع الإنسانَ فعلُهُ بلا مشقة . **والجهد منها** : ما يتعاطى به الفعل بمشقة . **والطاقة منها** : بلوغ غاية المشقة " . قال شيخ الإسلام في " الفتاوى" ١٠٨:١٤ :"والوسْع فعل بمعنى المفعول أي ما يسعه ، لا يكلّفُها ما تضيق عنه فلا تسعه، وهو المقدور عليه المستطاع " ، وقال أيضاً في " مجموع الفتاوى " =

﴿فَلِلّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين﴾(١).

والتفريط اعتماداً على القدَرِ جهل"(٢) ؛ فالذي على العبدِ

= ٢١٦:١٩ : إنَّ الله تعالى قد أخبر في غير موضع أنّه لا يكلف نفساً إلاّ وسعها كقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسَاً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة :٢٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأعراف :٤٢] ، وقوله : ﴿ لا تُكلّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة :٢٣٣] ، وقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسَاً إلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق:٧] . وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة ، فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ [التغابن :١٦] . وقد دعا المؤمنون بقولهم : ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرَاً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة :٢٨٦] . فقال :" **قد فعلت** " -رواه مسلم- فدلّت هذه النصوص على أنّه لا يكلّف نفساً ما تعجز عنه خلافاً للجهميَّة المُجْبِرة، ودلّت على أنّه لا يؤاخذ المخطئ الناسي خلافاً للقدرية والمعتزلة " انتهى .

(١) من سورة الأنعام ،الآية :١٤٩ والحجَّةُ : الدلالة المبينة والمقْصِد المستقيم ، فله سُبْحَانَهُ الحجَّةُ البالغة بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهو تعالى يهدي من هُدِيَ ، ويُضِلُّ مَنْ ضلَّ ، وكُلٌّ من الهُدى والضَّلال واقعٌ بمشيئتِهِ تَعَالى ، ولكن لا يَرْضى لعباده الكفر ، ولا يأمرُ بالفحشاء.

(٢) وهذا التفريط بترك العمل اتّكالاً على نفوذ القدر قد ردَّه النبيُّ ﷺ ، فقد أخرج البخاري في مواضع من صحيحه أولها في كتاب الجنائز (١٢٩٦) =

= ومسلم في كتاب القدر (٢٦٤٧) كلاهما عن عليٍّ ﷺ قال : " كنّا في جنازة في بقيع الغرْقَد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مِخْصَرةٌ فنكّس- أي خفض رأسه إلى الأرض -فجعل يَنْكُتُ بمِخْصَرَتِهِ- أي يخطُّ بها خطاً يسيراً مرَّة بعد مرَّة ، وهذا فعل المُفكّر المهموم- ثمَّ قال:"**مامنكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة ، إلاّ وقد كُتِب مكانها من الجنّة والنّار ، وإلا قد كُتبت: شقيّةً أو سعيدةً** " . فقال رجل : يارسول الله ، أفلا نتّكلُ على كتابنا وندعُ العمل ؟ فمن كان منّا من أهل السعادة فسيصيرُ إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان منّا من أهل الشقاوة فسيصيرُ إلى عمل أهل الشقاوة. فقال :" **اعمَلُوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ ، أمّا أهل السّعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السّعادة ، وأمّا أهل الشّقاوة فيُيَسَّرون لِعَمَل أهل الشّقاوة** " ، ثمَّ قرأ :﴿ **فأمّا مَنْ أعْطَى واتّقَى ۞ وَصَدَّق بالحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل :٥-١٠] .

قال الإمام النووي في " شرح صحيح مسلم " ١٦:١٩٦ :" وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والاتّكال على ما سَبَق به القدر ، بل تجب الأعمال والتكاليف التي وَرَدَ الشّرع بهَا ، وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له لا يقدر على غيره " انتهى.

وروى أبو داود في كتاب السنة (٤٦٧٧) من حديث عمران بن حُصين قال : قيل لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، أعُلِمَ أهل الجنّة من أهل النّار ؟ قال : **نعم**. قيل : ففيمَ يعمل العاملون ؟ قال : " **كلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له** " . =

أن يسعى في الصّالحات ، ولا يتجاوز خُطَّته إلى التكلُّف فيما أخفاهُ ا للهُ عنه من أنّه من المقْدَّر[١] أو من غير المقدَّر[٢] .

= " وكلمة (**مُيَسَّر**) : كلمةٌ جامعة لكلمتين تندرجان تحتها ، هما الكلمتان الشائعتان على ألسن الناس : مُسَيَّر ومخيَّر ، والإنسان ليس مُسيَّراً فحسب ، كما تقوله الجَبْرية ، ولا مُخيَّراً فحسب كما تقوله المعتزلة ، إنّما هو مسيَّر ومخيَّر معاً، وبدلاً من أن نقول كلمتين وكلٌّ منهما تُوهم ، فإنّا نقول ماقاله عليه الصلاة والسلام :(**مُيَسَّر**) ، فالله تعالى يُيَسِّره للخير ، ويُيَسِّر الخير له -من حيث لا يشعر - فهو مُسيَّرٌ من هذه الناحية ، وهو يمشي في طريق الخير باختياره دون عَصًا تُلْجئهُ ، فهو مخيَّر من هذه الناحية . وقد غيَّب الله تعالى عن عباده تلك النتائج المحتومة ليبقى للإنسان اختيارُهُ سلوكَ الطريق التي يريدها ، وهذا الاختيار هو مَنَاطُ التكليف ، ومحلُّ الثواب والعقاب " انتهى (من صِحَاح الأحاديث القدسية ، للشيخ محمد عوامة ص ٧٨-٧٩).

(١) في الأصل من المقدور ، والصواب : من المقدَّر بدون واو .

(٢) لأنَّ البحث عمَّا أخفاه الله عنَّا من سرِّ قدره ، فيما لا تبلغ عقولُنا القاصرة معرفةَ تفاصيله ولا نستطيع كشف أسراره ، تكلُّفٌ منهيٌّ عنه . وفيها جاء الحديث :" **إذا ذُكِرَ القَدَرُ فأمْسِكوا** " -رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٢٧) وقال الهيثمي في " المجمع " ٧:٢٠٢ :فيه يزيد بن ربيعة وهو ضعيف - .

وروى أحمد في مسنده ٢:١٧٨ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ خرج ذاتَ يَوْم ، والنّاسُ يَتَكلّمون في القدر ، فكأنّما تَفَقَّأ =

ثُمَّ الرجوع إلى القَدَر يكون عند الطَّاعَاتِ شُكراً لله[1] ،

= في وجهه حبُّ الرمَّان من الغضب . فقال لهم :" **مَا لَكُم تضْربونَ كتابَ الله بعضَهُ بِبَعْض ؟ بهذا هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم** ".

قال الحافظ ابن رجب في " فضل علم السلف على علم الخلف"ص٥٢ : "والنَّهي عن الخوض في القَدَر يكون على وجوهٍ منها : ضربُ كتاب الله بعضه ببعض ، فينزع المثبت للقدر بآية ، والثاني له بأخرى ، ويقع التجادل في ذَلِكَ، وهذا قد روي أنّه وقع في عهد النَّبي ﷺ ، وأنَّ النَّبي غضب من ذَلِكَ ونهى عنه، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه ، وقد نُهي عن ذَلِكَ .

ومنها : الخوض في القدر إثباتاً ونفياً بالأَقْيِسَةِ العقلية ؛ كقول القدرية : لو قدر وقضى ثمَّ عذّب كان ظالماً ، وقول من خالفهم : إنَّ الله جبر العباد على أفعالهم ، ونحو ذَلِكَ.

ومنها : الخوض في سرِّ القدر ، وقد ورد النهي عنه عن عليٍّ وغيره من السَّلف ، فإنَّ العباد لايطَّلعون على حقيقة ذَلِكَ " انتهى .

(١) فإذا شَكَرَ الله تعالى على ما وفَّقه من الطاعات،ونَسَبَ الفضلَ إليه سبحانه، تحقَّق بالعبودية والخضوع لله عزَّ وجل، وابتعد عن الكِبْر والغرور، وإطراء النفس ، ونسبة الكمال إليها، لأنَّهُ يعلم أنَّ هذه الطاعات إنما هي بتوفيق الله عزَّ وجل وفضلِهِ، ويقول كما قال سليمان عليه السلام : =

= **﴿ ربِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾** [النمل:١٩].

قال ابن القيم في " رسالته إلى أحد إخوانه " وهو يعدِّد مشاهد العبوديَّة الستة ص٣٩ :" المشهد الخامس : مشهد المنَّة ، وهو أن يشهد أنَّ المنَّة لله سبحانه، كونَهُ أقامه في هذا المقام ، وأهَّله له ، ووَفَّقَه لقيام قلبه و بدنه في خدمته ، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذَلِكَ ، كما كان الصحابة يَحْدون بين يدي النبي ﷺ فيقولون :

والله لولا الله ما اهتدينا   ولا تصدَّقنا ولا صلَّيْنا

قال الله تعالى : **﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هَدَاكُم للإيْمَان إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾** [الحجرات:١٧]. فالله سبحانه هو الَّذي جعل المسلمَ مسلماً ، والمصلِّي مصلياً ، فالمنَّة لله وحده في أن جعل عبده قائماً بطاعته ، وكان هذا من أعظم نعمه علينا . قال تعالى:**﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾** [النحل:٥٣] ،وقال :**﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيْمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلوبِكُم وكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَان، أُولَئِكَ هُم الرَّاشِدُونَ ﴾** [الحجرات :٧].وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد ، وكلَّما كان العبد أعظمَ توحيداً كان حظُّه من هذا المشهد أتم.وفيه من الفوائد:أنَّه يحول بين القلب وبين العُجْب بالعمل ورؤيته،فإنَّه إذا شهد أنَّ الله سبحانه=

وبَعد المصائب[1]،

= هو المانُّ به ، الموفِّقُ له ، الهادي إليه، شغله شهود ذَلِكَ عن رؤيته، والإعجاب به ، وأن يصول به على الناس ، فيرفعَ من قلبه فلا يُعجبُ به ، ومن لسانه فلا يمنُّ به ولا يتكثّر به ، وهذا شأن العمل المرفوع . ومن فوائده أيضاً : أنّه يضيف الحمد إلى وليِّه ومستحقّه ، فلا يشهد لنفسه حمداً، بل يشهدُهُ كلُّه لله كما يشهد النعمة كلَّها منه ، والفضلَ كلّه لـه ، والخيرَ كلّه في يديه ، وهذا من تمام التوحيد ، فلا يستقرُّ قدمه في مقام التوحيد إلاّ بعلم ذَلِكَ وشهوده ، فإذا علمه ورَسَخَ فيه صار له مشهداً ، وإذا صار لقلبه مشهداً أثمر له من المحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه ، والتنعُّم بذكره وطاعته مالا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا ألبتّة " انتهى .

(١) والتسليم بالقدَر بعد المصائب مطلوبٌ ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن : ١١] . وكما قال سبحانه : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَيُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد : ٢٢-٢٣] . وكما قال النبيُّ ﷺ : "**إنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تقُل : لو أنّي فعلتُ كذا كَانَ كذا ، ولكن قُل: قدَّرَ اللهُ وَمَا شاءَ فعلَ**" أخرجه مسلم (٢٦٦٤) في القدَر. =

لا عند الذنوب ، فهو سوءُ أدبٍ وغرورٌ من الشيطان[1] .

❁❁❁

= قال ابن القيم في " الفوائد" ص٩٣-٩٤ :" إذا جرى على العبد مقدورٌ يكرهُهُ ، فله فيه ستة مشاهد : **أحدها** : مشهد التوحيد ، وأنَّ الله هو الَّذِي قدَّره وشَاءَه وخلقَهُ ، وماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . **والثاني** : مشهد العَدْل ، وأنه ماضٍ فيه حكمه ، عَدْلٌ فيه قضاؤه . **والثالث** : مشهد الرحمة ، وأنَّ رحمته في هذا المقدور غالبةٌ لغضبه وانتقامه . **والرابع** : مشهد الحكمة ، وأنَّ حكمته سبحانه اقتضت ذَلِكَ ، لم يقدِّره سُدىً ، ولا قضاه عبثاً . **الخامس** : مشهد الحمد ، وأنَّ له سبحانه الحمدَ التامَّ على ذَلِكَ من جميع وجوهه . **السادس** : مشهد العبوديَّة ، وأنّه عبدٌ محضٌ من كل وجه ، تجري عليه أحكام سيِّده وأقضيَتُهُ بحكم كونه مِلْكَه وعبدَه ، فيصرِّفُه تحت أحكامِهِ القدريَّة كما يُصرِّفُهُ تحت أحكامه الدينيَّة ، فهو محلٌّ لجريان هذه الأحكام عليه " انتهى .

وقال أيضاً في "الفوائد" ص٢٦٢ :" وعبوديَّته في قضاء المصائب : الصبرُ عليها ، ثم الرضا بهَا وهو أعلى منه ، ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا. وهذا إنّما يتأتّى منه إذا تمكّن حبُّهُ من قلبه ، وعلم حُسنَ اختياره له، وبرَّه به ، ولطفَهُ به ، وإحسانَه إليه بالمصيبة وإنْ كَرِهَ المصيبة " .

(١) انظر كتابي : "البيان في أركان الإيمان" ص ٤٦٩-٤٧٣ ففيه تفصيلٌ لِما أُجمِلَ هنا .

س١٢- ما وظيفةُ العقل في هَذَا العلم؟

العقلُ تابعٌ للشرعِ وخادمٌ له[1]، العقلُ مخلوقٌ ، والمخلوقُ لا يعرفُ من صفاتِ خالقه إلاَّ ما عرَّفَهُ خالقُهُ ، فلا يعتقد ولا

(١) العقل وإنْ كان تابعاً للشَّرع وخادماً لـه ، فـإنَّ لـه منزلته ومكانته ، قال الإمام القرطبي في تفسيره: ٢٦١: "فإنَّ العقلَ لِكُلِّ فضيلةٍ أُسٌّ ، ولكلِّ أدبٍ ينبوع ، وهو الَّذِي جعله الله للدينِ أصلاً ، وللدنيا عماراً ، فأوجبَ الله التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبَّرةً بأحكامه ، والعاقل أقربُ إلى ربِّه من جميعِ المجتهدين بغير عقل" انتهى .

وقال الإمام العز بن عبدالسلام (ت ٦٦٠) رحمه الله في " ملحة الاعتقاد " ص٢٢:" والعقل هو مناط التكليف بإجماع المسلمين ، مع أنَّ الشرع قد عدَّل العقل، وقبل شهادته ، واستدلَّ به في مواضع من كتابه ، كالاستدلال بالإنشاء على الإعادة ، وكقوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتا ﴾ [الأنبياء :٢٢] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون :٩١] ، وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأرض وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي الأَرْضِ مِنْ شَيءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] . فياخَيْبَة من ردَّ شاهداً قَبِلَه الله ، وأسقط دليلاً نَصَبَه الله " .

والعقلُ على علوِّ درجته ، ورفيعِ منزلته له حدٌّ يقف عنده ولا يتجاوزه إلى ما بعده ، وهو وإنْ كان تابعاً للشرع وخادِماً له إلاَّ أنهما متوافقان =

= متعاونـان . يقـول الإمـام الراغـب الأصفهـاني رحمه الله تعـالى في كتابَيه: "الذريعة إلى مكارم الشريعة"ص ٢٠٨و " تَفْصيل النَّشْأتين وتحصيل السعادَتين" ص١٤٠-١٤٣ في شأن العقل مع الشرع ما ملخصه:"إنَّ الشرعَ سائسٌ ، والعقل تابعٌ ، والشرعُ قبل العقل ، والعقل في حاجةٍ دائماً إلى الشرع ، فالشرعِيَّات تجري مَجْرى الأغذية الحافظة للصحة ، والمعقولات تجري مجرى الأدوية الجالبة للصحة ،والشرعُ والعقلُ تَوأَمان ، يكمِّلُ أحدهما الآخر ، ولا استغناء لأحدِهما عن الثاني ،وبينهما اندماجٌ، وليس بينهما تنافرٌ فيُحتاجَ إلى التوفيق بينهما ".

وقال الراغب أيضاً في " تفصيل النشأتين " ص١٤٢ :" واعلم أنَّ العقل بنفسه قليل الغناء لايكاد يتوصَّل إلاَّ إلى معرفة كليَّات الشيء دون جزئياته نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، وتعاطي الجميل...ونحو ذَلِكَ من غير أن يعرف ذَلِكَ في شيء شيء. والشرع يعرف كليَّات الشيء وجزئياته ، ويبيِّن ما الَّذِي يجب أن يُعتقد في شيء شيء ، وما الَّذِي هو معْدلة في شيء شيء . ولا يعرِّفنا العقل مثلاً أنَّ لحم الخنزير والدم والخمر محرَّمة ، وأنه يجب أن يُتحاشى من تناول الطعام في وقت معلوم ، وأن لاتُنكح ذوات المحارم ، وأن لا تُجامع المرأة في حال الحيض ، فإنَّ أشباه ذَلِكَ لا سبيل إليها إلاَّ بالشرع ، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة ، والدالُّ على مصالح الدنيا والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضلَّ سواء السبيل . ولأجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة =

= ذَلِكَ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعذِّبين حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] انتهى .

وقال العلاَّمة ابن الجوزي في فاتحة كتابه "تلبيس إبليس"ص٢ : "أما بعد ؛ فَإِنَّ أعظمَ النّعم على الإنسان العقل ؛ لأنه الآلةُ في معرفة الإله سبحانه ، والسببُ الّذِي يُتوصَّلُ به إلى تصديقِ الرسل ، إلاّ أنه لَمَّا لم ينهض بكلِّ المراد من العبد ، بُعِثَتِ الرُّسل وأُنزلت الكتب ، فمثال الشَّرع: الشمس ، ومثال العقل: العينُ ، فإذا فتحت وكانت سليمةً رأت الشمس. ولما ثبت عند العقل أقوالُ الأنبياء الصادقة بدلائل المعجزات الخارقة ، سَلَّم إليهم ، واعتمد فيما يخفى عليهم".

وقال العلاَّمة الشيخ طاهر الجزائري في" الجَوْهَرة الوسْطى" في "تظاهر العقل والشرع" ص٩١-٩٣: "اعلم أنَّ العقل لا يهتدي إلاّ بالشَّرع ، والشَّرع لا يُتبيَّنُ إلاّ بالعقل. وقد ضربوا لتظاهرهما واحتياج كلٌّ منهما إلى الآخر أمثالاً:

المثل الأول: العقلُ كالأساس والشَّرع كالبناء ، ولن يغني أساسٌ ما لم يكن بناءٌ ، ولن يثبت بناءٌ ما لم يكن أساس.

المثل الثاني: العقلُ كالسِّراج ، والشَّرع كالزيت ، فما لم يكن سراجٌ لم يضئ الزيْت ، وما لم يكن زيتٌ لم يُنتفع بالسَّراج.

قال الشَّاعر الحكيم: =

= إنّما النفسُ كالزُّجاجةِ والعقـ ـلُ سِرَاجٌ وحكمةُ الله زيتُ

فإذا أَشْرَقَتْ فإنَّكَ حَــــيٌّ وإذا أَظْلَمْــــتَ فإنَّك ميْتُ

المثل الثالث: العقل كالبصر ، والشرعُ كالنُّور ، فما لم يكن بصرٌ لم يُفدِ النور في النظر ، وما لم يكن نورٌ لم يُدْرك البصر وإن كان في غايةِ القوة ، فكما أنَّ بنورِ البصر ونور الشمس يحصل الإبْصار ، كذلك بنور العقل ونور الشرع يحصل الاستبْصار ، فهُما في الظاهر نوران ، وفي الباطن نورٌ واحد. قال تعالى: ﴿نورٌ على نور﴾ [النور: ٣٥] يريد : نورَ الشرع ونور العقل" انتهى بتصرُّفٍ واختصار ، وغالب كلامه منقول من " تفصيل النشأتين " للراغب الأصفهاني ص١٤٠-١٤٣.

قال الأستاذ العلاَّمة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧)رحمه الله تعالى في تعليقاته النفيسة على "رسالةِ المسترشدين" للمحاسبي ص١٦٥: "وما أجملَ قول بعض الحكماء مما وجدتُه على كتاب:

الشَّرعُ أعظمُ مرشدٍ في ظلمةِ الشُّبَهِ البَهيمَهْ

والعقل يَقْفُوهُ وَلَوْ لاهُ لَكُنَّا كالبَهيمَهْ

فاتْبعْهُما ولِمَن لَحا كَ عليهما قُل: يا بَهيمَهْ

وفي قوله: (يا بهيمَهْ) توريةٌ ، إذ المقصود: (يا بهي -أي يا جميل- مَهْ) أي: اكفُفْ عن لومي في اتِّباع الشَّرع النَّاصح والعقل المستَنير به ، وكتبت (يابهيمَهْ) موصولةٌ لإحكام التَّورية نُطقاً وكتابةً ومُلْحَةً أيضاً . =

يتكلّم أحدٌ في أمورِ خالقه إلاّ ما أذِنَ له فيه ، فالعقل لا سبيل له إلى الحكم في المباحث الإلَهيَّةِ نفياً أو إثباتاً إلاَّ بتَلَقّي علمها من إفاداتِ النُّبُوَّة ، وكذلك الأمور الأُخرَوِيَّة وما أخبر بهِ الشَّرع مِمَّا غاب عن العيان[١]، فليس للعقل فيه وظيفةٌ إلاَّ

= قال مصعب بن عبدا لله الزُّبيري: قال أبي:الْمُلَحُ يا بُنَيَّ لا يفهمُها إلاَّ عقلاءُ الرجال. وقد قرَّر هذا الحكيم ما قرَّره العلماء أنَّ الشَّرع عِصْمةٌ للعقل ، والعقل نِبْراسٌ للشرع" انتهى.

(١) قال العلامة الشيخ حسين والي رحمه الله تعالى في كتابه "التوحيد" ص١٠٠: " العقل في أمور أخرى ميزانٌ صحيح ، إذا حكم أنصف ، وكانت أحكامه صادقة لا كذب فيها ، ولكنه هنا ليس كذلك . فإنَّ ميزانه لا يقوم في حقيقة صفات الله والنُّبوَّة والآخرة ، ولا في سائر أمور الغيب ، فإذا طمع في ذَلِكَ فإنَّما يطمع في المحال بعينه . **الميزان صادق إذا وُزن ما يليق به ، فميزان الذهب لا توزن به الجبال** " . انتهى

وقال أستاذنا العلاّمة الشيخ علي الطنطاوي(ت ١٤٢٠) -رحمه الله تعالى- في كتابه النافع "تعريف عام بدين الإسلام" ص ٤٣: "إنَّ العقل لا يستطيع أن يُدْرك شيئاً حتى يَحْصُره بين اثنين: الزمان والمكان ، فما لم ينحصر بينهما ، لم يدركه العقل بنفسه ، فالعقل لا يحكم إلاّ في حدودِ الزمان والمكان ، فما كان خارجاً عنهما من مسائلِ الرُّوح ، وأمورالقدَر ، وصفاتِ الله سُبْحَانَهُ، فلا حكمَ للعقلِ عليه ، ثُمَّ إنَّ العقلَ محدودٌ لا يحكم على غير المحدود ، ولا يستطيع أن يحيطَ به .
=

التعقُّل والتفهُّم للمرادِ من التبْليغات النَّبويَّةِ بالقرآنِ والحديثِ الصحيح[١]، وكلُّها مطابقةٌ للعقلِ عَرَفَ من عَرَفَ ، وجهِلَ من جَهِل[٢] ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم .

حافظوا على هَذَا الأساس الكُلِّيِّ فهو الحاجزُ بين الكُفرِ والإيمان ، وبين الخَطَأ والصَّواب في هَذَا الباب .

وكلُّ حكمٍ خرَجَ عن هذه القاعدةِ فهو مظنونٌ أو موهومٌ من قائله الأول بناءً على قياسات لم تَطَّرِدْ فلا يقينَ فيه ، ولا يجوز اعتقادُهُ ، ونتائجُ الأفكار لا تُقاوِمُ وحيَ الجبَّار .

= فالعقلُ لا يستطيعُ أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلاّ في الأمورالمادية المحدودة ، أمَّا ما (وراء المادة) أي : عالم الغيب ، فلا حكم للعقلِ عليه" .

(١) قال القرطبي ١٠: ٢٣١ في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]: "وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الأحكام لا تثبت إلاّ بالشَّرع خلافاً للمعتزلة القائلينَ بأنَّ العقل يقبِّح ويحسِّن ويُبيحُ ويحظُر" .

(٢) قال ابن القيم في "الفوائد" ص٢٥٤ :" العقول المؤيَّدة بالتوفيق ترى أنَّ ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحقُّ الموافق للعقل والحكمة ، والعقول المضروبة بالخِذْلان ترى المعارضة بين العقل والنقل ، وبين الحكمة والشرع ".

وسببُ الخطأ: القصورُ في الإحاطة بأصْلِ المسألة أو تفريعها ، فلو استكملت لأهل الفَنِّ لقرَّ قرارُهم على الإذْعان إلى ما قاله ا لله ورسولُه.

نعم ما كان غير مصرَّحٍ بِهِ في النَّصِّ الدينيِّ فهو ليس من هَذَا الباب .

فهذه المسألة -وهي عرفانُ وظيفة العقل في هَذَا العلم وتوقيفه عند حدِّه- هِيَ إحدى النقطتين اللتين هما مَنْبعُ السعادةِ والشَّقاوة .

والنقطة الثانية: اعتقادُ قدرةِ اللهِ تعالى وإرَادته:

مَن آمنَ بأنَّ ا للهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وفعَّالٌ لما يريد: زالَ عن فكره أكثر الإشكالات المضِلَّة ؛ لأنَّه بقدرةِ ا لله تنخرقُ الطبيعة ، فكما أنَّ جريَانها في سبيلها المعتاد هو بفعل ا لله وحكمته ، فلا إشكالَ في تغييره مجراها لحكمةٍ أيضاً ، فا لله لم يلتزم عدم تغيير المعتاد من مجاري الطبيعة ، بل صرَّح بتغييرها وتبديلها وتحويلها متى شاء .

ومن الخطأ الفاحش تفسيرُ قوله تعالى: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا**﴾[١] بأنَّه القانونُ الطبيعيُّ في حَوَادِثِ الكون .

والصَّواب: أنَّ سنتَّهُ هنا نَصْرُه لأنبيائِهِ عَلَى مَنْ كذَّبَهُم وعَادَاهُم كما يدلُّ عليه صَدْرُ الآيةِ ، وهو قولُه تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِين**﴾[٢] فهي السُّنَّةُ التي لا تَتَبَدَّل والعاقبةُ للمتَّقين[٣].

---

(١) من سورة فاطر، الآية: ٤٣ .

(٢) من سورة فاطر، الآية: ٤٣ .

(٣) وللمؤلف -رحمه ا لله تعالى- كلمةٌ مفَصَّلةٌ حَوْلَ خطأ الاستدلال بهذه الآية تعقَّبَ فيها العلاَّمة الشيخ محمد رشيد رضا ، ونُشِرَتْ في مجلةِ "المنار" المجلد (١١) الجزء (١٢) سنة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٩م ص٩١١-٩١٣ ، ونظراً لأهميَّتها وعظيمِ نفعها أوردها هنا:

قال رحمه ا لله تعالى بَعْدَ بيانِ السبب الباعث له على الكتابة للشيخ محمد رشيد رضا: "قولكم في الكرامة إنَّها لا تكون مخالفةً لسنن ا لله تعالى في خلقه بتغييرٍ أو تبديلٍ أو تحويل ؛ لأنَّ ا لله تعالى أخبر بأنَّ سُنَنَهُ لا تتبدَّل ولا تتحوَّل". هذا لفظكم، تعنون قوله تعالى: ﴿**فلَن تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَن تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا**﴾ تفسيرُ هذه الآية ونحوها بعدمِ خرق العادةِ وعدم انحرافِ سبيل الطبيعةِ في الكون مُوجبٌ للأسف ، وقد سمعت الاحتجاج =

= بها مراراً على لسانِ مَن يدَّعي انحصار حوادث الكون في الأسباب انحصاراً كُلِّيّاً، ورأيته في كتبٍ جديدةٍ عربيةٍ وتركيةٍ ، ولا أدري أول من دسَّ هذا البلاء تحت هذه الآيةِ الكريمة ، فهو دفع للمعجزاتِ النبوية بالصَّدْر ، لأنها محضُ خرقٍ للعادة ، وَمَا هو إلاَّ تبديلٌ وتحويلٌ لِما هو معتادٌ في النظام الكوني ، وليس لأحدٍ أن يفرِّق بين المعجزةِ والكرامةِ في أصلِ التبديلِ والتحويل ، لأنه لا دليلَ على تخصيص عدم التبديل والتحويل بزمانٍ دونَ زمان ، فالمراد بسُنَّةِ الله في الآية: نصرُه لأنبيائه وَمَنْ قَفَاهُم ، وخذلانه لأعدائه ومَن والاهم ، ونحوِ ذَلِكَ من إحقاق الحقِّ وإبطالِ الباطل.

قال المحقِّق مجدِّدُ القرن الثاني عشر الإمام الشوكاني في تفسير "فتح القدير" ٤ : ٣٤٤ تحت هذه الآية ما نصُّه: "﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي : فهل ينتظرون إلاَّ سُنَّةَ الأولين ، أي : سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ، **﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾** أي : لا يقدر أحد أن يبدِّل سنَّةَ الله الَّتي سنَّها بالأمم المكذِّبَةِ من إنزال عذابه بهم ، بأن يضع موضعه غيره بدلاً منه ، **﴿ولن تجدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾** بأن يحوِّلَ ما جرَتْ به سنَّة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما.

ثُمَّ قال: **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** [فاطر : ٤٤] هذه الجملة مَسُوقَةٌ لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده".

ومثل الشوكاني سائر المفسرين من أئمةِ الدين.

ولا يقال هنا: العبرة بعموم اللفظ ؛ لأنَّ المعنى الَّذي زعموا تناولَ اللفظِ =

= إيّاهُ مناقضٌ لأكثر آياتِ القرآن الَّتي قصَّتْ وقائع الأنبياء وغيرها من عجائب قدرةِ الله ، كَنَارِ إبراهيم ، وعصا موسى ، وخلق الله عيسى بلا أبٍ ، وواقعةِ أصحاب الفيل وغير ذلك.

ولَنا أن نقولَ نزوعاً بالآيةِ -اعتباراً بعموم اللفظ عموماً لا ينقض آيةً أخرى-: من سنَّةِ الله أن يخلق أشياءَ بأسبابٍ لحكمةٍ ، وأشياءَ بلا أسبابٍ لحكمةٍ ، ولن تجد لسُنَّةِ الله تبديلاً ، وأعجبَني ما كتبه صاحب الحميَّة الإسلامية مفتي الديار المصرية في كتابه المسمَّى "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدَنِيَّة" ، بَعْدَ إشارته إلى حديث: "**لَتَتبعُنَّ سَنَنَ من كَانَ قَبْلَكُم شِبْراً بشبرٍ وذراعاً بذِراع**" قال في صحيفة ١٣٨: ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فهل ينتظر المتَّبعون سننهم ، السَّائرون على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الَّذي صنع بسابقِيهم ، وقد قضى بأَنَّ تلك سنته ولن تجد لسنَّةِ الله تبديلا.

فإن كَانَ مرادكم سدَّ الذريعة خوفَ توسيع الخَرْق على الواقع من جهةِ العامَّة ، فسَدُّ الذريعةِ من أصول الشريعةِ ، لكن مع السَّلامة من مَفسدةٍ أكبر من تلك ، وخوفكم على العامَّةِ بهذه المثابةِ إفراطٌ ، فإنه لا تلازُمَ بين جوازِ وقوعِ الكرامةِ خرقاً للعادة بإذن الله ، وجوازِ ما يُعمل من البدعِ في زيارةِ الأولياء والغلوِّ في الاعتقاد.

وأنتم تعلمونَ أنَّ الكرامةَ ثابتةٌ عند أهل السنَّةِ قاطبةً ، حتَّى الإسفراييني والقشيري المروي عنهما البحث في شأن الكرامة ما أنكراها ، وإنَّما قالا: لا تبلغ مبلغ المعجزة، وبعضهم شرط أن لا تتوالى وتترادف ترادُفاً يجعلها =

فحافِظوا على هاتين النقطتين[1] تُفلِحوا ، فهُما جناحا المسلم اللذانِ يتخلَّصُ بهما من الفِتَن ، وإلا فهُوَ من أهلَكِ الهالِكين .

❁❁❁

= عادةً، وفيه نظر ، وكلامُنا الآن في جوازِ أصل وقوعها إمكاناً وسنةً ، لا في عوارضها .

وإرشاداتكم على طريقةِ السلف الصالحين في الاعتقاد ، وهل نطقَ بذلك أحدٌ من أهل القرون الثلاثة؟ فتأمَّلوا المسألة ، فَإنَّ خطرَها كبير ، والمادِّيُّون والطبيعِيون بالمِرْصَاد ، فإذا سمعوا علماء المِلّة يقولون بعدم خرق العادة ، فيا بُشْرَاهُمْ يَبْنون على هذا الأساس الموهوم ما شاؤوا ، لأنَّ مذاهبهم انعزال الخالق جَلَّ جلاله عن التصرُّفِ في العالم استغناءً بالطبيعة ، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ من الضلال ، وباللهِ تعالى التوفيق" انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(١) أي: معرفة وظيفة العقل في أمور الغيبيات ، واعتقاد قدرة الله تعالى وإرادته.

(فَصْل)

س١٣- كيف السَّمَاوات السبع؟

هِيَ طِباقٌ بعضُها فوقَ بعض[1] ،

---

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوات طِبَاقاً﴾ [الملك: ٣] ، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ ترَوْا كيفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِباقا﴾ [نوح: ١٥] أي متطابقة بعضها فوق بعض ، وقال تعالى: ﴿ولقَدْ خلَقنَا فَوْقكُم سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧] أي : بعضهن فوق بعض ، قال أهل اللغة: طارقت الشيء إذا جعلتَ بعضه فوق بعض ، كما في "الرسالة الوافية " للداني ص١٤.

قال أستاذُنا الشيخ علي الطنطاوي في مقالٍ له في مجلة "الوعي الإسلامي" ، السنة الثالثة ١٣٨٧ ، العدد ٢٥ بعنوان: "ما هي السماء"؟ مامُلخصه: "والذي تبيَّنَ لي من نصوص الدين ، ومن مقرَّرات علماء الفلك: أنَّ الشمسَ وتوابعها (وهنَّ الأرض وأخواتها) وهذه الكواكب التي لا يُحصَى عددها تَسبحُ في فضاءٍ عظيم ، وهذا الفضاء تحيط به كله (كرة) هائلة ، وهذه الكرة هي (السماء الدنيا) ، وهذا العالم بأرضه وشمسه وكواكبه في وسطها ، ولهذه الكرةِ سَمْكٌ ، الله أعلم بمقْدَارِهِ . قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَها﴾[النازعات:٢٨] ، وهي في فضاءٍ لعله مثل هذا الفضاء . أو أصغر أو أكبر ، وحوله كرةٌ أخرى –لها سَمْكٌ– هي (السماء الثانية) ثُمَّ فضاء ، ثُمَّ كرةٌ ، وهكذا إلى السماءِ السابعة ، وبغير هذه الصورةِ لا تكون السماء (طباقاً) ، وخارج الكرةِ الكبرى التي هي السماء السابعة ، أجرامٌ أكبر ، =

سقفاً محفوظاً[1] ومن نفى وُجُودَ السَّمَوات المفسَّرِ بلسانِ الشَّرع فقد جاهرَ بتكذيبِ القُرآن والنبوَّة[2] .

= أجرامٌ لا يستطيعُ العقل مَهْما جهد وكَدَّ أن يتصوَّرَ مدى كبرها ، هي (الكرسيُّ ، والعرش ، وسِدْرةُ المنتهى) ، هذه كُلّهَا عَظَمَةُ المخلوق ، فما بالك بعَظَمَةِ الخالق"؟ انتهى .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿وجعلْنا السَّماءَ سَقْفاً محفُوظاً وهُمْ عَنْ آياتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢] ، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿والسَّقْفِ المرفُوعِ﴾ [الطور: ٥] .

(٢) ومن ذَلِكَ : تأويلُ سبعِ سمواتٍ طباقٍ إلى الكواكب السَّيَّارات السبْع ، وهو افتراءٌ صريحٌ على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ ،وهو كلامٌ باطل مردودٌ من عدةِ وجوه:

أولاً: أنَّ السمواتِ هي سبعٌ بالنصِّ القرآنيِّ القاطع، الّذِي ليس فيه احتمالٌ ولا إجمال ، وأما السَّيَّارات من الكواكب ، فليست هي سبعة قطعاً ، بل ثبتَ عند علماءِ الفلكِ أنَّ هناك سيارات من الكواكب أكثر من ذَلِكَ.

ثانياً: أنَّ السمواتِ السَّبْع هي طباقٌ كما أخبر الله تعالى ، أما الكواكب فليست طباقاً ، بل هي متناثرة متباعدة.

ثالثا: أنَّ القرآن أخبر أنَّ هذه الكواكب هي زينةٌ للسماءِ الدنيا ، قال تعالى: ﴿إنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بزينةِ الكَواكِب﴾ [الصافات:٦]، فالسماءُ الدنيا هي السَّقْف ، والكواكب زينتها ، ومن المعلوم أنَّ زينةَ السَّقف تكون تحته لا فوقه. =

س١٤- في كَم خُلِقَتِ السَّماواتُ والأرض؟

في ستةِ أيامٍ[1] : خلقَ الأرضَ في يومين ، ثُمَّ السَّمواتِ في يومين ، ثُمَّ دَحَا الأرضَ ، وخلقَ ما عليها من جبالٍ وماء.

= كما وصف سبحانه الكواكب بأنها مَصَابيح ، فقال سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمَصَابِيحَ﴾ [فصلت :١٢] ومصابيحُ السَّقْف تكون تحته لافوقه.

رابعاً : جعل الله الكواكب حفظاً للسَّماء من كلِّ شيطان مارد ، فقال سبحانه:﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لايَسَّمَّعونَ إلى المَلأِ الأعْلَى ويُقذَفُونَ من كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات:٧-٨] . وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بمَصابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً للشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك :٥] فلو كانت الكواكب فوق السَّموات لكان الرَّجْمُ للشياطين بالشُّهب النارِيَّة نازلاً من فوق السَّماء مُخْتَرِقاً حُجُبَ السَّماء .فكون الكواكب زينةَ السماء، وحفظاً لها ، ومصابيحَ لعالم الأرض دليلٌ على أنَّ الكواكب دون السمواتِ السَّبْع (هدي القرآن إلى معرفة العوالم ص ١١٢-١١٤) .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيام﴾ [الأعراف: ٥٤] و [يونس: ٣] ، وتكرَّر ذِكرُ خلقِ السمواتِ والأرض في ستةِ أيامٍ في سبعةِ مواضع من كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلّ ، في الموضعين السابقين في الأعراف ويونس ، وفي سورة هود ، الآية: ٧ ، وسورة الفرقان ، الآية: ٥٩ ، وسورة السجدة ، الآية: ٤ ، وسورة ق ، الآية: ٣٨ ، وسورة الحديد ، الآية: ٤ . وجاء تفصيل الزمن في سورة فُصِّلت : =

وأقْواتٍ وغير ذلك في يومين[1] .

= خُلِقت الأرض في يومين ، وقُدِّرت الأقْوات في يومين ، وخُلِقت السموات في يومين .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أئنّكُمْ لَتكفُرونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَين وتَجْعَلونَ له أنْداداً ذَلِكَ ربُّ العالمين ۞ وَجَعَل فيها رَوَاسي -أي: جبالاً ثوابت- مِنْ فَوقِها -أي: من فوق الأرض- وَبَارَكَ فيها وَقَدَّرَ فيها أقْوَاتَها في أربعَةِ أيام سَواءً للسَّائلين ۞ ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ فقالَ لَهَا ولِلأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنا طائعين ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ في يَوْمَين وَأَوْحَى في كُلِّ سماءٍ أَمْرَهَا وزيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بمصَابيحَ وحِفْظاً ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العَليم﴾ [فصلت: ٩-١٢] .

فاللهُ سبحانه خَلَقَ الأرضَ في يومين ، وخلق فيها الجبال والبحار والأنهار والأشجار والثّمار ، وقسَّمَ أرزاقَ العباد في يومين ، فقوله سُبْحَانَهُ : ﴿وَقَدَّرَ فيهَا أقْواتَها في أربعةِ أيامٍ﴾ أي: في تتمةِ أربعةِ أيام ، يريد بالتتمةِ اليومين ، ولابد من هذا التقدير . لأنه لو أُجري على الظاهر لكانت ثمانيةَ أيامٍ ، لأنه قال: خَلَقَ الأرضَ في يومين ، ثُمَّ قال: وقدَّرَ فيها أقواتها في أربعةِ أيامٍ ، ثُمَّ قال: فقضاهُنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين ، فيكونُ خلافَ قوله: ﴿في ستةِ أيامٍ﴾ .

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ خلقَ الأرضِ كَانَ قبل خلق السماء ، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الأرضَ في يومين﴾ ثمَّ رتَّب على ذَلِكَ بثمَّ : ﴿ثمَّ اسْتوى إلى السَّماء﴾ كما يدلُّ على ذَلِكَ أيضاً قوله تعالى: ﴿هوَ الَّذي خَلَقَ لكُم مَا في الأرضِ جميعاً ثُمَّ استوى =

= إلى السَّماءِ فسوَّاهُنَّ سبعَ سَمَوات﴾ [البقرة: ٢٩] يدلُّ على تقدُّم خلق الأرض وما فيها على خلق السَّماء . وقوله سُبْحَانَهُ في سورة النازعات : ﴿ءَأنْتُم أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماءُ بَناهَا﴾ ثم قال : ﴿وَالأرْضَ بعدَ ذَلِكَ دَحَاها﴾ يدلُّ على أنَّ دحو الأرض بَعْدَ خلق السماء . والجمعُ بينهما: أنه سُبْحَانَهُ خَلَقَ الأرض أولاً ، ثُمَّ خَلَقَ السماء بَعْدَهَا ، ثُمَّ بَعْدَ خلق السَّماءِ دَحَا الأرضَ ومدَّها ، وبهذا يحصُل الجمعُ بين الآيتين . فأصلُ خلْق الأرض قبل خلق السَّماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذَلِكَ ، بعد خلق السَّماء . ويدلُّ لهذا أنَّه قال : ﴿وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ولم يقل :خلقها ، ثم فسَّر دَحْوَهُ إيَّاها بقوله : ﴿أخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وهذا الجمعُ بين الآيتين ذهب إليه ابن عباس كما رواه البخاري عنه في صحيحه في تفسير سورة السجدة ٨: ٥٥٥-٥٥٦ ، وهو واضح لا إشكال فيه.

وفي قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافي الأرضِ جَميعاً ثمَّ اسْتَوَى إلى السَّماء﴾ [البقرة :٢٩] التصريح بأنَّ جميع مافي الأرض مخلوقٌ قبل خلق السَّماء . فكيف نزيل هذا الإشكال ؟

قال العلاَّمة محمد الأمين الشنقيطي في " أضواء البيان " ٧: ١١٩ : " وهذا الإشكالُ مرفوعٌ من وجهين كلٌّ منهما تدلُّ عليه آية من القرآن .

الأول : أنَّ المراد بخلق مافي الأرض جميعاً قبل خلق السَّماء : الخَلْقُ اللغوي الَّذِي هو التقْدير ، لا الخَلْقَ بالفعل ، الَّذِي هو الإبْرازُ من العَدَمِ إلى الوجود. والدليل على أنَّ المراد بهذا الخلق : التقدير أنَّه نصَّ على ذَلِكَ =

س١٥- ما مقدارُ تلك الأيام؟

مقدارُ أيام الدنيا المعروفة(١)،

= في قوله ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ ثم قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ .

الوجه الثاني : أنه لمّا خلق الأرض غير مَدْحُوَّة ، وهي أهلٌ لِكُلِّ مافيها ، كان كل مافيها كأنه خُلق بالفعل لوجود أصله فعلاً . والدليل على أنّ وجود الأصل يمكن به إطلاق الخَلْقِ على الفرع ، وإن لم يكن موجوداً بالفعل ، قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَم** ﴾ فقوله : ﴿ **خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم** ﴾ أي : بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الَّذِي هو أصلكم " انتهى .

(١) والدليلُ على أَنَّ المراد بالسِّتَّةِ أيامٍ هنا هي مقْدارٌ من هذه الأيَّام -يعني أيام الدنيا المعروفة- قوله تعالى: ﴿**وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سَنَةٍ مّما تَعُدُّون**﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله سبحانه :﴿ **يدبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْض ثُمَّ يَعْرُجُ إليهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون** ﴾ [السجدة :٥] . فأحالَ العدد في الآيتين إلى مدَّةٍ تقدَّر بزماننا بألفِ سنةٍ ، فَيَطَّردُ ذَلِكَ في جميع التقادير الزمَنِيَّة التي يذكرها سُبْحَانَهُ على نسبةِ التقدير من أيام هذا الزمان ، في كلِّ المناسبات ، كما قال سُبْحَانَهُ: ﴿**تعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسينَ ألفَ سَنة**﴾ [المعارج: ٤] أي: مما تعدُّون.

وأمَّا من زعم أنَّ مقْدار اليوم الَّذِي خلق الله عزَّ وجل فيه السَّموات والأرض ألف سنة أخذاً من قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمَاً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ** =

= **سَنَةٍ مِمَّا تَعدُّون** ﴾ [الحج:٤٧] فقد قال ابن الجوزي في "المنتظم" ١:١٢٥: "وهذا المراد به أيام الآخرة ، وليس يقوم ذَلِكَ دليلاً على أنَّ الأيام المتقدِّمة مثل المتأخرة . والذي أراه أنَّ الستة أيام التي خُلِقَت فيها الأشياء على مثل أيّامنا بدليل النقل والمعنى . أمَّا النقل فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال : " **خَلَقَ الله التربةَ يوم السَّبْت ، وبثَّ فيها الجبالَ يومَ الأحد..** " -رواه مسلم في كتاب صفة القيامة (٢١٤٩) (٢١٥٠) وأحمد في المسند ٢:٣٢٧-ونحن نعرف مقدار الأحد و السبت . فأمَّا المعنى : فإن المراد الإخبار بسرعة الإيجاد ، فإذا كان اليومُ كألف سَنةٍ لم يحصل المقصود. وكنت أرى أنني خالفتُ بهذا الرأي أهل التفسير حتى رأيت الحسن البصريَّ قد قال : هذه الأيّام مثل أيّام الدنيا " انتهى .

وأمَّا التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمواتِ والأرضَ ومَا بَينهما في ستّة أيّام** ﴾ [ق :٣٨] . وبين مارواه أحمد في مسنده ٢:٣٢٧ ومسلم (٢١٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁ قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال:" **خلق الله تعالى التربةَ يوم السبت ، وخلق الجبالَ يوم الأحد، وخلقَ الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النُّورَ يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة** ..." فهذا الحديث قد اختلف العلماء في ثبوته ، وردَّه كثيرٌ منهم بحجَّة أنه مُعارضٌ لنصِّ الآية التي تدلُّ على أنَّ خلق السَّموات والأرض وما بينهما كان في ستّة أيام ، مع أنَّ هذا الحديث لم يتعرَّض لخلق شيء من السَّموات أصلاً حتى يقال إنه عارض الآية ، وإنما ذكر خلق =

ولا يعجز عنه ، ولو شاء لخلَقَها في لحظة[1] .

= مابين السموات والأرض من الأمور المادية : الحيوانية والنباتية ونحوهما ، ثمَّ إنَّ هذا الحديث بيَّن تفصيل خلق الله تعالى لما على وجه الأرض بعدما خلقها سبحانه إجمالاً ، فهذا من باب : ﴿ **خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْق** ﴾ [الزمر :٦] وتفصيل بعد إجمال ، كما ذكر سبحانه ذَلِكَ في خلق الإنسان حين خلقه إجمالاً ثم خلقه خلقاً من بعد خلق (هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان ، ص٢٦) .

(١) قال الخازن في بيان الحكمة في ذَلِكَ في تفسيره ٢: ٩٤ : " أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وإن كَانَ قادراً على خَلْقِ جميع الأشياء في لحظةٍ إلاَّ أنه تعالى جَعَلَ لكلِّ شيءٍ حدّاً محدوداً ، ووقتاً معلوماً ، فلا يدخل في الوجود إلاَّ في ذَلِكَ الوقت ، والمقصود من ذَلِكَ تعليمُ عباده التثَبُّت والتأنِّي في الأمور .
وقيل : إنَّ الشيء إذا أُحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم إنَّ ذَلِكَ الشيء إنَّما وقع على سبيل الاتفاق ، فإذا حدث شيئاً بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذَلِكَ أبلغ في القدرة ، وأقوى في الدلالة " انتهى .
وقال البيضاوي في " أنوار التنزيل " ص٢٠١ :" وفي خلق الأشياء مدرَّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليلٌ للاختيار ، واعتبارٌ للنظَّار ، وحثٌّ على التأنِّي في الأمور " انتهى .
ومن ذَلِكَ أيضاً: أَنَّ الحكمةَ في خَلْقه أن يكون تطويراً وتخليقاً ، ليحصل بخلق السمواتِ والأرض وَمَا بينهما النفع والخير للبلاد ، فالأيام الَّتِي =

س١٦-هل الأرضُ كرةٌ أم مُسَطَّحة؟

كرةٌ ومُسَطَّحَةٌ ، فالأرضُ جُرْمٌ كبيرٌ ، لا ينافي تسطيحُها كُرَوِيَّتَها لِتَباعدِ أكناف بعضِها من بعض[1] .

= خُلِقَت فيها السَّموات والأرض وإن كانت سِتَّة ، ولكنَّ التخليقَ الإلهيَّ والتحويلَ والتطويرَ لم يفارقها لحظة ، فهذا من دلائل عِظَمِ القُدْرة الإلهيَّة على خلقِ الأشياء وتطويرها وتحويلِها وخلقِها خَلْقاً من بَعْدَ خلق.
وهناك حكمٌ أخرى كثيرةٌ ، وهو سبحانه يخلق مايشاء كيف يشاء على الوجه الَّذِي يشاء حَسْبَ مُقْتَضى الحكمةِ الإلهيَّة . (وانظر : هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكُّر في الأكوان ، ص٢٤-٢٩).

(١) وصف الله سبحانه الأرضَ بأنَّها مُسطَّحةٌ ، فقال عزَّ وجل : ﴿ **أفلاَ يَنظرون** .. ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] وكونها مُسطَّحة، لاينفي كرويَّتها فهي ذاتُ سَطْحٍ كروي.
والأدلة على ذَلِكَ كثيرةٌ أذكر أهمها :
١- قال تعالى :﴿ **وَهوَ الَّذِي مَدَّ الأرضَ** ﴾ [الرعد :٣] وقال سبحانه : ﴿**والأَرضَ مَدَدْنَاهَا** ﴾ [ق : ٧] . والمدُّ : البَسْط . ومعنى ذَلِكَ : أنَّك حيثما نظرتَ إلى الأرض تراها مبْسوطة ، وهذا لايُمكن أن يَحدُث إلاَّ إذا كانت الأرض كرويَّةً ، فلو أنَّ الأرض كانت مُربَّعةً أو مُثلَّثةً لوصلْنا فيها إلى حافةٍ ، فالشكل الوحيد الَّذِي تراه أمامَك مَبْسوطاً دائماً مهما سِرْتَ دون أن تصِلَ إلى حافةٍ هو الشكل الكُرويُّ . =

= قال الإمام ابن جُـزَي في تفسيره " التسـهيل في علـوم التـنزيل " ٢ :١٣٠ :
"ولايتنافى لفظ البسط والمدّ مع التكوير ؛ لأنَّ كلَّ قطعةٍ من الأرض ممـدودة على حِدَتها ، وإنّما التكويرُ لجملةِ الأرض " .

وقال الإمام البيضاوي في تفسيره ١ :١٦ عنـد تفسـير قولـه تعـالى:﴿ **الَّـذِي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فِرَاشاً** ﴾ [البقرة:٢٢] : أي : مُهيَّأة لأن يقعدوا وينامـوا عليها كالفِرَاش المبسْوط ، وذلك لايستدعي كونها مُسـطَّحة ، لأنَّ كرويـة شكلها مع عظم حجمها ، لايأبى الافتراش عليها "

وقال الآلوسي في "روح المعـاني "٧٦:٢٩ في تفسـير قولـه تعـالى : ﴿ **والله جَعَلَ لكُم الأرضَ بِسَاطاً**﴾ [نوح : ١٩] :" وليس في الآية دلالـةٌ على أنَّ الأرض مبسْوطة غير كرويَّة ، لأنَّ الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليهـا مايليـه مُسطَّحاً ، ثمَّ إنَّ اعتقاد الكروية من عدمها ليس بـلازم في الشـريعة ، لكـن كرويتها كـالأمر اليقيـني، ومعنـى جعلهـا بسـاطاً ، أي : تتقلّبــون عليهـا كالبِسَاط".

٢- وقال تعـالى : ﴿ **وَالأَرْضَ بعْـدَ ذَلِـكَ دَحَاهَـا** ﴾ [النازعـات :٣٠] .
ومعنى الدَّحو : المَدُّ والبَسْطُ . وهـذا يُؤيِّـدُ المعنى السَّابق في قولـه تعـالى : ﴿**وَالأَرضَ مَدَدْنَاهَا** ﴾

ولكنَّ الأرض ليست كاملة الاسـتدارة ، والدحيـة : هـي البيضـة ، فشـكل الأرض بيضاوي ، فأحد القُطْبَين أكثرُ سيولةً من الآخر.

٣- وقال تعالى : ﴿ **خَلـقَ السَّـمَوَاتِ والأَرْضَ بـالحقِّ يُكَـوِّرُ اللَّيـلَ علَـى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْري** =

= **لأجَـلٍ مُسَـمَّى** ﴾ [الزمـر :٥].والتكويـرُ مـأخوذ مـن كـور العمامـة وهـو إدارتها، ولايكون تكوير إلاعلى سطح كروي دائري . فهذه الآية نصٌّ على تكوير الأرض ودوران الشمس. فيكون ضوء النهار بإشراقها ، وظلمة الليل بمغيبها، فالله سبحانه يكوِّر ظلمة الليل على المكان الَّذِي يشغله النهار على الأرض المكوَّرة فيصير ليلاً . ويكوِّر ضوء النهار على المكـان الَّـذِي يشـغله الليل على الأرض المكوَّرة فيصير الزمن نهاراً .

قال الشيخ ابن تيمية في " الفتاوى " ٥٨٨:٦ : " والتكوير :التدوير ، يُقال: كوَّرتُ العِمَامة إذا دوَّرتهـا . ويقـال للمستدير : كـارةٌ ، وأصلـه كَـوْرة . والليل والنهار ، وسائر أحوال الزمان تابعـة للحركـة ، فـإنّ الزمـان مقـدار الحركة ، والحركة مقدار الجسم المتحرِّك ، فإذا كان الزمان التابع للحركة ، التابعة للجسم ، موصوفاً بالاستدارة ، كان الجسم أَوْلى بالاستدارة " .

٤ -وقال سبحانه : ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبهُ حَثِيثاً** ﴾ [الأعراف :٥٤].
وقـال سـبحانه : ﴿ **وَلاَاللَّيْـلُ سَـابِقُ النَّهـارِ وَكُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْـبَحُون** ﴾ [يس:٤٠] . فالليل والنهار يَجْريان في تَتَابع بحيث لايَسْبِق أحدُهما الآخـر ، وهذا التتابع إمَّا أن يكون في خطٍ مستقيم أو خطٍ دائري ، فإذا كان تتـابع الليل والنهار في خط مستقيم ، فإنه لـن يحـدث علـى وجـه الأرض إلاّ ليـلٌ واحد ، ونهارٌ واحد . مِمّا يجعل التتابع على وَجْـه الأرض مسـتحيلاً . فـلا يمكن أن يكون تتابع الليل والنهار على الأرض إلاّ في شـكل دائـري ، كمـا يشير إليـه قولـه تعـالى : ﴿ **يُقلِّـبُ الله اللَّيْــلَ وَالنَّهــارَ** ﴾ [النـور :٤٤] والتقْليب يعني السَّيْرَ بشكلٍ دائري لا في خطٍ مستقيم . =

= ٥-وَمِمَّا يدلُّ على ذَلِكَ أنَّ الأجْرام السَّماويَّة جميعها كرويَّة الشكل ، النجوم والكواكب والأقمار ، حتى الشهب والنيازك ...وشكل الأرض لايختلف عن تلك الأجرام السماويَّة التي تسبح في ملكوت ا لله سبحانه .
ولمزيد من التفصيل يُنظر كتاب :"المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم " للدكتور عبدالعليم خضر ، ص٢٥٠-٢٧٦ .
وأقوال العلماء في كروية الأرض كثيرة جداً ، منها قول أحمد بن عمر بن رَسْتة المتوفي سنة ٣٠٠ هجرية تقريباً كما في " الأعلاق النفيسة " ص١٢-١٣ :" أجمعت العلماء على أنَّ الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة " ، وتكلم عن دائرة معدَّل النهار ، وهي التي تُسمَّى بخط الاستواء فقال :" وبُعْدها من القطبين من كلِّ الجهات بقدر واحد " .
وقال الإمام ابن حزم في " الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل " ١:٩٧ :"إن البراهين قد صحَّت بأنَّ الأرض كروية .." ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذَلِكَ .
وقد استدلَّ العلماء على أنَّ العوالم كروية مستديرة بالحديث " **ما السَّموات السَّبع مع الكرسي إلاّ كحَلْقَة مُلقاةٍ بأرضٍ فَلاَة** " رواه ابن حبان ٢:٧٦ (٣٦١) والبيهقي في " السنن" ٩:٤ من حديث أبي ذر ﵁ ؛ لأنَّهُ ﷺ يُشَبِّهُ ذَلِكَ بالحلقة وهي مستديرةٌ .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى " ٢٥:١٤٢ : " قد دلّ الكتاب والسنة، وأجمع علماء الأمَّة ، على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب، من أنَّ الأفلاك مُستديرة لا مُسطَّحة " . وجاء في موضع آخر =

= من "الفتاوى" ٦:٥٨٦ : " سُئِل رحمه ا لله عن كيفيَّة السماء والأرض ، هل هما جسمان كرويان ؟ فأجاب : " السموات مستديرة عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذَلِكَ غيرُ واحد من العلماء أئمة الإسلام ، مثل : أحمد بن جعفر بن المنادي ، والإمام ابن حزم ، وأبو الفرج ابن الجوزي ، وَبَسَطوا القول في ذَلِكَ بالدلائل السمعيَّة . ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذَلِكَ إلاَّ من لايُؤْبَهُ له من الجهَّال . قال : ومن الأدلة على ذَلِكَ قوله تعالى : ﴿**كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون**﴾ [الأنبياء:٣٣] .
قال ابن عباس وغيرُهُ من السلف : في فَلْكَةٍ مثل فلكة المغزل . وهذا صريح بالاستدارة والدوران ، وأصل ذَلِكَ أنّ الفلك في اللغة : هو الشئ المستدير ، يقال : تفلّك ثدي الجارية ، إذا استدار ، ويقال لفلكة المغزل المستديرة:فَلَكةٌ ، لاستدارتها . فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أنّ الفلك هو المستدير .
ونقل أيضاً في "الفتاوى" ٢٥:١٩٦ عن ابن المنادي : " وكذلك أجمعوا على أنَّ الأرض بجميع حركاتها من البرِّ والبحر مثل الكرة ، ويدلُّ عليه أنَّ الشمس والقمر والكواكب ، لايوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب . فكُرَةُ الأرض مُثبتةٌ في وَسَطِ كُرة السماء ، كالنقطة في الدائرة " انتهى .

(فَصْل)

س١٧- ما الاعتقادُ في حقِّ الأنبياء؟

الأنبياءُ صَادِقون [١]، أُمناءُ معصُومونَ [٢]،

(١) ويستحيل في حقِّهـم الكـذب ، " في دعـوى الرِّسالة وتبليـغ الأحكـام ، ودليـلُ ذَلِكَ: أنَّهم لو لم يصدقوا لزم الكذب في خبرِهِ تعـالى ، لكـنْ كـذب خـبره تعـالى مُحَال ، فما أدَّى إليه وهو عدم صدقهم محال، وإذا استحال عدم صدقِهم وَجَبَ صدقُهُم ، وهو المَطْلوب . وقد صدَّقهم سـبحانه وتعـالى بـالمعجزة النازلـة منزلـة قوله تعالى : صَدَقَ عبدي في كلِّ مايُبلِّغ عني " . (مذكرات في التوحيد ، للشـيخ محمود أبو دقيقة ٢:٢٦١-٢٦٢) .

(٢) **الأمانـة أو العصمـة** : عرَّفهـا جمهـور علمـاء التوحيـد بأنّهـا حفـظُ الله تعـالى ظواهرَهم وبواطنَهم من فعل منهيٍّ عنه ، أو لطفٌ من الله تعالى بالعبد يحمله على الخير ويزْجـره عـن الشَّـر (المصدر السـابق ٢:٢٦٤-٢٦٥) . ودليلهـا : أنَّ الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم غير المختصَّة بهم .

قال الله تعالى في حـق نبينـا محمـد ﷺ : ﴿ **قُـلْ إنْ كُنْتُـم تُحِبُّـونَ الله فـاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُـمُ الله** ﴾ [آل عمـران : ٣١] ، وقـال تعـالى: ﴿ **واتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُـم تَهْتَدُون** ﴾ [الأعراف :١٥٨] ، وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَـانَ لَكُـم فِي رَسُـولِ الله أُسْوَةٌ حَسَـنَة** ﴾ [الأحـزاب : ٢١] ، والله سـبحانه لا يـأمر بمعصيـة ، قـال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لايأمر بالفحشاء** ﴾ [الأعراف :٢٨].

أهلُ فِطْنَة [١] .

لاَ يكتُمُونَ شَيئاً مِمَّا أمَرَهُمُ ا للهُ بتبْليغِهِ [٢]،

(١) **الفَطَانة** : هي حِدَّةُ العقل وذكاؤه بحيث يتمكَّن المتّصِفُ بهَا من إلزام المخـالفين وردِّ دعاويهم ، وإفْحام المعاندين . والدليلُ علـى ثبوتهـا للرسـل عليهـم السـلام أنهم أُرسلوا إلى الناس لبيان الشـرائع والأحكـام وإقامـة الحجـج والبـراهين على إثبات دعواهم وإبطال شُبَه المعاندين ، فلو لم يتَّصفـوا بالفَطَانـة لاتّصفـوا بضدِّهـا من البَلاَدة أو الغفلة ، ولو كانوا كذلك لما تمكَّنوا من القيام بما أُرسـلوا لأجلـه ، وحينئذٍ تضيع فائدة الرسالة (المصدر السابق ٢:٢٦٤) .

(٢) والدليل على وجوبِ صفةِ التبليغ لهم عليهـم الصَّـلاة والسـلام ، أنَّهـم لو كتمـوا شيئاً مما أُمِروا بتبليغه للخَلْق لكنَّا مأمورين بكتمان العلـم ، لكـنَّ الثـاني بـاطل ، فما أدَّى إليه وهو كتمانهم للأحكام التي أُمِـروا بتبليغهـا بـاطل، وإذا بطـل هـذا وجب نقيضه وهو وجوب التبليغ . ودليل بطلان الثاني : أنّ كاتم العلـم ملعـون ومرتكبٌ مانهى الله عنه ، فلا يكون الكتمان مأموراً به ، قـال الله تعـالى : ﴿ **إنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَاأَنزَلنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والهُدَى مِنْ بَعْدِ مَابَيَّنَّـاهُ للنَّـاسِ في الكِتَـابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُـمُ الله وَيَلْعَنُهُـم اللاّعِنُـون** ﴾ [البقـرة:١٥٩]. وأمَّـا دليـل الملازمـة فحاصلهُ : أنّا أُمرنا بالاقتداء بالرسل في أقوالهم وأفعـالهم ، فلـو كتمـوا شـيئاً ممـا أُمروا بتبليغه لضاعت فائدة الرسالة . قال تعالى:﴿ **ياأَيُّهَـا الرَّسُـولُ بَلِّـغْ مَـاأُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾[المائدة :٦٧].أي : إن لم تبلِّغ بعض مـا أُمـرت بتبليغِـهِ فكـأنَّك لم تبلِّـغ شـيئاً مـن الرسـالة(مذكـرات في التوحيد٢:٢٦٣).

مُؤَيَّدُونَ مِنَ ا للهِ بالمعجزاتِ الخارِقَةِ للعَادةِ علامةً على صِدْقهم[1].

= قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ١٢٠٤:٣ :" يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله ا لله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذَلِكَ ، وقام به أتمَّ قيام " .

ثم ساق ما أخرجه البخاري ٢٧٥:٨ عند تفسير هذه الآية عن عائشة قالت: مَنْ حدَّثك أنَّ محمَّداً كَتَمَ شيئاً مِمَّا أُنزل عليه فقد كذب ، وا لله يقول: **﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾** وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمدٌ ﷺ كاتماً من القرآن شيئاً لكَتَمَ هذه الآية : **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه ﴾** [الأحزاب:٣٧]

(١) قال العلامة نجم الدين الطوفي المتوفى سنة ٧١٦ رحمه ا لله تعالى في " التعيين في شرح الأربعين " ص٨ :" ولا شكَّ أنَّ الرُّسل صلوات ا لله عليهم جاؤوا بالآيات المعجزات دليلاً على صدقهم ، فكأنَّ صدقهم مُستفادٌ من دليلٍ مُؤَلَّفٍ من مُقَدِّمتين قاطعتين على هذا النَّظْم : الرسُل جاؤوا بالمعجزات ، وكلُّ من جاء بالمعجزات فهو صادقٌ ، فالرسل صادقون . أما الأولى فثابتةٌ بالحسِّ ، فإنَّ النَّاس شاهدوا قلب العَصا حيَّة ، وإحياء الموتى ، وانشقاق القمر ، ونحوها من المعجزات . وأمَّا الثانية فثابتةٌ بالعقل ضرورة ؛ لأنَّ =

= المعجزات خوارق العادات ، وخرق العادات لا يقدر عليه إلاَّ الله عزَّ وجل، والله عزَّ وجلَّ لا يؤيِّد به كاذباً ، وقد أيَّد به هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فليسوا كاذبين ، فهم صادقون بالضرورة ، فقام الدليل على صدقهم ، وانتظم البرهان على حقِّهم " انتهى .

وقال العلامة الإمام علاء الدين الخازن المتوفى سنة ٧٢٥ رحمه الله تعالى في تفسيره النافع النفيس " لُباب التأويل " ١١٦:٢ :"**فصل :في بيان المعجزة وكونها دليلاً على صدق الرسل** : اعلم أنَّ الله تبارك وتعالى كان قادراً على خلق المعرفةِ والإيمانِ في قلوب عباده ابتداءً من غير واسطة ، ولكن أرسل إليهم رُسلاً تعرِّفهم معالمَ دينه وجميع تكليفاته ، وذلك الرسولُ واسطةٌ بين الله عزَّ وجل وبين عباده يبلِّغهم كلامه ويعرِّفُهم أحكامَه....وقد جاءت الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسلام بمعجزات دلَّت على صدقهم، فوجَبَ تصديقُهم في جميع ما أَتَوْا به ؛ لأنَّ المعجزة مع التحدِّي من النبيِّ قائمٌ مقامَ قولِ الله عزَّ وجل : صَدَقَ عبدي فأطيعوه واتَّبعوه، ولأنَّ معجزة النبي شاهدةٌ على صدقِهِ فيما يقوله ، وسمِّيت المعجزة معجزةً ؛ لأنَّ الخلق عَجَزوا عن الإتيان بمثلها .

وهي على ضَرْبَيْن : فَضَرْبٌ منها هو على نوع قُدرة البشر ، ولكن عَجَزوا عنه، فعجْزُهم عنه دلَّ على أنَّه من فعل الله ، ودلَّ على صدق النبيِّ ﷺ ، كتمنِّي الموت في قوله :**﴿ فَتَمنَّوا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [الجمعة:٦] فلمَّا صُرِفوا عن تمنِّيه مع قُدْرتهم عليه ، عُلِم أنَّه من =

= عند الله ، ودلَّ على صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ . **الضَرْبُ الثاني : ماهو خارجٌ عن قدرة البشر** ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا حيَّة ، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام الشجر والجماد والحيوان ، ونبْع الماء من بين الأصابع ، وغير ذَلِكَ من المعجزات التي عَجَز البشر عن مثلها . فإذا أتى النبيُّ بشيءٍ من تلك المعجزات الخارقة للعادة عُلِمَ أنَّ ذَلِكَ من عند ا لله عزَّ وجل ، وأنَّ ا لله عزَّ وجل هو الَّذِي أظهرَ ذَلِكَ المُعْجزَ على يد نبيِّه ليكونَ حُجَّةً له على صدقِهِ فيما يُخبر به عن ا لله عزَّ وجل .

وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع أنَّ ا لله تعالى قادرٌ على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سبق لها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود ، وأنَّه قادرٌ على قلبِ الأعيان وخوارق العادات ، وا لله تعالى أعلم "انتهى .

وقال العلامة الشيخ محمود أبو دقيقة في "مذكرات التوحيد" ٣:٨-٩ في دلالة المعجزة على صِدْق النبيِّ ﷺ :" لافرق في ذَلِكَ بين الموجودين في زمن الرسول والغائبين ، وبين من شَاهدهَا ومن لم يشاهدها ؛ لأنَّ مدَّعي النبوة إذا أتى بأمرٍ خارقٍ للعادة ، وعَجَزَ قومُه الَّذِينَ بُعِث فيهم عن معارضته مع تحدِّيه لهم عُلِم صدقه في دعواه ، لأنَّ ترك المعارضة يترتَّب عليه إذلالُهم بعد عزَّتهم ، وقهرُهم وخضوعُهم ، وزوالُ سلطانهم ، وهذا لاتقبله النفوس البشريَّة " .

ومَنْ كذَّبَ نبيًّاً ولو في كَلِمةٍ فقد كفر [١] .

(١) قال القاضي عياض -رحمه ا لله تعالى - في "الشفا" ١٠٧٣:٢ : " وكذلك نَقْطع بتكفير كلِّ من كذَّب وأنكر قاعدةً من قواعد الشرع ، وما عُرِفَ يقيناً بالنقل المتواتر من فعل الرسول ، ووقع الإجماع المتصل عليه ، كمن أنكر وجوب الصَّلوات الخمس أو عدد ركعاتها وسجداتها " . وقال أيضاً ١٠٧٦:٢ : " وكذلك من أنكر القرآن ، أو حرفاً منه ، أو غيَّر شيئاً منه ، أو زاد فيه ، وكذلك من أنكر شيئاً مما نصَّ فيه القرآن -بعد علمه- أنَّه من القرآن الَّذِي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين ، ولم يكن جاهلاً به ، ولاقريب عهدٍ بالإسلام .."

ولابدَّ من التنبيه هنا إلى ماذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى" ٢٣٧:٧ بقوله :" إنَّ الإنسان قد يكون مكذِّباً ومُنْكِراً لأمور لايعلم أنَّ الرسول أخبر بهَا أو أمر بهَا ، ولو عَلِمَ ذَلِكَ لم يكذِّب ولم يُنْكر، بل قلبه جازمٌ بأنه لايخبر إلاَّ بصدق ، ولايأمر إلاَّ بحق ، ثم يسمع الآية أوالحديث ، أو يتدبَّر ذَلِكَ ، أو يفسَّر له معناه ، أو يظهر له ذَلِكَ بوجهٍ من الوجوه فيصدِّق بما كان مكذِّباً به ، ويعرف ما كان مُنكراً له ، وهذا تصديقٌ جديد وإيمانٌ جديد يزداد به إيمانه" .

ولذلك يقول الإمام النووي في " شرح صحيح مسلم "١٢٨:١ : " إنَّ مَنْ جَحَدَ مايعلم من دين الإسلام ضرورة حُكِمَ بردته وكفره إلاَّ أن يكون قريبَ عهدٍ بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه فيُعرَّف ذَلِكَ، فإن استمرَّ حُكِمَ بكفره".

س١٨–ما الَّذِي يجوزُ في حقِّهم؟

يجوزُ عليهم الأحوالُ البشريَّة التي لا نَقيصَةَ فيها ، كالجُوعِ والتعب والنكاح ، والمرضِ الَّذِي لا تَنْفر منه النفوس[1]

---

(١) أمّا الأعراضُ البشرية المُنفِّرة كالجذام والبرَص فيجبُ سَلاَمة أبدانهم منها ؛ لأنهم لو اتَّصفوا بشيءٍ من ذَلِكَ لكان انزعاجُ الناس لِمَرْآهُم حجةً للمنكر في إنكار دعواهم ، فتضيع فائدة الرسالة .

قال القاضي عياض في "الشَّفا" :"الأنبياء مُنزَّهون عن النقائص في الخَلق والخُلق ، سالمون من العاهات والمصائب ، ولا التفات لما يقع في التاريخ من وقوع بعض العاهات في بعضهم ، بل نزَّههم الله تعالى من كل عَيْبٍ ، وكل ماينقص العيون ويُنَفِّر القلوب" .

وقال أيضاً ١٩٧:١ :" وصفاتُهم في الكمال وجميل الأخلاق ، وحُسْن الصُّوَر ، والشمائل : معروفة ومشهورة ، فلا تلتفت إلى ما تجده في كتب جَهَلة المؤرِّخين والمفسِّرين ممَّا يخالف هذا " .

وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ٤٣٨:٦ :" الأنبياء في خَلقهم وخُلقهم على غاية الكمال ، ومن نَسَب نبياً من الأنبياء إلى نَقْصٍ في خَلْقِهِ فقد آذاه، ويُخشى على فاعله الكفر " .

=

= وقال العلاَّمة القسطلاني في "المواهب اللدنية " ٢١٤:٥ :" قال السبكي: ولايجوز عليهم العمى ؛ لأنَّهُ نقص ، ولم يَعْمَ نبيٌّ قط ، وما ذكر عن شُعيب أنّه كان ضريراً فلم يثبت ، وأمَّا يعقوب فَحَصَلت له غشاوة وزالت " .

ومايذكر في بعض كتب التفسير في قصة مرض أيوب فهو من الإسرائيليات المكذوبة المفتراة ، فقد بالغ بعض القصَّاص في قصة مرض أيوب عليه السلام، حتى قالوا : إنَّ الدود أخذ يتساقط منه ، وهَجَرَه الناس بعد أن وضعوه في قُفَّة وطرحوه على مَزْبلة . فلا يجوز نقل هذا الكلام ، ولا اعتقاد حصوله ، بل يجب اعتقاد سلامة الأنبياء من الأمراض المنفِّرة الشنيعة كالَّتي قيلت عن أيوب ، فقد مرض عليه السلام وابتليَ بلاءً شديداً في نفسه وماله وأهله كما أخبرنا الله تعالى ، ولا نزيد على ما قاله الله تعالى إلاَّ بدليل. ونقل القرطبي في تفسيره ٢١٠:١٥عن القاضي أبي بكر بن العربي :" ولم يصحّ عن أيوب عليه السلام في أمره إلاَّ ما أخبر الله عنه في كتابه ، في آيتين: الأولى قوله تعالى في سورة الأنبياء (٨٣) : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ ، والثانية في سورة ص (٤١) :﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾. وأمَّا النبيُّ ﷺ فلم يصح عنه أنّه ذكره بحرف واحد ، إلاَّ قوله : " **بَيْنا أيوب يغتسل إذ خرَّ عليه جرادٌ من ذهب**.." الحديث –رواه البخاري (٢٧٩) – .

=

س١٩- ما خصائصُ نبيِّنا محمدٍ عليه وعليهم الصلاة والسلام؟

هُوَ خَاتَمُ الأنبياء(١)،

= وإذا لم يصح فيه قرآن ولا سنة إلاّ ما ذكرناه ، فمن الّذي يوصل السّامع إلى أيوب خبرَهُ ؟ أم على أيٍّ لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البتات ، فَأَعْرِض عن سطورها بَصَرَك ، واصْمُم عن سماعها أذنَيْك ، فإنّها لا تعطي فكرك إلاّ خيالاً ، ولا تزيد فؤادك إلاّ خبالاً .."

قال الإمام أبو الحسن السَّبْتِي في كتابه " تنزيه الأنبياء عمَّا نسب إليهم حُثَالة الأغبياء " في قصة أيوب عليه السلام ص١٢٣ :" وهذه القصة غير لائقة بمنصب النبوة ، وحاشى لله أن يُسلِّط عدوه على حبيبه بمثل هذه السُّلْطَة حتى يتحكَّم في ماله وولده وجسده بالبلاء والتنكيل . وأما تعلقهم فيها من الكتاب العزيز فبقوله تعالى أنه قال : ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وليس لهم حجة في هذا القول ، فإنَّ الأنبياء عليهم السلام ، إذا مسَّهم ضرٌ نسبوه إلى الشَّيطان ، على جهة الأدب مع الحقِّ سبحانه ؛ لئلا ينسبوا له فعلاً يُكْرَه ، مع علمهم أنَّ كلاً من عند الله " ثم قال :" فخرج من مجموع ما ذكرناه أنَّ تعلقهم بالآية في كل ما زوَّروه من الأقاصيص غير صحيح " انتهى .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحدٍ من رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب:٤٠] .وروى البخاري (٣٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ :" إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً =

= فأحسنه وأجْمَلَهُ إلاّ موضع لَبِنَةٍ من زاوية فجعلَ النّاس يطوفون به ويُعجبون له، ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبِنَة ، وأنا خاتمُ النبيين".

وروى ابن حبان في صحيحه ١٥:١٩٥(٦٧٨٨) من حديث فاطمة بنت قيس قالت : صَعِدَ رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : "أُنْذِرُكُم الدجَّالَ ، فإنَّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلاّ وقد أنذره أمَّتَهُ ، وهو كائنٌ فيكم أيَّتُها الأمَّة ، إنَّه لا نَبِيَّ بعدي ولا أُمَّةَ بعدكم .."

والأحاديث في هذا المعنى كثيرةٌ جداً ، وهي قطعيَّة الثبوت والدلالة لتواترها وصراحة ألفاظها .

ولذا كان من مسائل الدين وقواعده الضرورية المُجْمَع عليها أنَّ من اعتقد أو ادَّعى وجود نبي يُنَبَّأ في هذه الأمَّة بعد نبيِّها محمد ﷺ أو شكَّ في متنبِّئ ادَّعى النبوة بحيث لم يجزم بكذبه ، فهو كافرٌ مُرْتَدٌّ ، يُسْتَتَاب ؛ فإن تاب قُبِلَ ، وإلاّ قُتِلَ .

على هذا اتّفق المسلمون قاطبةً . قال الحافظ ابن حزم في " مراتب الإجماع": بابٌ من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع : اتّفقوا أنَّ الله عز وجل وحده لا شريك له خالق لِكُلِّ شيء ...إلى أن قال : وأنَّ دين الإسلام هو الدِّين الّذي لادينَ لله في أرضه سواه ، وأنَّه ناسخ لجميع الأديان لا ينسخه دينٌ بعده أبداً ، وأنَّ من خالفه ممَّن بلَغَهُ كافر مخلَّد في النّار أبداً ...وأنَّه لا نبيَّ مع محمدٍ ﷺ ولا بعده أبداً ، واتّفقوا أنَّه مُذْ مات النبي ﷺ فقد انقطع الوحي ، وكَمُلَ الدين واستقر " انتهى . =

رَسُولاً إِلى جميعِ الإِنْسِ والجن[1] ،

= وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦: ٢٨٢٠-٢٨٢٣ عند الكلام على قوله تعالى :﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين ﴾ [الأحزاب :٤٠] ما نصُّه :" فهذه الآية نصٌّ على أنَّه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأَوْلَى والأَحْرى ؛ لأنَّ مَقَامَ الرِّسالة أخصُّ من مقام النبوَّة فإنَّ كلَّ رسولٍ نَبي ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة " وبعد أن أورد طائفة من الأحاديث قال : " والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله بالعباد إرسالُ محمَّدٍ ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم : خَتْمُ الأنبياء والمرسلين به ، وإكمالُ الدِّين الحنيف له ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه ، ورسولُه في السنة المتواترة عنه : أنَّه لا نبيَّ بعده ؛ ليعلموا أنَّ كلَّ من ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذَّاب أفَّاك ، دجَّال ضالٌّ مضلٌّ " انتهى.

وقال الآلوسي في تفسيره " روح المعاني " ١١: ٢١٩ مانصُّه :" وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب ، وصَدَعت به السُّنَّة ، وأجمعت عليه الأمَّة ، فيكفر مُدَّعي خلافه ، ويُقتل إنْ أصرَّ " انتهى .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ الله إليكُم جَمِيعَاً**﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال سُبْحَانَهُ :﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً وَنَذيراً**﴾ [سبأ: ٢٨] .وقال عزَّ وجل : ﴿ **وَمَاأَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحمةً لِلعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ **وأُوْحِيَ إلَيَّ هَذَا القُرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ** ﴾ [الأنعام :١٩] ، وقال سبحانه :﴿ **هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ** =

= **وَلِيُنْذَرُوا بِهِ** ﴾ [إبراهيم:٥٢] فهو بلاغٌ لِكُلِّ من بَلَغَهُ خبره ، وانتهى إليه أمره في عصره وفي سائر العصور . والجنُّ والإنْسُ في هذا الخطاب والبلاغ سواء : ﴿**يَامَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ** ﴾ [الأنعام : ١٣٠] [الرحمن :٣٣] . وفي صحيح البخاري ١: ١٢٨(٣٢٨) من حديث جابر عن النبي ﷺ :"... **وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خَاصَّةً وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً** ". وفي "المسند" ٥: ١٤٧ -١٤٨ من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال : " ..**وبُعِثتُ إلى كلِّ أحمر وأسود** " ، وفي المسند أيضاً ١: ٢٥٠ من حديث ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال "..**بُعِثتُ إلى النَّاس كافَّة الأحمر والأسود** " .

وفي مسند البزَّار ٣: ١٤٧ من حديث ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال :"**أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَها نبيٌّ** " فذكر منها :" **وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى خاصَّة قومه وبُعِثتُ إلى الجنِّ والإنس** " وقال البزَّار : لفظ " الجن والإنس " لا نعلمه إلاَّ في هذا الحديث بهذا الإسناد .

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ٦: ٣٤٤ :" وثَبتَ التصريح بذلك في حديث : " **وكان النبيُّ يبعث إلى قومه ، وبُعِثْتُ إلى الإنْس والجنّ**" فيما أخرجه البزَّار " اهـ .

وقد ثبتَ بلوغُ دعوته إلى الجنِّ ، عن طريق توافدهم عليه ، واستماعهم إليه ﷺ ، وعن طريق ذهابه ﷺ وقراءته عليهم القرآن ، فيدخل في عموم بعثته إلى الناس كافَّة : الجنُّ .

وفي صحيح مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " **فُضِّلت على الأنبياء بستٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكلم ،ونُصِرتُ بالرُّعب،**=

جاءَ من اللهِ بالقُرآن بَشيراً ونذيراً(١)،

= **وأُحِلّت ليَ الغنائم ، وجُعلت لي الأرض طَهوراً ومسجداً ، وأُرسلت إلى الخلق كافّة ، وخُتِمَ بي النَّبيُّون** " .

قال الحافظ ابن رجب في "فتح الباري" ٢:٢٠٦ عند شرحه لحديث : "**أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي** ..." :" وهذه الخمس اختُصَّ بهَا النبيُّ ﷺ عن الأنبياء ، وليس في الحديث أنّه لم يختصَّ بغيرها ، فإنَّ هذه اللفظة لاتقتضي الحَصْرَ ، وقد دلَّتِ النُّصوصُ الصَّحيحةُ الكثيرةُ على أنّه ﷺ خُصَّ عن الأنبياء بخصال كثيرة غير هذه الخمس .." ثمَّ قال ٢:٢١٩ :" ومن تأمَّل هذه النصوص علم أنَّ الخصال التي اختصَّ بهَا عن الأنبياء لا تنحصرُ في خمس ، وأنّه إنّما ذكر مرَّةً ستاً ومرةً خمساً ومرةً أربعاً ومرَّة ثلاثاً بحسب ما تدعو الحاجةُ إلى ذكره في كلِّ وقتٍ بحسبِهِ ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلم"انتهى .

(١) **التبشير** : إخبارٌ فيه سرور ، **والإنذار** : إخبارٌ فيه تخويف ، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإنذار الخاص والعام . قال الله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها المدَّثّر قُمْ فأنْذِر** ﴾ [المدثر :١-٢] ، وقال : ﴿ **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين** ﴾ [الشعراء :٢١٤] ، وقال: ﴿ **وأَنْذِرِ النَّاسَ يومَ يأتيهم العَذَابُ** ﴾ [إبراهيم:٤٤] وقال : ﴿**تبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمينَ نذيراً**﴾ [الفرقان: ١] .

قال الإمام العزُّ بن عبدالسلام في " شجرة المعارف والأحوال " ص٣١١ "يتضاعف أجر المنذِر بتعدُّد المُنْذَرين لِتَضَاعُفِ نفعه ؛ ولذلك أُرسل =

وهو أُمِّيٌّ لا يكتب ولا يَقْرأ(١)،

= نبيُّنا ﷺ إلى العالمين أجمعين ، ليكون أجره على الإبلاغ أكمَل من أجْر سائر المرسلين؛ ولذلك تمَنّن عليه ربُّ العالمين بقوله عزَّ وجل : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان :٥١] فإنّه لو فعل ذَلِكَ لما حَصَل لنبيِّنا ﷺ إلاّ أجر إنذار أهل قريته " انتهى .

وقد وصف الله سبحانه النَّبيَّ ﷺ بالوصفَيْن : ﴿ **مُبَشِّراً ونَذيرا** ﴾ فقال عَزَّ وَجَلّ: ﴿**وَبالحَقِّ أَنزلْناهُ وَبالحَقِّ نَزلَ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ مُبَشِّراً ونَذِيراً**﴾ [الإسراء: ١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿**ياأَيُّها النَّبيُّ إنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً وَدَاعِيَاً إلى اللهِ بإذْنهِ وَسِراجَاً مُنِيراً** ﴾ [الأحزاب :٤٥-٤٦] .

(١) قَالَ تَعالَى: ﴿**الَّذينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ**﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿**فآمِنوا باللهِ وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ**﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

قال الراغب في " المفردات" ص٨٧ :" والأميُّ : هو الَّذِي لايكتب ولا يقرأ من كتاب ، وعليه حُمِلَ : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّين رَسُولاً مِنهم** ﴾ [الجمعة :٢] . قال الفرَّاء : هم العرب الَّذِينَ لم يكن لهم كتاب . والنبيُّ الأميُّ : قيل : منسوب إلى الأمَّة الَّذِينَ لم يكتبوا ، لكونه على عادتهم كقولك : عامي ، لكونه على عادة العامة ، وقيل : سمي بذلك ؛ لأنَّهُ لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب وذلك فضيلة له ؛ لاستغنائه بحفظه ، واعتماده على ضمان الله له بقوله : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى** ﴾ [الأعلى:٦].وقيل: سمي بذلك لنسبتِهِ إلى أمِّ القُرى " انتهى . =

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية في " تفسير سورة الإخلاص " كما في "مجموع الفتاوى " ١٧:٤٣٥ :" والصواب أنّه نسبة إلى الأمَّة ، كما يقال: عامي نسبة إلى العامَّة التي لم تتميَّز عن العامة بما تمتاز به الخاصَّة ، وكذلك هذا لم يتميَّز عن الأمة بما تمتاز به الخاصَّة من الكتابة والقراءة ، ويُقال الأمي: لمن لايقرأ ولا يكتب كتاباً ، ثم يقال : لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرؤونه ، وإن كان يقرأ ويكتب مالم ينزَّل ، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين ، فإنّه لم يكن عندهم كتاب مُنَزَّل من الله . قال الله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ [آل عمران :٢٠] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّين رَسُولاً مِنْهُم ﴾ [الجمعة :٢] انتهى .

وقال القاضي عياض في " الشفا " في ذكر ما يجوز على النبي ﷺ ٢:١٠٠٦ :" وكذلك إذا وُصِف بأنّه أميٌّ كما وَصَفَهُ الله به ، فهي مِدحةٌ له ، وفضيلةٌ ثابتةٌ فيه ، وقاعدة معجزته ؛ إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم إنّما هي متعلّقة بطريق المعارف والعلوم ، مع ما مُنح ﷺ ، وفضِّل به من ذَلِكَ . ووجود مثل ذَلِكَ من رجلٍ لم يَقْرأ ولم يكتب ، ولم يدارس ، ولا لُقِّن ، مُقْتضى العجب ، ومنتهى العِبر ، ومعجزة البشر . وليس في ذَلِكَ نقيصةٌ ؛ إذ المطلوب من القراءة والكتابة : المعرفة ، وإنّما هي آلةٌ لها ، وواسطةٌ موصِّلةٌ إليها غير مرادةٍ في نفسها ؛ فإذا حَصَلت الثمرة والمطلوب استغنى عن الواسطة والسبب . والأميَّة في غيرِه نقيصةٌ ؛ لأنها سبب =

ولم يتعلَّم قطّ(١)، وذلك مِن أكْمَلِ الكمال له ؛ لأنَّ أكبر معجزاته القرآن (٢) الَّذِي أَدْهَشَ مَصَاقِعَ خُطَبَاء العرب ،

= الجهالة، وعنوان الغباوة ، فسبْحَانَ مَنْ بايَنَ أمره من أمر غيره ، وجَعَل شرفه فيما فيه مَحِطَّةُ سواه " .

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُون﴾ [العنكَبوت: ٤٨].وقال سبحانه :﴿ قُلْ : لو شَاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِه فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يونس :١٦] أي : أني لبثت فيكم قبل أن ينبِّئني الله تعالى أربعين سنة ، ولم أتْلُ عليكم شيئاً من ذَلِكَ ؛ لأنَّهُ لا علم لي بذلك ، حتَّى إذا بلغت الأربعين ، فإنَّ الله نبَّأني وأنزل عليَّ هذا القرآن ، وأمرني أن أتلوه عليكم ، فاعقلوا تعلموا صِدقَ نبوَّتي ، وحقيَّة رسالتي . إذاً ما هو إلاَّ رسول الله ، تولَّى الله تعليمه ، فأوحى إليه وعلّمه ما لم يكن يعلم ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء :١١٣] .

(٢) روى البخاري (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : " **ما منَ الأنبياء نبيٌّ إلاَّ أُعطيَ من الآيات ما مثلُهُ آمنَ عليه البشر ، وإنّما الّذِي أُوتيتُهُ وَحياً أَوْحَاهُ الله إليَّ ، فَأَرْجُو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة** " .

قال القاضي عياض في " الشفا " ١:٢٢٣ :" معنى هذا عند المحقّقين : بقاء معجزته ما بقيت الدنيا ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، =

= ولم يشاهدها إلاّ الحاضرُ لها ، ومعجزة القرآن يقفُ عليها قرنٌ بعد قرنٍ عياناً لاخبراً إلى يوم القيامة " . وقال أيضاً ١:٥٢٧ :" وسائرُ معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم ، وعُدِمَتْ بعدم ذواتها ؛ ومعجزة نبيِّنا محمد ﷺ لا تبيد ولا تنقطع ، وآياتُهُ تَتَجَدَّد ولا تَضْمَحل ، ولهذا أشار إلى ذَلِكَ بقوله : " **ما من الأنبياء نبيٌّ إلاَّ أُعطي من الآيات** ..." هذا معنى الحديث، وهو الظاهر والصحيح إن شاء الله " انتهى .

وقال العلامة الطُّوفي في " التعيين " ص١١ في شرح قوله ﷺ : " **وإنَّما كان الّذِي أوتيتُهُ وحياً ، وإني أرجو أن أكونَ أكثرُهم تابعاً يوم القيامة** " . قلت : " وما ذاك إلاّ لأَنَّهُ مُعجزٌ مُسْتَمِرٌ دائمٌ بين أظهر الناس يرشدهم إلى الإيمان بمن أُنزل عليه على تعاقب الأعصار واختلاف الليل والنهار ، فبالضرورة تكثر أتباعه ، بخلاف باقي معجزات الرسل ، فإنَّها لولا تصديق القرآن لها لما آمَنَ بِهَا إلاّ القليل ؛ لانقطاع وجودها ، وعدم إحساس الناس بهَا " .

وقال أيضاً ص٣٣ ، في معنى قوله :(**إنما**) :" قلتُ : الأشبه أنَّها ليست للحَصْر مُطْلَقاً ، لقوله ﷺ :" **وإنما كان الّذِي أوتيتُهُ وحياً** " فلو كانت (**إنما**) للحَصْر لانحصرت آياتُ النبيِّ ﷺ ومعجزاته في الوحي ، وانتفى غيره، بإقْرار النبيِّ ﷺ بحصْرها في القرآن ، و (**إنَّما**) للإثباتِ المؤكّد ، وأراد النَّبيُّ ﷺ بهذا الكلام إثباتَ الوحي ، لا نفي ما عداه ، وقد ثَبَتَ له غيره من الآيات ما لايُحصى " انتهى . =

ليتحقَّقَ أَنَّ فتحَهُ قُدْسِيٌّ ، وكتابَه منزَّلٌ عليه منَ الله، فلا يَرْتابَ أحدٌ في نبوَّتِهِ وإبلاغِهِ رسالةَ رَبِّهِ .

❁❁❁

= وقال الحافظ في "الفتح" ٩:٦ : "قوله :" **وإنَّما كان الّذِي أوتيته وحياً**..." أي : أنَّ معجزتي التي تحدَّيْتُ بِهَا الوحيُ الّذِي أُنزل عليَّ، وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المرادُ حَصْرَ معجزاته فيه، ولا أنَّه لم يُؤْتَ من المعجزاتِ ما أوتيَ مَنْ تقدَّمه، بل المراد أنَّه المعجزة العُظْمى التي اختُصَّ بهَا دونَ غيرِهِ " انتهى .

س٢٠- هل القرآن كلامُ الله نفسُهُ؟

نعم ، القرآنُ كلام الله نفسُهُ[1] ، وهو المكتوبُ في المَصَاحف[2] ،

(١) فالقُرآن كلام الله تعالى على الحقيقة ، منه بدأ وإليه يعود . قال الله تعالى:﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ** ﴾ [التوبة :٦] . وفي الحديث :" ..**وَفَضْلُ كلامِ اللهِ تعالى على سَائرِ الكلام كفَضْلِ اللهِ على خلقه** " رواه الترمذي ٥:١٦٩(٢٩٢٦) والدارمي ٢:٤٤١. وروى الدارمي في سننه في فضائل القرآن ٢:٤٤٠ عن عطيَّة أنه قال : قال رسول الله ﷺ :" **مَا مِنْ كلام أعظم عند الله من كلامه ، وما رَدَّ** - أي ما تقرَّب - **العبادُ إلى اللهِ كلاماً أحبَّ إليه من كلامه** " .

(٢) حفظ الله سبحانه القرآن بكتابته كما قال تعالى : ﴿ **رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾ [البينة :٢-٣] ، ومن ثَمَّ كان ﷺ يأمر بكتابة القرآن فَوْرَ نزوله ، وقد اتَّخذ كُتَّاباً للوحي القرآني ؛ أُمَنَاء أَوْفياء ، اختارهم ﷺ ، فكانوا يكتبون القرآن فورَ نزوله بإتقان وإحكام ، واستيعاب كامل ، بحيث لا يضيعون منه كلمةً ولا حرفاً . فالقرآن الكريم هو ما كان بين دفَّتَيْ المصحف المبدوء بسورة الفاتحة ، والمُخْتَتَم بسورة الناس من غير زيادةٍ ولا نقصان . =

المحفوظُ في الصُّدور[1] ،

= وعلى هذا أجمع المسلمون، فمن اعتقد أنَّ في القرآن زيادةً أو أنَّه نَقُصَ منه شيءٌ فَقَدْ خَرَجَ عنِ المِلَّة ، وخَالَفَ الإجماع ، وصار مُنْكِراً لِمَا عُلِمَ من الدين بالضرورة .

(١) كما قال تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ [العنكبوت :٤٩] ، وحِفْظُ القرآن في الصدور هو الأصل المعوَّل عليه ، وهو الشَّرف الأكبر الَّذِي شرَّف الله تعالى به هذه الأمَّة المحمَّديَّة ، فجعل صدورَها مصاحفَ لآياتِ هذا القرآن الكريم ، وأوعيةً لكلامه القديم ، يقْرؤونه عن ظهر قلب ، ولا يغسله من قلوبهم تيَّار الماء ، ولا يمحوه من صدورهم كيد الأعداء .

روى مسلم في صحيحه ٤:٢١٩٧ (٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : " **وقال الله تعالى لي : إنَّما بعثتُك لأبتليك وأبتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان** " . فلو غُسِلَت جميع مصاحف السطور فإن القرآن الكريم لا يُمحى من الأرض ؛ لأنَّهُ محفوظٌ في الصُّدور التي لا يغسلها الماء . فالمراد بقوله : "**لايغسله الماء** " دوامه وثباته ، وحفظُهُ واستمراره ، وأنَّه لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، ولا يُزاد فيه ولا يُنقص منه .

المقْروءُ على الألسنة(١) ، نَزَلَ بِهِ جبريلُ على محمَّـدٍ ﷺ(٢) ، مُعْجزاً كلَّ مَن يُعارِضُهُ أو يريد الإتيانَ بمثلِهِ .

---

(١) " كما بلّغها جبريل بكلماتِهِ وحروفه إلى النبيِّ ﷺ ، فليس لجبريل ، ولا للنبيِّ ﷺ في القرآن إلاّ مجرَّد البلاغ ، ومحض الأداء من غير زيادةِ حرفٍ فيه، ولا نقصان ولا تصرُّف ..ولا يُوصَفُ المقْروء ولا الملفوظ من كتاب الله تعالى ، إلاّ بما وصفَهُ الله تعالى به ورسوله ﷺ من العَظمة والهُدى والإعجاز"كما في"طبقات القراء " للذهبي ١:١٨٦،وانظر فيه تتمة كلامه .

(٢) فالقرآن الكريم منزَّل من عند الله بلفظه ومعناه ، وأوحى الله به إلى رسوله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام . قال تعالى :﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** ﴾[الشعراء :١٩٣] ، وقال سبحانه : ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ [النحل :١٠٢] ، ولم يكن من عند محمد ﷺ فاضَتْ به عبقريته ، وجادت به قريحته ، ولقد قال الله تعالى:﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ [النمل :٦] ، وقال عزَّ وجل : ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ،لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِين فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] .ومن نسب القرآن لغير الله تعالى فهو كافر ، قال الطحاوي في " عقيدته " : " من سمعها – أي آيات القرآن – فزعم أنها كلام البشر فقد كفر، وقد ذمَّهُ الله وأوعده بسقر حيث قال :﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَر** ﴾ ، فلما أوعده الله بسقر على قوله :﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ علمنا وأيقنّا أنّه قول خالق البشر " .

قال تعالى: ﴿**قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أن يَأْتُوا بمثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بمثلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً**﴾(١) .

---

(١) من سورة الإسراء ، الآية :٨٨. قال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي في " المحرَّر الوجيز " ١:٣٩ :" والصحيح أنَّ الإتيان بمثل القرآن لم يكنْ قطُّ في قُدرةِ أحدٍ من المخلوقين ، ويظهر لك قُصور البشر في أنَّ الفَصيحَ مِنْهم يَصْنَعُ خطبة أو قصيدة يَسْتفرغُ فيها جُهْدَهُ ، ثمَّ لا يزال يُنَقِّحُهَا حَوْلاً كاملاً ، ثُمَّ تُعطَى لآخر نظيره ، فَيَأخذها بقريحة جامَّة – أي مستريحة – فيبدِّل فيها ويُنقِّح ، ثمَّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنَّظَرِ والبَدَل ، وأمَّا كتابُ الله فلو نُزِعَت منه لفظة ، ثمَّ أُدِيْرَ لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد . ونحن تبيَّن لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضعَ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذَّوْق ، وجَوْدة القريحة ، ومَيْز الكلام .

فصورةُ قيام الحُجَّة بالقرآن على العرب : أنَّه لما جاء محمد ﷺ به وقال : ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ قال كلُّ فصيح في نفسه : وما بال هذا الكلام حتَّى لا آتي بمثله ؟ فلمَّا تأمَّله وتدبَّره ، ميَّز منه ما ميَّز الوليد بن المغيرة حين قال : " والله ماهو بالسِّحر ولا هو بالكَهَانة ولا بالجنون ". وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشرٌ على مثله ، فصحَّ عنده أنَّه من عند الله تعالى . فمنهم من آمن وأذْعَنَ ، ومنهم من حَسَدَ ؛ كأبي جهل وغيره، ففرَّ إلى القتال ، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة ، حتَّى أظهر الله =

وقد تَكَفَّلَ الله بصِيَانتِهِ من التبْديل والتغيير[1] ، فمَـنْ سَعَى في تحريفه لفظاً أو معنىً يَفْتَضِح ، وعَجْزُهُ يَتَّضِح .

= دينه ، ودخل جميعهم فيه ، ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيلٌ من العرب يعلن كُفره ، وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومَظِنّة المعارضة " انتهى .

وقال أيضاً ١٠:٣٤٢-٣٤٤ " والمُعجز في معارضة القرآن إنّما وقع في النَّظْمِ والرَّصْف لِمَعَانيه ، وعِلّة ذَلِكَ : الإحاطة التي لا يتّصِفُ بِهَا إلاّ الله عز وجل ، والبَشَرُ (متّصف) ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النّقص..، وفَهِمَت العرب بخلوص فهمها في ميز الكلام ودُرْبتها فيه ، ما لانفهمه نحن ، ولا كلٌّ من خالطته حضارة ، ففهمُوا العَجْزَ عن ضرورةٍ ومشاهدةٍ ، وعَلِمَهُ النّاسُ بعدهم استدلالاً ونظراً ، ولكلٍّ حَصَلَ عِلمٌ قطعيٌّ، لكن ليس في مرتبة واحدةٍ ...

وكذلك التحدِّي بالعشر السور ، والتحدِّي بالسورة إنّما وقع كلُّه على حدٍ واحدٍ في النّظم خاصة " انتهى .

(1) قال تعالى: ﴿إنّا نَحْنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنا لَهُ لحافِظون﴾ [الحجر: ٩] .وارجع إلى ما كتبه العلاّمة المفسِّر الشيخ عبدالله سراج الدين –حفظه الله تعالى– حول كفالة ربِّ العزة بحفظ القرآن في جميع تَنَزُّلاته ومن جميع جوانبه وَحَيْثياته في كتابه :" هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان " ص ١٤٣-٢٣٢.

س٢١- ما القَوْلُ في الكُتُبِ السَّمَاوِيَّة غير القرآن؟

التوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ وغيرُها من الصُّحُفِ الإلهيَّةِ كلُّها كلامُ الله مثل القرآن ، إلاَّ الكلمات التي حرَّفوها [1] .

وحيث كان حَصْرُها مجهولاً ، فنقولُ في تلك الكتبِ إجمالاً: آمَنَّا بما جاءَ من عند الله[2] .

(1) أي : غيّروها ، وَعَدَلُوا بِهَا عن جهتها . قال العلاّمة محمود أبو دقيقة في "مذكرات التوحيد"٣:٥٥: "التحريف : التغيير . ويَنْدرج تحت هذا المفهوم نوعان : التحريف اللفظي ، والتحريف المعنوي ، والتحريف اللفظي يندرج تحته أمور ثلاثة : الأول : تبديل لفظ بلفظ ، أو جملة بجملة ، يكون بينهما مغايرة في المعنى . الثاني : زيادة كلمة أو جملة توجب تغيير المعنى . الثالث: نقص كلمة أو جملة بحيث يكون نقصها مغيِّراً للمعنى .

أما التحريفُ المعنويُّ : فهو حملُ الكلام على غير معناه في لِسَانِ أهله ، كحَمْلِ النصارى لفظ (الفارقليط) الَّذِي معناه في لغة الإنجيل : (أحمد) على روح القدس توصُّلاً لإنكار بشارة الإنجيل بنبينا محمد ﷺ " انتهى.

وانظر كلام ابن القيم في التحريف الواقع في التوراة في " إغاثة اللهفان" ٢:٣٥١-٣٦٧ .

(2) قال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء" ٢:٤١٩ :" ونحن نعظِّم التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، ونؤمن بِهَا ، فأمَّا هذه الصحف =

والشَّرْعُ المحمَّديُّ مُصَدِّقٌ للشَّرائعِ قَبْلَه ، ورافعٌ لحكمِهَا بأَمْرِ اللهِ[1].

= التي بأيدي هؤلاء الضُّلاَّل ، فما ندري ماهي أصلاً ونقف ، فلا نعاملها بتعظيم ولا بإهانة ، بل نقول: آمنّا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ويكفينا في ذَلِكَ الإيمان المُجْمَل ، ولله الحمد " وقال أيضاً ٣:٨٦ :" ولا يشرع لأحد بعد نزول القرآن أن يقرأ التوراة ولا أن يحفظها ، لكونها مبدَّلة مُحرَّفة منسوخة العمل ، قد اختلط فيها الحقُّ بالباطل ، فَلْتُجْتَنَب ، فأمَّا النظر فيها للاعتبار وللردِّ على اليهود ، فلا بأسَ بذلك للرجل العالم قليلاً ، والإعراض أولى" . وقال أيضاً ٣:٤٩٣ -٤٩٤ :" فمن الَّذِي يستحلُّ أن يوردَ اليوم شيئاً من التوراة على وجْه الاحتجاج مُعتقداً أنَّها التوراة ؟ كلاَّ والله " انتهى .

(١) قَالَ تَعَالَى: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتابِ وَمُهَيمِناً عليه﴾** [المائدة: ٤٨] أي : رقيباً ومُؤْتمناً وشاهداً على الكتبِ السَّمَاويةِ السَّابقة ، حيث يشهدُ لها بالصِّدقِ فيما لم يغيِّر فيه أهلُ الكتابِ ويبدِّلوا ، ويقرِّرُ أصول شرائعها ، ويرفع حكمَ ما لم يشرِّع مؤبَّداً من فروعها.

والله تعالى حكيمٌ خبيرٌ يعلمُ ما للأُمَمِ والعصور من خَصائص وطبائع ، وما يناسب كُلَّ أمَّةٍ من أحكامٍ وشرائعَ ، فأنزلَ شرائعَ شتَّى ، تتَّفِقُ جميعها في الأصول ، ويختلف بعضُ أحكامِها في الفروع باختلافِ الأمم والعصور ، وقد خَتَمَ الله سُبْحَانَهُ شرائعه بشريعةٍ عامَّةٍ كاملةٍ كفيلةٍ بمصالحِ الناسِ إلى =

فلا شريعةَ بعد بعثتِهِ إلاَّ شريعته[1] ،

= يومِ الدين ، فأنزلَ بِهَا القرآن وميَّزَهُ عن سائرِ الكتب السَّماوية ، وبَعَثَ خاتَمَ رسلِهِ وأفضَلَ خلقِهِ ، وأَمَرَهُ ببيانه للنَّاس ، وليس لأحدٍ بعد بعثته ﷺ إيمانٌ مقبولٌ إلاَّ بالإيمانِ به ﷺ . وفي الحديث :" **والَّذي نفسي بيدِهِ لايسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمّة -يهوديٌّ أو نصرانيٌّ-ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلاَّ كان من أصحاب النار** "رواه مسلم ١:١٣٤ (١٥٣) في الإيمان .

(١) لأنَّ شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع ، التي أتمَّها اللهُ ورضيَها : **﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُم الإِسْلاَمَ دِيْنَاً﴾** [المائدة :٣]، وهي ناسخةٌ للرسالات السابقة ، مع الإيمان بأصولها المنزلة، لا بما لَعِبَتْ به يدُ التحريف والتغيير . أخرج الإمام أحمد في "المسند" ٣:٤٧١ :"جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يارسول الله ، إنِّي مَرَرْتُ بأخٍ لي من بني قُريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ . قال عبدالله – يعني ابن ثابت– : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولاً . قال فَسُرِّيَ عن النَّبي ﷺ وقال : " **والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدهِ لو أصبح فيكم موسى ، ثمَّ اتَّبعتموه وتركتموني لَضَلَلْتُم ، إنَّكم حَظِّي من الأمم وأنا حَظُّكم منَ النَّبيِّين**" . وعندما ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان بين يدي السَّاعة ينزل حاكماً بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ .

وهي أجْمَعُ الشَّرائع وأيْسَرُها[1] ، ولا يلزم أن نعـرفَ حكمـةَ جميعِ الأحكام الشرعيَّة ، وإنْ كان أكثرُها واضحَ الحكمة[2] .

---

(١) قال العلاَّمة الشيخ محمد سعيد الباني (ت ١٣٥١) في " الكوكـب الـدُّرّي المنير" ص١٤ :" من بَدَائِهِ عقائد المسلمين أنَّ شريعتنا الإسلامية الغرَّاء خاتمة الشرائع المنزلة ؛ لأنَّ صاحبها خاتمُ النَّبيين ، ورسالته عامَّة إلى جميع المخلوقين . والخَتمُ والعُمُوم يَقْتضيان يُسْر الشَّريعة واتّساعها وشمولها ومرونتها ، فبِيُسْرِها رَغِبَ النَّاس الدخول في دين الله أفواجاً بسرعةٍ لَم يُعْهَد لها نظير في تاريخ الأديان السَّالفة ، وبِسَعَتِها وَسِعَت أربابَ الرُّخص والعزائم ، وبشمولها شملت جميع طبقات البشر ، وبمرونتها صلحت لِكُلِّ عَصْرٍ وقطر " انتهى .

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان قدر الشريعة وحكمتها وذكر أهمِّ خصائصها في " إعلام الموقعين " ٣:٢١٧-٢١٩ :" أنزل الله تعالى هذه الشريعة على قلب النبيِّ ﷺ ، وفرض الفرض ، وحرَّم المحارم ، وأوجب الحقوق ، رعياً لمصالح العباد في المعاش والمعاد ، وجعل شريعته الكاملة قياماً للناس ، وغذاءً لحفظ حياتهم ، ودواءً لدفع أدوائهم ، وظلَّه الظليل الَّذي من استظلَّ به أَمِنَ من الحَرور ، وَحِصْنَه الحصين الَّذي مَنْ دخله نجا من الشُّرور ...

هي عَدْلٌ كُلُّهَا ، ورحمةٌ كُلُّهَا ، ومصالح كُلُّهَا ، وحكمةٌ كُلُّهَا ، قواعدها ومبانيها . فهي صراطُ الله المستقيم الَّذي لا أَمْتَ فيه ولا عِوَج ، وملّته الحنيفيَّة السَّمْحة التي لا ضِيقَ فيها ولا حَرَج ، لم تأمر بشيء فيقول =

س٢٢- هل للحديثِ النَّبويِّ حكمُ القرآن في الطَّاعة والإيمان؟

نعم لا فرقَ بينهما في ذلك[1] ، والحديثُ الصحيحُ محفوظٌ عند أهلِهِ بالحرفِ والحركةِ .

= العقل: لو نَهَتْ عنه لكان أوفق ، ولم تنه عن شيء فيقول الحِجَى : لو أباحته لكان أرفق ، بل أمرت بكلِّ صلاحٍ ، ونهتْ عن كلِّ فساد ، وأباحت كل طيِّب، وحرَّمَتْ كلَّ خبيث ، فأوامرها غذاءٌ ودواءٌ ، ونواهيها حِمْيَةٌ وصيانة ، ظاهرها زينةٌ لباطنها ، وباطنُها أجمل من ظاهرها، شعارها الصِّدق ، وقوامها الحق ، وميزانُها العَدْل ، وحكمُهَا الفَصْل ، كلُّ خير في الوجود فإنَّما هو مُستفادٌ منها ، وحاصلٌ بها ، وكلُّ نقص في الوجود فَسَبَبُهُ من إضاعتها . هذه الشريعة الكاملة التي لم يَطْرُق العالَمُ ، ولا يَطْرُقه، شريعةٌ أكمل منها : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيْهِم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون** ﴾ [العنكبوت : ٥١] انتهى .

(١) قال الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال سُبْحَانَهُ : ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾ [النساء: ٨٠]، وقال جلَّ شأنه: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [سورة الحشر: ٧] .

وروى الدارمي ١: ١١٧ ، والترمذي (٢٦٦٤) ، وابن ماجه (١٢) عن المقدام بن مَعْدِي كَرب ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "**ألا هَلْ عَسَى رجلٌ يبلغهُ الحديث عنّي ، وهو متّكِئٌ على أريكته ، فيقول: بيننا** =

لا يُزادُ فيه ولا يُنْقَص(١) .

= وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حَلالاً استَحْلَلْناه ، وَمَا وَجَدْنا فيه حَراماً حرَّمْناهُ ، وإنَّ ما حَرَّمَ رسولُ الله كَمَا حَرَّمَ الله" ، وفي لفظ أبي داود (٤٦٠٤) :"ألا وإني أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه مَعَه" ، والمراد بالكتاب: القرآن ، وبالمثل: السنّة ، ومثليَّتُها له في أنه يجب العمل بها كما أنه يجب العمل به ، ولقوله ﷺ : "وإنَّ ما حرَّمَ رسول الله كما حرَّمَ الله".

فالكتابُ والسنة تَوْأَمَان لا ينفكّان ، ولا يَتِمُّ التشريعُ إلاّ بهما جميعاً ، والسُّنَّةُ مبيِّنةٌ للكتاب: تفصِّلُ مُجْمَلَهُ ، أو توضِّح مُشكِلَهُ ، أو تقيِّدُ مُطْلَقَهُ ، أو تُخَصِّصُ عامَّه ، وتُتَمِّمُ أحكامه.

(١) لأنَّ السنَّةَ بيانٌ للقرآن الكريم ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وأنزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ مَا نُزِّلَ إليْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ، وإنَّ من حفظ الله سُبْحَانَهُ لكتابه: حفظَ سنَّةِ نبيِّه ﷺ، المبيِّنةِ للكتابِ والمفسِّرَةِ له ، إذ لا يتمُّ فهمُنا وعملُنا به إلاّ بالرجوعِ إلى هذا البيان ، وإلى هذا المعنى الواضح قال عبدالله بن المبارك لمن سأله: "هذه الأحاديث المصنوعة؟! قال: تعيش لها الجهابذة ﴿إنّا نَحْنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظون﴾ [الحجر: ٩] أي: إنَّ الله يقيِّض لها جَهَابذةً نَقَدَةً ، يكشفون عن زيفها ودخيلها ؛ لأنَّ ذَلِكَ مِن تَمامِ حفظِ الله لكتابه العظيم.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٥:٢١٧١ عن حال أهل الكتاب وما لحق كتبَهم من تبديلٍ وزيادةٍ ونقصان :" وليس لهم من الحفّاظ المتقنين الّذينَ ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المُبْطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة =

س٢٣- مَا هَذَا الاختلافُ بين أئمةِ المذاهب وَشَريعتُهُم واحدة؟

اختلافُهم لا يَقْدَحُ في الشَّريعة(١)

= العلماء ، والسادة الأتقياء ، البررة النجباء ، من الجهابذة النقّاد ، والحفّاظ الجياد ، الّذِينَ دوَّنوا الحديث وحرَّروه ، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنه، من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ، ومتروكِهِ ومكذوبِهِ ، وعرفوا الوضّاعين والكذّابين والمجهولين ، وغير ذَلِكَ من أصناف الرجال ، كلُّ ذَلِكَ صيانةٌ للجَنَاب النبويِّ والمقام المحمديِّ ، خاتمِ الرُّسل ، وسيِّد البشر -عليه أفضل التحيّات والصّلوات والتسليمات- أنْ يُنْسب إليه كذب ، أو يحدَّث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعلَ الفردوسَ مأْواهم، وقد فعل" انتهى .

(١) بل هو من مزايا هذه الشريعة الغرّاء ، قال الإمام السيوطي في "جزيل المواهب في اختلاف المذاهب" ص ٢٢-٢٣ : "إنَّ اختلاف المذاهب في هذه الملة خصيصةٌ فاضلةٌ لهذه الأمَّة ، وتوسيع في هذه الشريعةِ السمحةِ السهلة ، فكانت الأنبياء قبل النبيِّ ﷺ يُبعث أحدهم بشرعٍ واحدٍ وحكمٍ واحد ، حتّى إنَّ من ضيقِ شريعتهم لم يكن فيها تخيير في كثيرٍ من الفروع الّتي شُرِعَ فيها التخيير في شريعتنا ، ومن ضيقها أيضاً: لم يجتمع فيها الناسخ والمنسوخ ، كما وقع في شريعتنا ، ومن ضِيقِها أيضاً: أنَّ كتابهم لم يكن يُقرأ إلاّ على حرفٍ واحد ، وهذه الشريعة سمحةٌ سهلةٌ لا حرجَ فيها". وقال أيضاً وهو يعدِّد وجوه اليُسْر والسهولة في هذه الشريعة ص ٢٤: "ومن ذلك: مشروعية الاختلاف بينهم في الفروع ، فكانت المذاهب =

ولا فيهم[1] ، ولا إشكالَ فيه لمن تَبَصَّر [2] ،

= على اختلافها كشرائع متعدِّدَة ، كلٌّ مأمورٌ بهِ في هـذه الشريعة ، فَصَارت هذه الشريعة كأنّها عِدَّةُ شرائع بُعِثَ النبيُّ ﷺ بجميعها ، وفي ذَلِكَ توسِعَة زائدةٌ لها ، وفخامةٌ عظيمةٌ لقدْرِ النبيِّ ﷺ ، وخصوصيَّةٌ له على سائرِ الأنبياء"انتهى.

(١) لأنَّ اختلافهم سائغٌ لطبيعةِ النصوص التكليفيَّة ، وطبيعة العربية الَّتِي جاءت بها هذه النصوص ، ولطبيعةِ عقول المكلَّفِين واختلافِ أفهامهم.

(٢) قال الإمام أبوبكر ابن العربي في " أحكامه الصغرى " ١٥٣:١ عند قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعَاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ..﴾ : ﴿ ولا تفرَّقوا﴾ يعني في العقائد ، وقيل : لاتحاسدوا ..وقيل : المراد التخطئة في الفروع ، أي لا يخطِّئ أحدكم صاحبه ، وليمْضِ كلٌّ واحد على اجتهاده ، فإنَّ الكلَّ معتصمٌ بحبل الله ، وعاملٌ بدليله . والتفرُّق المنهيُّ عنه هو ما أدَّى إلى الفتنة والتشتيت ؛ وأما الاختلاف في الفروع فهو من محاسن الشريعة " .

وقال القرطبي ١٥٩:٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولاتَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣] : " وليس فيه دليلٌ على تحريم الاختلاف في الفروع ، فإنَّ ذَلِكَ ليس اختلافاً ، إذ الاختلاف مايتعذّر معه الائتلاف والجمع ، فأمَّا حكم مسائل الاجتهاد ؛ فإنَّ الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ، ودقائق معاني الشرع ، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع ذَلِكَ متآلفون ". =

= وقال ابن القيم في " الصَّواعق المرسلة " في انقسام الاختلاف إلى محمود ومذموم ، وقوله في الاختلاف المحمود ٥١٦:٢ :" وأهل هذا المَسْلَك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمةٍ وهدىً يُقِرُّ بعضهم بعضاً عليه ، ويواليه ويناصره ، وهو داخل في باب التعاون والتناصر الَّذِي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم ...وهذا النوع من الاختلاف لايوجب معاداةً ولا افتراقاً في الكلمة ولا تبديداً للشَّمْل ، فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع ، كالجدِّ مع الأخوة ، وعتق أم الولد بموت سيِّدها ، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ...وفي بعض مسائل الربا ، وفي بعض نواقض الوضوء ، وموجبات الغسل ، وبعض مسائل الفرائض وغيرها . فلم يَنصُب بعضهم لبعضٍ عداوة ، ولا قطع بينه وبينهم عِصمةً ، بل كانوا كل واحدٍ منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثمَّ يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبَّة والمصافاة والموالاة من غير أن يُضمر بعضهم لبعض ضِغْناً ، ولا ينطوي له على مَعْتَبة ولا ذمّ ، بل يدلُّ المستفتيَ عليه مع مخالفته له ، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه .

فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر ، وكلٌّ منهم مطيعٌ لله ، بحسب نيته واجتهاده وتحرِّيه الحق .

وهنا نوع آخر من الاختلاف وهو وفاق في الحقيقة ، وهو اختلاف في الاختيار والأوْلى ، بعد الاتفاق على جواز الجميع ، كالاختلاف في أنواع الأذان والإقامة ، وصفات التشهُّد والاستفتاح ، وأنواع النُسك الَّذِي =

وذلك أنَّ النَّصَّ النبويَّ الَّذِي بلغَ جميعهم لا يختلفون فيه[1]

= يُحْرِم به قاصد الحج والعمرة ، وأنواع صلاة الخوف ، والأفضل من القنوت أو تركه، ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها ، ونحو ذَلِكَ ، فهذا وإن كان صورته اختلافاً فهو اتفاق في الحقيقة " .

ثمَّ قال ٢:٥١٩ :" ووقوع الاختلاف بين الناس أمرٌ ضروري لابدَّ منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم ، ولكنَّ المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه ، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجهٍ لا يؤدِّي إلى التباين والتحزُّب ، وكلٌّ من المختلفين قَصْدُهُ طاعة الله ورسوله لم يضر ذَلِكَ الاختلاف ؛ فإنَّه أمرٌ لابدَّ منه في النشأة الإنسانية ، ولكن إذا كان الأصل واحداً ، والغاية المطلوبة واحدة ، والطريق المسلوكة واحدة ، لم يكد يقع اختلاف ، وإن وقع كان اختلافاً لا يضر كما تقدَّم من اختلاف الصحابة ، فإنَّ الأصل الَّذِي بنوا عليه واحدٌ ، وهو : كتاب الله وسنة رسوله، والقَصْد واحدٌ ، وهو : طاعة الله ورسوله ، والطريق واحدٌ ، وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كلِّ قول ورأي وقياس وذَوْق وسياسة " انتهى .

(١) وإنما يختلفون بعد صلاحيَّة الحديث الشريف للعمل بِهِ -بتوفُّر شروط الصحةِ في سنده ، وإثباتِ لفظهِ النبويِّ الشريف ، وإثباتِ ضَبْطِهِ من حيث العربية: - يختلفون في فهم الحديث النبوي لاختلاف الناظرين في مداركهم=

إذ كلُّهم يتحرَّى السُّنَّةَ[1] ، وما لا نصَّ فيه يجتهدونَ في حكمه ، فتارةً يختلفون ، والحقُّ لا يتعدَّد [2] ،

= ومواهبهم العقليَّة ، أو كون الحديث الشريف يحتمل أكثر من معنى واحد ، وكذلك تختلف مسالكُهم أمامَ المتعارِض من السُّنَّة ظاهراً.

(١) قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: "إيَّاكُمْ والقَوْلَ في دينِ الله تعالى بالرأي ، وعليكم باتِّبَاع السُّنَّة ، فمن خَرَجَ عنها ضَلَّ" .
وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: "السنن سفينةُ نوح: من ركبها نجا ، ومن تخلَّفَ عنها غرق".
وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: "أيُّ أرضٍ تقِلُّني إذا رويتُ عن النبيِّ ﷺ حديثاً وقلتُ بغيره؟" .
وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "مَن ردَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شَفا هَلَكَة" (أثر الحديث الشريف للشيخ محمد عوامة ، ص٢٤-٢٥) .

(٢) وهو مذهب أهل السنة الَّذِينَ يرون أنَّ الحقَّ واحد ، وأنَّ لله حكماً معيَّناً في أيِّ مسألة اجتهادية ؛ وعليه فإنَّ المجتهد يخطئ ويصيب ، ولهذا سُمُّوا بالمخطِّئة .

ويرى بعض العلماء أنَّ الحق في المسائل الاجتهادية لا الاعتقادية متعدِّدٌ ، وأنَّه لاحكم لله في المسألة قبل اجتهاد المجتهد ، بل الحكم ما أدَّى إليه اجتهاد المجتهد ، فلهذا قالوا : إنَّ كلَّ مجتهد مصيب ، ولهذا سمُّوا بالمصوِّبة ، وهم المعتزلة . =

= ومن أهم أدلة أهل السنة ، قوله سبحانه : ﴿ فَفَهَّمنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتيْنَا حُكْمَاً وَعِلْمَاً ﴾ [الأنبياء : ٧٩] فكلا النبيين عالم ، لكن خصَّ سليمان بإصابة الحكم ؛ ولو كان كلٌّ منهما مصيباً ، لما كان لتخصيص سليمان بفهم الحُكْم دون أبيه معنىً أو مناسبة ، واستدلوا بالأحاديث الدالة على تردُّد الاجتهاد بين الصواب والخطأ .

وأنَّ الصحابة اجتهدوا واختلفوا في الاجتهاد ، فكان الصدِّيق يقول في الكلالة : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمنِّي ومن الشيطان ، ويقول عمر : إنَّ عمر لايدري أنَّه أصاب الحق ، لكنه لم يأل جهداً . (وانظر : تفصيل هذا الموضوع فيما كتبه العلاَّمة الأصولي الفقيه الدكتور محمد فوزي فيض الله- حفظه الله - في كتابه "الاجتهاد في الشريعة الإسلامية" ص ٩٥-٩٨) .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في " جامع العلوم " ١:٢٠٢-٢٠٣ عند شرحه لحديث "**إنَّ الحلالَ بيِّنٌ ، وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهات، لايعلمُهُنَّ كثيرٌ من النَّاس** .." :" فالأمور المشتبهة التي لا يتبيَّن أنَّها حلال ولا حرام لكثير من النَّاس ..فدخل فيمن لا يعلمها نوعان : **أحدهما** : من يتوقَّف فيها لاشتباهه عليه . **والثاني** : من يعتقدها على غير ماهيَ عليه ، ودلَّ كلامه على أنَّ غير هؤلاء من يعلمها ، ومراده أنه يعلمها على ماهي عليه في نفس الأمر من تحليل أو تحريم ، وهذا من أظهر الأدلة على أنَّ المصيب عند الله في مسائل الحلال والحرام المُشْتَبِهة المختلَفِ =

وإنَّما يفوزُ بِهِ أَحدُهم ؛ فَمَنْ أَصَابَ فلَهُ أجْران ، ومَنْ أخطأ فلَهُ أجر(١) .

= فيها واحدٌ عند الله عزَّ وجل ، وغيره ليس بعالم بِهَا ، بمعنى أنَّه غير مصيب لحكم الله فيها في نفس الأمر ، وإن كان يعتقد فيها اعتقاداً يستند فيه إلى شبهة يظنُّها دليلاً، ويكون مأجوراً على اجتهاده ، ومغفوراً له خطؤه لعدم اعتماده " .

وقال الحافظ ابن رجب أيضاً في " فتح الباري " ٨:٤١٠ عند شرحه لحديث " **لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلاَّ في بني قريظة** " :" ولا دلالة في ذَلِكَ على أنَّ كل مجتهدٍ مصيب ؛ بل فيه دلالة على أنَّ المجتهد سواءٌ أصاب أو أخطأ فإنه غير ملوم على اجتهاده ؛ بل إنْ أصاب كان له أجران ، وإن أخطأ فخطؤه موضوع عنه ، وله أجر على اجتهاده " انتهى .

(١) روى البخاري (٧٣٥٣) ومسلمٌ (١٧١٦) وأبو داود (٣٥٧٤) عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: "**إذا حَكَمَ الحاكم فاجْتَهدَ ثُمَّ أصَابَ: فله أجران ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهد ثُمَّ أخطأ: فله أجر**" .

قال القرطبي في تفسيره ١١:٣١٠ :" بدأ بالحكم قبل الاجتهاد ، والأمر بالعكس ، فإنَّ الاجتهاد مقدَّمٌ على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . وإنَّما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ فَاسْتَعِذْ ﴾ [النحل :٩٨] " انتهى . =

وحيثُ لا نصَّ فكلٌّ على اجتهاده لخَفَاءِ المحِقِّ من المخطئ ، فإنْ ثَبَتَ نصٌّ معاضِدٌ لأحدهم فالحقُّ يتعيَّنُ له .

ولا يجوزُ لمسلمٍ التعصُّبُ لقولِ أحدٍ تبيَّنَ خَطَؤُهُ في ذلك القول ، ولكن يُحمل قائِلُهُ الأوَّل على عدم بلاغ الخبر له بوجهه[1] ، تنزيهاً لمقامهم عن تعمُّدِ المخالفة ، وهَذَا هو العَدْلُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ ورسولُه وسائرُ الأئمةِ في هذه المسألة .

= قال الخطّابي في "معالم السنن" ٤ : ٦ : "إنّما يُؤْجَر المخطئ على اجتهاده في طلبِ الحق ؛ لأن اجتهاده عبادة... ، وهذا فيمن كَانَ من المجتهدين جامعاً لآلةِ الاجتهاد ، عارفاً بالأصول وبوجوه القياس ، فأمَّا من لم يكن محلاً للاجتهاد فهو متكلّفٌ ، ولا يُعذَر بالخطأ في الحكم ، بل يُخافُ عليه أعظمَ الوزر".

وأما قوله ﷺ :" **وإذا حَكَم فاجْتَهد فأخطأ** " فقد قال السيوطي في "جزيل المواهب " ص٣٠ :" يحمل قوله : " **فأخطأ** " على عدم إدراكه للأفضل والأَوْلى ، كما عَتَب على الصحابة في اختيارِ الفداء ؛ لأَنَّهُ غير الأفضل مع أنّه حكمٌ صواب".

(١) وهو أَحَدُ الأسباب في اختلافِ الأئمةِ رضي الله عنهم ، وقد أَجْمَلَها الشيخ ابن تيمية في ثلاثة أسبابٍ ، فقال في رسالته: "رفع الملام عن الأئمةِ الأعلام" ص ١٠ : "إذا وجد لواحدٍ منهم قولٌ جاء حديثٌ صحيح بخلافه ، فلابدَّ له من عذرٍ في تركه ، وجميعُ الأعذار ثلاثة أصناف: **أحدها**: عدم اعتقاده أَنَّ النبيَّ ﷺ قاله ، **والثاني**: عدم اعتقاده إرادةَ تلك المسألة بذلك القول ، =

س٢٤- هل يجوزُ تفسيرُ القرآن بمقْتَضَى القواعدِ التي انتهى إليها تفنُّنُ أهلِ العَصْرِ ولو خَالفتِ النصَّ الصَّريح؟

تفسيرُهُ بما يخالف الثابت من علم الكتاب والسُّنَّةِ حرام[1] ،

= **والثالث**: اعتقاده أنَّ ذَلِكَ الحكم منسوخ" ثُمَّ فصل هذه الأسباب إلى عشرة فذكر في السبب الأول منها: "أن لا يكون الحديث قد بلغه.. وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوالِ السلف مخالفاً لبعض الأحاديث ، فَإنَّ الإحاطة بحديثِ رسولِ الله ﷺ لم تكن لأحد.. فمن اعتقد أَنَّ كلَّ حديثٍ صحيحٍ قد بلغ كل واحدٍ من الأئمة أو إماماً معيَّناً فهو مخطئٌ خطأً فاحشاً" . وتُنْظر بقية الأسباب في رسالته القيِّمة ، وفيما فصَّله الأستاذ المحقّق الشيخ محمد عوَّامة -حفظه الله تعالى- في كتابه القيِّم : "أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمةِ الفقهاء ".

(١) يقول مؤلّف هذه الرسالة العلامة محمد المكي بن عزُّوز في رسالته " الأجوبة المكِّيَّة عن الأسئلة الحجازيَّة " التي أجاب بِهَا العلامة عبدالحفيظ القاري من الطائف ، تحت عنوان :مبحث تفسير القرآن بمقتضى الأفكار الجديدة :

أما الَّذِينَ يُفَسِّرون كلامَهُ   سبحانه بالحَدْسِ والآراء
وُلِعوا بفلسفةٍ رَأَوْهَا حُجَّةً   معصُومةً من زلّةٍ وخَطَاء
تفسيرُهُم طيراً أبابيلاً بمِكْـ   ـروبٍ تعدٌّ جالبُ الأسْواء
أيُّ اضْطرار موجب لعدولنا   عن ظاهرٍ بمحجَّةٍ بيضاء
والشَّرطُ في التأويل ردُّ العقل ما   في ظاهرٍ بالقطعِ قطع مضاء
للعقل أيضاً منتهى من جازَهُ   في الحال يُصْمَ بفتنةٍ عمياء =

وربما يجـرُّ إلى الكُفـر[1] ، فحكـمُ القـرآن وحكمتـهُ وتعريفُـهُ للحقـائق بـالمعنى العربـي والمنهـاجِ المحمـدِيِّ مستَمرٌّ إلى يـوم

= جزموا بظنيَّاتهم شَغَفاً بِهَا والظنُّ غير الحقِّ في الأشياء
مسَّت عقائدَ في الصريح ورودها قالوا اقْتَضَتْهُ قواعدُ الحكماء

وسيشير المؤلف -رحمه الله - إلى نماذجَ من هذا التفسير المنحرف الَّذِي يجرُّ إلى الكفر ، كالقول بأنَّ أصل البشر النشوء والارتقاء ، إنكاراً لكون البشر من بني آدم، وإنكار معجزات الأنبياء التي يخرق الله عز وجل بهَا السنن الكونية والقوانين الطبيعية ، التي من كذب بِهَا كفر -والعياذ بالله-.

(١) وذلك باتِّبَاعِ المتشابهاتِ والإعراض عن البيِّنات المحكَمات ، وسوء التأويل ، كتأويلات الباطِنية والزنادِقة ، وبعض غُلاةِ الرافضة ، وتأويلات الطوائف المنحرفة والمارقة في عصرنا كتأويلات القاديانية والبهائية ، وتأويلات العلمانيين المتعالِمين الجاهِلين. وانظر نماذج لهذه التفاسير المعاصرة المنحرفة فيما كتبه العلامة الشيخ محمد الخضر الحسين في "رسائل الإصلاح" : كتابٌ يلحدُ في آيات الله ٢: ٢١٥-٢٢٤ ، وكتابٌ يهذي في تأويل القرآن ٢: ٢٢٥-٢٤٣ في الرد على صاحب " الهداية والعرفان " الَّذِي حرَّف آيات المعجزات والملائكة ، وأنكر الجنَّ والشياطين ، وردَّ أحكاماً معلومة من الدين بالضرورة . وانظر مثالاً معاصراً لهؤلاء أيضاً فيما كتبه العلاّمة المفسِّر الشيخ عبدالرحمن حبنّكة الميداني في كتابه : " التحريف المعاصر في الدين " في الرد على كتاب " الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة " .

القيامة ، ومَن زَعَمَ اختصاصَ تلك المعاني والتعريفات بإقليم أو زمانٍ دونَ غيره فهو ضالٌّ مضِلٌّ ، حيثُ نَسَبَ للنبيِّ ﷺ ما هو مُنزَّهٌ عنه من تصويرٍ غيرِ الواقع ، إمَّا قَصْداً أو جَهْلاً بالحقائق ، وَحَاشَاه ﷺ من الأمرَين ، وقد صَدَّقَهُ الله في جميع مقالاته ، أَيَخْفى على الله شيءٌ؟

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾[1]؟

---

(١) من سورة الملك ، الآية: ١٤. وهذه الآية برهان وحجة على من ينكر إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء ، وجميع شؤون عباده ؛ وذلك لأنَّهُ سبحانه هو الَّذِي خلق العباد ، وأعمالهم وأقوالهم ، وجميع شؤونهم ، وهو الَّذِي خلق كل شيء . وهذه الآية كذلك حجة قاطعة على أنَّ شريعة الله تعالى هي الكافلة لجميع مصالح العباد وسعادتهم ؛ لأنَّ الله سبحانه الَّذِي خلقهم هو أعلم بما فيه صلاحهم ونفعهم وكلُّ خيرٍ لهم . ولذلك بيَّن سبحانه أنَّ التشريع المشتمل على التحليل والتحريم ، والأمر والنهي هو لله تعالى وحده ، لأَنَّهُ هو الخالق وحده . قال تعالى : ﴿ **أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِين** ﴾ [الأعراف :٥٤] .

و ﴿ **اللطيف** ﴾ : هو الرفيق بعباده ، المحسن إليهم ، المنعم عليهم ، و﴿**الخبير** ﴾ أي : العليم بحقائق الأمور وخفاياها ودقائقها على وجه الإحاطة . (حول تفسير سورة الملك ، ص ١٤٦) .

وقال له ربُّه: **﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾**(١).

وقد تقدَّمَ أَنَّ كلَّ ما خَالفَ الدينَ من كلام المُتَفَلْسِفةِ مَظْنونٌ لهم ، وذلك باعترافهم (٢) ، وإنَّمَا تمسَّكوا بـهِ لعـدم المعـارِض

(١) من سورة النحل ، الآية: ٤٤. فالسنة مبيِّنةٌ للقرآن ، وإليها الرجوع في بيان الكتاب ، فإنَّ الله تعالى هو الَّذِي بيَّنه لرسوله ﷺ ، ثمَّ أمره أن يبيِّنه للنَّاس ، قال تعالى : **﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرْآنه ۝ فَإذَا قَرَأنَاه فَاتَّبِع قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾** [القيامة : ١٧-١٩] . فلا يجوز فَصْل الكتاب عن السنَّة؛ لأنَّها بيانه ، ولولا هذا البيان النبوي ما فُهِمَ المراد من القرآن : لا أحكامه ، ولا أوامره ، ولا معانيه ، ولا عُلم عدد الصلوات ، ولا كيفيَّاتها، ولا أوقاتها ، ولا عُلم مقاديرُ الزكاة وما تجبُ فيه ، ولا عُلم المراد من الصيام ، وما يجب الإمساك عنه ، ولا عُلمت أحكام الحج ..فلا يمكن فصل القرآن عن بيانه ، وهذا القرآن وبيانه كلاهما من عند الله . قال تعالى : **﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾** [النساء :١١٣] . والحكمة : هي السنة ، فإنَّها أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ بالوحي ، وكثيراً ما يأتي في القرآن ذكر السنة - التي هي الحكمة - مقرونة بالكتاب .

فكلُّ ما بيَّنه الرسول ﷺ من عقائد القرآن وبراهينه وأحكامه وآدابه هو الحق ، ولا يختصُّ بيانه ﷺ بزمانٍ دون زمان ، أو مكانٍ دون مكان .

(٢) انظر كتاب "قصور العلم البشريّ "للأستاذ قيس القرطَاس " المتوفى سنة ١٣٩٢ رحمه الله تعالى ، وفيه استعراضٌ لآراء روَّاد العلم الحديث في =

عندهم ؛ إذ الدِّينُ عندهم أدنى من درجة الظَّنِّيَّاتِ ، أَفَنَقْتَدِي بهم وبيننا الفارق الأكبر؟!

ثُمَّ المُشَاهَدُ ازْدياد التوسُّع في التَّفَنُّنَاتِ الطبيعية ، وانتقالُ الأفكار من حيِّزٍ إلى حيِّزٍ بلا قَرار (١) ،

= آفاق العلم المُكْتسب وحدوده ، من إصدارات دار الفيصل الثقافية ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

(١) وأحبُّ أن أنبه بهذه المناسبة إلى شرطين مهمّين من شروطِ التفسيرِ العِلْمِيِّ للقرآنِ الكريم ، يتّصلان بكلام المؤلف - رحمه الله تعالى - وهو : ألاَّ يحمل التفسير العلميّ اتّهاماً للأمَّةِ كُلّهَا طوالَ تاريخِها كله -وفيها خيرُ القرون من الصحابةِ والتابعين والأئمَّةِ الكِبار في كُلِّ فنٍّ- بأنها لم تفهم القرآن ، إلى أن جاءَ هذا العالم في زمانِنا ، فاختصَّ بفهم تلك الحقائق والمعاني ، وعلّمَها ما كانت تجهل من كتابِ ربِّها ، وذلك انتقاصٌ للسَّلفِ وإزْراءٌ بعُلومِهِم.

ومُقْتَضَى هذا الكلام: أَنَّ الله سُبْحَانَهُ أنزلَ على الناسِ كتاباً لم يفهموه ، ولم يعرفوا مُرادَ منزِّلِهِ منه ، مع أنه تعالى وَصَفَهُ بأنه :**﴿كِتَابٌ مُبِين﴾** ، وأنه:**﴿هُدىً لِلْناس﴾** ، وأنه: **﴿نور﴾** .

فلا يجوزُ أن يكونَ الفهمُ الجديدُ للآية مُبْطِلاً للأفهامِ السابقة ، وَأَنَّ المعنى الوحيد الصحيح هو ما فَهمه المفسِّر الجديد؟ فكيف إذا كان فهمه يخالفُ النصَّ الصريح؟!.نعم يُقبل من التفسير ما كان فيه إضافة جديدة ، =

= وتعميقٌ لمدْلول النَّصّ ، تضمُّ إلى ما سَبَقَ ولا تُبْطِلُه كُلّياً ، فلا مانع من إضافةِ فهمٍ جديدٍ للآية ، أو جزءٍ منها ، فالقرآن لا تنقضي عجائبُهُ ، ولا تنفَدُ كنوزُه ، والله يفتحُ على عباده في فهم ما يشاء لمن يشاء.

ومما يُنَبَّهُ إليه أيضاً: في شروطِ التفسير العلمي للقرآن ، البعد عن التكلُّف في فهم النص ، والتمحُّل لاستخراج معنى من آية لا ينبغي حملُ كلامِ الله عليه.

وذلك مثل قول بعضهم في قوله تعالى: **﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ من نفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ منها زَوْجَها﴾** [النساء: ١] ففسَّرَ النفس الواحدة بـ "الإلكترون" في الذَّرَّة ، وزوجها الَّذي خلق منها بـ "البروتون" وهو اعتسافٌ لا تدلُّ عليه الألفاظ ولا السِّياق ، بل السِّياق يرفضُه تماماً ، بدليلِ قوله تعالى في تتمةِ الآية: **﴿وبثَّ مِنْهُما رِجَالاً كثيراً وَنِسَاءً﴾** [النساء: ١] .

ومثل ذَلِكَ : زعْمُ بعضِهِم أَنَّ القُرْآنَ أشارَ إلى فكرةِ تحطيمِ الذَّرَّةِ حين ذَكَرَ ما هو أصغر من الذَّرَّةِ في قوله تعالى: **﴿ وَمَا يعْزُبُ عن ربِّكَ من مِثْقَالِ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ ولا أصْغَرَ من ذَلِكَ ولا أكبرَ إلاَّ في كتابٍ مبينٍ﴾** [يونس: ٦١] ، فَإِنَّ كلمةَ "ذرَّة" عند العرب في عصْر نزول القُرْآن ، وفي القُرْآنِ ، لا تدلُّ على المعنى الاصطلاحِيِّ الَّذي نعرفه اليومَ في علمِ الفيزياء ، ولا يجوزُ أن تحمل ألفاظ القُرْآنِ على المصطلحاتِ الحادِثةِ بعد عصر نزوله.

=

= ومن ذَلِكَ أيضاً: تفسير الدابَّةِ التي تخرج من الأرض لتكلِّمَ الناس (المذكورة في سورة النمل ٨٢) بأنها مركبةُ الفضاء!! وَأَنَّ النفاذَ من أقطارِ السمواتِ والأرض بسلطانٍ (المذكور في سورةِ الرحمن: ٣٣) وَأَنَّ هذا السُّلطان هو سلطانُ العلم ، وهل القفزات القِصارُ التي قَفَزَها الإنسانُ خارجَ نطاق الجاذبية الأرضيَّةِ يعدُّ خروجاً من مُلْكِ الله الَّذي لا يُحَدُّ ، وهل نَجَحَ الجنُّ والإنسُ في قبولِ التحدِّي والانتصار عليه؟! (وينظر للتوسُّع كتاب :" كيف نتعامل مع القرآن" للقرَضاوي ، ص ٣٦٠-٣٦٣).

ومن ذَلِكَ : قول بعض الدَّارسين لظواهر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: إنَّ في قوله سبحانه :**﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا : إنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾** [الحجر :١٤-١٥] أي : سُدَّت أبصارنا وأُغْشِيَت وغُطِّيَت . إنَّ في هذه الآية حقيقة علمية مِنْ أنَّ الإنسان إذا جَاوَزَ الغلافَ الجويَّ دَخَل في ظُلْمةٍ فلا يُبْصرُ شَيئاً. . وقولُهم هذا يُخرج الآيات عن مَقْصِدِها الأساسي، بل يجعل للمعاندين من المشركين عذراً في قولهم :**﴿ سُكِّرَت أَبْصَارُنا﴾** مادام قولهم يحمل هذه الحقيقة العلمية ، وهذا يفسد المعنى المراد فساداً كبيراً . فالواجب علينا الحذر من الوقوع في مثل هذا ، فلا ينبغي تحميل كلمات القرآن معاني تُخرجها عن مَقْصِدِها الأساسيِّ الَّذي سيقت من أجله ، كما لاينبغي تفسير الكلمة القرآنية بمعزل عن سياقها وموضعها من الآية القرآنية (الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحِجْر ، للشيخ عبدالحميد طهماز ص٢٤) .

أفيتبـدَّلُ تفسـيرُ كـلامِ اللهِ بتبَـدُّلِ صِبْغـةِ الأفكـار علـى مَمَـرِّ الأعصـار فيبقـى القـرآن لعبـةً بيـد النـاس؟ حَاشَـاهُ ويَـأْبى الله ذلك[1].



(١) يشيرُ المصنِّف -رحمه الله تعالى- إلى شرطٍ مهمٍّ في التفسير العلمي للقرآن الكريم، أو بمقتضى القواعد التي انتهى إليها تفنُّن أهل العصر كما يقول المؤلف. وهو أنَّ الكثير من الفرضيَّات العلمية لم تزَلْ في مَوْضعِ أخذٍ وردٍّ، وجذبٍ وشدٍّ، بين أهل الاختصاص من العلماء، فلا يجوز أن نعوِّلَ على تلك الفرضيَّات التي لم تَثْبُت دعائمها، حتى لا نُعَرِّضَ فهمنا للقرآن للتقلُّب مع هذه الفرضيَّات، فكيف إذا كانت هذه الآراء تخالف النصَّ الصريح؟!.

س٢٥- ما القولُ في مذهب داروين ومن تَبِعَهُ في أنَّ أصْلَ البشَرِ النُّشوءُ والارتقاء إنكاراً لكون البشر بني آدم؟

اعتقاد ذلك مجاهرة بردِّ كلامِ اللهِ ورسلِهِ كُلِّهِم، فآدمُ خَلَقَهُ اللهُ من طينٍ ثُمَّ نَفَخَ فيه الرُّوح [1]،

(١) آدمُ عليه السَّلام، أول مخلوق من البشر، وأبو البشر، وقد مرَّ خلقُه قبل نفخ الرُّوح فيه بخمس مراحل: المرحلة الأولى: خلق آدم من حفنة من تراب الأرض. قال تعالى: ﴿ **إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون** ﴾ [آل عمران: ٥٩].
والمرحلة الثانية: خلقُه من الطين، وذلك بأن مُزِجَت حفنة التراب المأخوذة من الأرض بالماء فصَارت طيناً. قال تعالى ﴿ **إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إنّي خَالِقٌ بَشَرَاً مِنْ طِين** ﴾ [ص: ٧١].
والمرحلة الثالثة: خلقه من طينٍ لازب. قال تعالى: ﴿ **إنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ** ﴾ [الصافات: ١١] أي: ثابت شديد الثبوت.
والمرحلة الرابعة: خلقه من صَلْصَال من حمأ مسنون. قال تعالى: ﴿ **وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إنّي خَالِقٌ بَشَرَاً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُون** ﴾ [الحجر: ٢٨]. والصَّلْصال: هو صوتُ الطين الجاف اليابس، والحمأُ: الطين الأسود المنتن المتغيِّر الجاف، والمسنون: المصوَّر صورة إنسان.
والمرحلة الخامسة والأخيرة: خلقُه من صَلْصَال كالفخار. قال تعالى: ﴿ **خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّار** ﴾ [الرحمن: ١٤]. وكان آدم عليه السلام في هذه المراحل جسداً بلا روح، ولمَّا أراد الله بثَّ الحياة، نفخ فيه من =

وَخَلَقَ حواء من جسدِ آدم[1] ،

= روحه فصار مخلوقاً حياً . قال تعالى :﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [ص:٧٢] . وقوله تعالى :﴿ **مِنْ رُوحِي** ﴾ ليست للتبعيض ، وإنّما هي للبيان ، أي : هذه النفخة من أمر الله وإرادته ومشيئته، وإضافة الرُّوح للتكريم والتشريف .

(١) قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾[النساء:١] .والمراد بالنفس الواحدة هو:آدم أبو البشر .والمراد بزوجها :حواء .ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا** ﴾ أي: فرَّق ونشَرَ وأظهر من آدم وحواء رجالاًكثيراً ونساءً .

وقال سبحانه :﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وأخبر رسول الله ﷺ أنّ المرأة خُلِقَت من ضِلَع . روى البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال :" **استوصوا بالنساء خيراً ؛ فإنّ المرأة خُلِقَت من ضِلَع ، وإنّ أعوج شيء في الضِلَع أعلاه ، فإن ذهبتَ تُقيمُه كسَرْتَه ، وإن تركتَهُ لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنّساء خيراً** " .وذهب بعض العلماء إلى أنّ الله خلق حواء من ضِلَع آدم أخذاً بظاهر الآية والحديث . وأنّ حرف (من) في قوله : ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ وفي الحديث "**خُلِقَت من ضِلَع** " للتبعيض ، أي :أنّ حواء مخلوقة من بعض ضِلَع آدم . =

ومنهمَا تَنَاسَلَ البشر[1] .

= وذهب آخرون أنّ الضِلَع الوارد في الحديث ليس ضِلَع آدم ، وإنما هو لتصوير نفسية المرأة العاطفية الانفعالية .

قال النووي في شرح مسلم ٥٧:١٠ :" وفي هذا الحديث : ملاطفةُ النساء والإحسانُ إليهنَّ ، والصبر على عِوَج أخلاقهنَّ ، واحتمال ضعف عقولهنَّ ، وكراهة طلاقهنَّ بلاسبب، وأنّه لايُطمع باستقامتها ".

وقالوا : لايفهم من قوله تعالى في سورة النساء :﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ ، وقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [١٨٩] ، أنَّ حواء خُلِقت من ضِلَع آدم، وما هاتان الآيتان إلاّ مثل قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً**﴾ [الروم:٢١] ، وقوله سبحانه :﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً** ﴾ [النحل:٧٢] أي : خلق لنا من جنسنا أزواجاً، لنسكنَ إليها ، ونطمئنَّ بها ، ولايفهم بأنَّ الله خلَق كلَّ امرأة من زوجها . والله تعالى أعلم .

(١) فالإنسان مخلوقٌ-من حيث الجنس- من تراب ، ومتكاثرٌ -من حيث المصْدَر- من الإنسان الأول آدم عليه الصلاة والسلام ، والإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتمّ مظهرٍ وأحسن تقْويم . قال تعالى :﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين:٤] وقال عزّوجل :﴿ **يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ﴾ [الانفطار:٦-٧] أي : جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال. =

= ومن مؤكّدات هذه الحقيقة التي قرّرها القرآن ، ماروي في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال :" **خلق الله آدم على صورته** .." أي: أنّه منذ خُلِق إنما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمرَّ عليها وعُرِف بها ، أي: لم ينشأ مُنتقلاً من شكلٍ إلى آخر . فالضمير في صورته راجع إلى آدم عليه السلام .

وإذا تقرّر ذَلِكَ وَجَبَ أن نؤمنَ أنَّ الإنسان لم ينتقل خلال تاريخه كله في أيِّ تطور نوعي كأن يُقال : إنّه ترقّى من فصيلةٍ إلى أخرى ، أوتدرَّج من مظهرٍ نوعيٍّ في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر .

وهذه الحقيقة القطعيَّة تتناقض مع نظرية النشوء والارتقاء ، للباحث (داروين) الإنجليزي اليهودي الأصل الَّذِي عاشَ ما بين عام (١٨٠٩-١٨٨٢م) .

وملخّص نظريته: أنَّ جميعَ الكائنات الحية ترجع إلى أصلٍ واحدٍ مشتركٍ أسماهُ خَلِيَّة الحياة الأساسية الأولى ، الَّتِي تطوَّرت عبر حِقَبٍ مديدةٍ من الزمن ، وارتقَتْ بفِعْلِ عواملَ مادِّية بحتة ، واتَّخَذَتْ أشكالاً مختلفةً إلى أن استوى منها الإنسان والحيوان والنبات على الصُّورةِ الَّتِي نعرفها اليوم عن مختلف أشكالِ الكائنات الحية المعاصرة ، وتأسيساً على ذَلِكَ -حسب النظرية- فَإنَّ الإنسان والقرد قد انحدرَا من سلالةٍ واحدة! ، وقد نَشَرَ داروين أبحاثه في كتاب: "أصل الأنواع" ١٨٧٤م ، مدَّعِياً أَنَّ أبحاثه قد قامت على الملاحظة العلمية والاستنتاج .

وقد أثارت هذه النظرية ضجةً كبرى في الأوساط العلمية ، وذاع صيتُها في القرن الماضي، واستُعمِلت كسلاحٍ للتشكيك في الدين وحقائقِهِ ، وقد تلقّت هذه النظرية انتقاداتٍ كثيرةً ، وردوداً شتّى من العلماء والمفكّرين ، وكشفوا =

= زيفَها ، وأصبحت نظريةً تاريخيةً مرفوضةً يكذّبُها العلم والواقع ، وأشير باختصارٍ إلى بطلان هذه النظرية في النقطتين الآتيتين:

١- إنَّ ما أسماه (داروين) بتطوُّرِ الكائنات الحيةِ من نوعٍ إلى آخر كتطور البقرة إلى حصان ، أو القرد إلى إنسان ، عمليةٌ خياليةٌ غير واقِعِية ، لم تحصل في الحياة ، وبذلك تخرج عن دائرةِ العلم التجريبي. والله سبحانه يقول :﴿ **مَا أَشْهَدتُّهُم خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرضِ وَلاخَلْقَ أَنْفُسِهِم وَمَاكُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلّينَ عَضُدَاً** ﴾ [الكهف:٥١] . والمؤمنُ يؤمن بما أخبرنا به الخالقُ سبحانه، لابفرضيات واحتمالات لاسَنَدَ لها ولاشاهد عليها ، والله عزَّ وجل يقول :﴿ **وَلا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء:٣٦].

٢- إنَّ الاكتشاف العلمي الَّذِي هَدَمَ نظرية داروين من أساسِها ، هو اكتشاف اختلاف وحدات الوراثة الَّتِي أثبتت استحالة تطوُّر الكائن الحي ، وتحوُّله من نوعٍ إلى آخر.فقد أصبح من الثابت في علم الوراثة أنَّ الأصول تورِّث الفروع المتفرِّعة عنها كل ماتحمل من خصائص بواسطة الكروموزومات ، ولانجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة ، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً في عدد الكروموزومات .

يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه: "في ظلالِ القرآن" ٥: ٢٨٠٩: "هناك عوامل وراثية كامنة في خليةِ كُلِّ نوعٍ ، تحتفظ له بخصائص نوعه ، وتحتِّم أن يظل في دائرةِ النوعِ الَّذِي نَشَأَ منه ، ولا يخرج قطُّ عن نوعه ، ولا يتطوَّر إلى نوعٍ جديدٍ ، فالقطُّ أصلُه قط ، وسيظلُّ قِطّاً على توالي القرون ، =

= والكلبُ كذلك ، والثورُ والحصانُ والقرد ، والإنسان ، وكـل مـا يمكـن أن يقع -حسب نظريات الوراثة- هو الارتقـاء في حـدود النـوعِ نفسـه ، دون الانتقال إلى نوعٍ آخر"انتهى.

وتقول الأستاذة عائشة ليمو في رسالتها :"نظرية التطور في الإسلام " ص٤٣-٤٤:" لقد قضت بعض مراكز البحوث من خمسين عامـاً في إجـراء تجارب لتربية وتهجين بعض الحشرات ، ومع هذا فإنّها لم تسـتطع الوصـول إلى استنباط أنواع جديدة . وكلُّنا يعلم أنَّ مربـي الخيـول الأصلية يعملـون منـذ قـرون طويلـة في تهجـين أنـواع جديـدة ، لكنّهـا لاتـزال خيـولاً وإن اختلفت بعض أشكالها وأحجامها وألوانها، و لم تنقلـب إلى بقـرٍ أو أغنـام ، فإنَّ هناك حدوداً واضحةً لإمكانيات التغيير الوراثي ضمن كـلِّ نـوع . وإلا فما الَّذي يمنع الغوريلاّ والشمبانزي والقردة الأخرى أن تتخلّى عـن أنماطهـا الحالية وتتبع نفس طريق التطوُّر الَّذي سَلَكَه الإنسانُ حَسْب زعمهـم ".؟!!

وأكتفي بهذه الإشارة الموجزة، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتاب القيِّم: "نظرية دارون بين مؤيِّديها ومعارضيها " للأستاذ قيس القرطاس المتوفى سنة ١٣٩٢هـ رحمه الله تعالى ، طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩١هـ .

س٢٦- هل يخلقُ اللهُ شيئاً بلا سَبَبٍ طبيعي؟

نعم يخلق بسببٍ طبيعي ، وبلا سببٍ طبيعي علـى حَسْـبِ مـا شـاء [1]، وبهـذا تعـرَّفَ اللهُ إلى خَلْقِـهِ كمـا ذكـرهُ في القـرآن كثيراً.

---

(١) من الأصول الإيمانيَّـةِ الـتي يجـبُ أن يعتقـد بهَـا المؤمـن : الإيمـان بـأنَّ جميـع ماسواه سبحانه إنّما أوجده تعالى بقدرته واختياره ومشـيئتِهِ وإرادتـهِ . فـالله سبحانه هو وحده المدبِّر للأمـور ، والمتصـرِّف فيهـا ، فلـه التدبـير المُطْلَق ، وليـس لغـيره شـركة معـه في التدبـير و التصـرُّف والتأثـير ،لا الملائكــة ولا الكواكب ، وإنّما هي مُسَخَّرات بأمره ، فهـو الفعَّـال لمـايريد ، والكـلُّ لـه عبيد . قال تعالى :﴿ **وَمَـنْ يُدَبِّـرُ الأَمْـرَ فَسَـيَقُولُونَ الله** ﴾ [يونـس:٣١] . وقال تعالى :﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ** ﴾ [السـجدة:٥] . وأمّـا قوله سبحانه عـن الملائكـة : ﴿ **فَـالْمُدَبِّرَاتِ أَمْـرَاً** ﴾ [النازعـات:٥] ، فهـم الموكَّلون من اللهِ تعالى في تدبيرِ الأمورِ بإذنِ اللهِ وأمرِهِ لهم بذلك .

والله سبحانه جعل لعباده أسباباً ، أمرهم بالتعرُّف عليها وتعاطيهــا ، ولكنـه هو المؤثِّر الفعَّال بالأسباب ، وهو الخالقُ لتأثيرها ، إنْ شاء أعملها وإن شـاء عَطَّلها ،فلا تأثير لها إلاّبخلقه وقدرته .

وهذه الأسبابُ الطَّبيعيَّة الظاهرة تتجمّع كُلّهَا في سببٍ رئيسيٍّ واحد ، وهو مسبِّبُ الأسباب وخالقُها ،وهو الله عزَّوجل . وهذه الأسباب المبثوثة =

= في الكون ليست أسباباً حقيقية لها تأثير بذاتها، لأنها حادثة بعد العدم ؛ وإنّما كانت أسباباً لأنّ الله عزّ وجل رَبَطَ بينها وبين أمورٍ أخرى بمحض إرادته وقدرته ، فظهر استمرار هذا الارتباط وطول الاقتران ، بمظهر السببيَّة والتأثير . وإنّما جعلها الله أسباباً في هذا الكون ليتحقّق التناسق والانسجام فيه ، فيكون الكون أفصح بيان ناطق بوحدانيته سبحانه .

فهو سبحانه الّذي يحيي بالهواء ،ويُشفي بالدواء ، ويُقيت بالغذاء ، ويروي بالماء ، وهو الّذي يحرق بالنار ، ويجعل الصَّلابة بالحديد . والله سبحانه خالقُ الأسباب والرابط بينها وبين مسبَّباتها لايعجزه شيئ عن إبطال هذا التلازم والترابط الصُّوري عن طريق المعجزات التي تخالف العادة والمألوف .

ولو أراد الله سبحانه لَسَلَب النار إحراقَها ، فجعلها برداً وسلاماً كما جعلها على الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولو شاء الله تعالى لألانَ الحديد وجعله كالعجين اللَّيِّن كما ألانه لداوود عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيْد** ﴾ [سبأ : ١٠] .

ولوشاء الله سبحانه لم يَرو الشارب بالماء ، ولم يُغَذِّ الآكل بالطعام ، فهو الفعَّال المؤثِّر وحده سبحانه ؛ لأنَّ التأثير الذاتي يتطلَّب علماً محيطاً ، وقدرةً لاتتناهى .

والمؤمنُ يعتقد عقيدةً جازمةً أن لاتأثير في الكون لأيِّ شيئ إلاّ للهِ عزّوجل ، وأنَّ مايظهر من أسبابٍ طبيعية وعوامل ومؤثِّرات إنّما هي أسباب جَعْلِيَّة ، خلقها الله عزَّ وجل .(شهادة أن لا إله إلاّ الله ، =

وَخَلْقُهُ بعض الأشياءِ بلا سببٍ طبيعيٍ هو الّذي يدلُّ دلالةً واضحةً على قدرتِهِ تعالى وتفرُّدِهِ بالتصرُّفِ إذا أرادَ شيئاً قال له: كن فيكون.

فمِن ذلك معجزاتُ الأنبياءِ[1]

= للشيخ عبدالله سراج الدين ص٩٩، وكبرى اليقينيات الكونية ص٢٩٣ بتصرف واختصار) .

(١) **المعجزة في اللغة:** اسم فاعل من الإعجاز ، بمعنى الضعف والانقطاع وعدم القدرةِ على تحصيل الشيءِ ، فتسميةُ ما جاءَتْ به الأنبياء معجزة يعني أنَّ الخلقَ عجَزوا عن الإتيان بمثلها.

والمعجزةُ في الاصطلاح: "أمرٌ خارقٌ للعادة ، مقرونٌ بالتَّحدِّي ، سالِمٌ من المعارضة".

وسيذكر المصنِّفُ –رحمه الله تعالى– سَبْعَ عَشَرة معجزةً ، وبعضها لا ينطبق عليها تعريف المعجزة ، فمنها ما هو من الكرامات كقصة أصحاب الكهف ، وكثيرٌ منها لا يظهر فيه تحدِّي الرسولِ الناسَ أن يأتوا بمثل ما أتى من الآيات.

والأوْلَى أن نسمي ما جاءت به الأنبياء دلالةً على صدقهم: آياتٌ وبراهين ودلائل ، وكان الصَّدْرُ الأول من السَّلف يستخدِمونَ الألفاظ القرآنية الدالّة على معنى الإعجاز والمعجزة بالآيات ، والتي جاء ذكرُها في القرآن الكريم مثل ناقة صالح الّذِي قال له قومه: ﴿**إنَّما أَنْتَ من المُسَحَّرين ۞ ما أنتَ** =

التي مَن كذَّبَ بها كفر[1] ،

= إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤]، فآتاه الله الناقةَ وقال لهم: ﴿هذهِ نَاقةُ اللهِ لكُمْ آيةً فذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤] .

ومثل آياتِ موسى التسع: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بيِّناتٍ فَسْئَل بني إسْرائيلَ إذْ جاءَهُم فَقَالَ لَـهُ فِرْعَوْنُ إنِّي لأظُنُّـكَ يـا مُوسَـى مَسْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١] ، وهذه الآيات التسع هي: العصا ، واليد ، وإرسال العقوبات على فرعون وقومه من السنين ، ونقص الثمرات ، والطُّوفان، والجراد ، والقُمَّل ، والضَّفادع ، والدم ﴿ آياتٍ مُفَصَّلات ﴾ كما ذَكَرَ الله سبحانه في كتابه الكريم.

ومثلُ آياتِ المسيح عليه السلام ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأمَّهُ آية﴾ [المؤمنون: ٥٠] .

وهذا النوع من الآيات هو الَّذي كان يقْترحه المشركون على الرسول ﷺ:﴿وقالوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيةٌ من ربِّهِ قُلْ إنَّ الله قَادِرٌ عَلى أن يُنَزِّلَ آيـةً وَلَكِنَّ أكْثَرهُمْ لا يَعْلمونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَـرُوا: لَـوْلا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيةٌ من ربِّهِ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكلٍّ قومٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] .

وَكُلُّ ما سيذكره المصنّف من المعجزاتِ إنَّما هو من الآياتِ الدَّالَّةِ على قدرته تعالى ، وتفرُّدِهِ بالتصرُّف ، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

(١) لأنها ردٌّ صريحٌ لنصوصِ القرآن الكريم.

كطُوفانِ نوحٍ وحياتِهِ البالغة نحو ألف سنة[1]، وهلاك عادٍ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية[2]،

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿ولقد أَرْسَلْنا نُوحَاً إلى قَوْمِه فَلَبثَ فِيهِم ألفَ سَنةٍ إلاَّ خَمْسينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وهُمْ ظَالِمُونَ ۞ فأنْجيناهُ وأَصْحابَ السَّفينةِ وجَعَلْنَاهَا آيةً للعَالَمِين﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥] فإذا كانت مُدَّة دعوته لقومه تسعمائة وخمسينَ عاماً ، فكَمْ كان عمره قبل النبوَّةِ ، وكم هي المدة التي لبثَها بعد هلاكِهم؟!.

(٢) وكان هلاك عاد على مرحلتين : المرحلة الأولى بالصَّيحة . قال تعالى:﴿فَأَخَذَتْهُم الصَّيْحَة بالحَقِّ فَجَعَلْنَاهُم غُثَاءً فَبُعْداً لِلقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾ [المؤمنون :٤١] . والمرحلة الثانية : الريح الصرصر العاتية وهذه الريح جاءت بعد الصَّيحة ، قَالَ تَعَالَى : ﴿كذَّبَتْ عَادٌ فكيفَ كَانَ عذابي ونُذُرِ ۞ إنا أَرْسَلنا عَلَيْهِم ريحاً صَرْصَراً -أي : باردةً وشديدةَ الصَّوْتِ- في يومِ نَحْسٍ -أي: شؤم وشرّ- مُسْتَمِرٌّ ۞ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر﴾ [القمر: ١٨-٢٠] أي: كأنَّهم أصولُ نخلٍ منقلعٍ من مَغَارسِهِ ، سَاقطٍ على الأرض ، وقد شُبِّهُوا به ؛ لأنَّ الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقيهم أجْساداً بلا رؤوس ، وكانوا ذوي أجسادٍ عِظامٍ طِوال.

وقال تعالى :﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلِيهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيئٍ أَتَتْ عَلَيْه إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] ، وهذه الريحُ العقيم المُدَمِّرة التي أرسلها الله عليهم، استمرت في هبوبها وشدتها وتعذيبها لهم =

= ثمانية أيام متتابعة ، وكانت تحملُ الرَّجل منهم فترفعه إلى الهواء ، ثمّ تُنكِّسه على أمِّ رأسه فتهشم رأسَهُ حتى تُبينه من جُثّته .

وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وأمَّا عَادٌ فأُهلِكوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عَاتيةٍ سخَّرَها عَلَيهم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً -أي : مُتَتابعة الهبوب حتى اسْتَأصلَتْهُمْ- فترَى القومَ فيها صَرْعَى كأنَّهُمْ أعْجَازُ نخلٍ خَاوِيَة﴾ [الحاقة: ٦-٧] أي: كأنّهم أصولُ نخلٍ بلا رؤوس.

قال الصَّاويُّ في حاشيته على الجلالين ٢:٢٠٤ في تفسير سورة هود : "وكانت معجزة هود عليه السلام التي قامت بهَا الحجة عليهم في قوله:﴿قَالَ إنّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيْعاً ثُمَّ لاَتُنْظِرُونِ﴾ [هود :٥٤-٥٥] أي : لاتؤخّرون . فعصمتُه منهم هي معجزته ، وكذا معجزة نوح التي قامَت بهَا الحجة عليهم هي قوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَيَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيْكُم غُمَّة﴾ [يونس :٧١] . وأما الريح والطُّوفان ، وإن كان كلٌّ معجزة ، فيهما هلاكهم لا إقامة الحجة عليهم " انتهى.

(١) الصَّيحة : هي الصوت الشديد المرتفع . قَالَ تَعَالَى في هلاكِ ثمود قوم صالح: ﴿إنّا أرْسَلْنَا عَليهِمْ صَيْحةً وَاحِدَةً فَكَانوا كهَشِيمِ المُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] أي: ما تهشَّمَ وتفتّتَ من الشجر اليابس. =

= وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَخَذَ الذينَ ظَلمُوا الصَّيْحَةُ فأصْبَحوا في دِيَارِهِمْ جَاثِمين﴾ [هود: ٦٧] أي: باركين ، والمراد: أنهم هامِدونَ صَرْعَى لا حَرَاكَ لهم.

وقال تعالى:﴿ فَأَخَذَتْهُم الصَّيْحَةُ مُصْبِحِين ۞ -أي : في وقت الصباح- فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَاكَانُوا يَكْسِبُون﴾ [الحجر :٨٣-٨٤] .

وهذه الصَّيْحة المدوية نتج عنها رجفة شديدة ، قال تعالى: ﴿فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصبَحوا في دَارِهِمْ جاثِمين﴾ [الأعراف: ٧٨] والرَّجفة : الحركة والاضطراب الشديد ، أي: أهلَكَتْهُمْ الزَّلزَلَةُ الشديدة ، فكان إهلاكهم بهما: بالصَّيْحةِ من السماءِ التي زُلزِلَتْ بهَا الأرض من أسفل منهم ، وذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ في كُلِّ موضعٍ من كتابه واحدةً منهما.

(١) أهلك الله قوم لوطٍ بثلاثة أنواعٍ من العذاب ، يكفي كلُّ واحد لاستئصالهم وإهلاكهم : **بالصَّيْحة** وهي صوت شديد قاصف جاءَهُم عند شروق الشمس ، **وقَلْبِ قراهم** برفعها إلى عَنان السماء ، **والمطر** الَّذي كان من طين مُسْتَحْجر ، وكلُّ حجرٍ مُعلّمٌ بعلامة خاصة بصاحبها الّذي أُعِدَّتْ له ، فأهلكهم الله جميعاً ، وطهَّر الأرضَ من فسقهم وَرِجْسهم .

قَالَ تَعَالَى في هلاكِ قومِ لوط: ﴿فلَمَّا جَاءَ أمرُنا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ -أي : طين مُتحجِّر شديدٍ صلب- منضود -مُتَتابعٍ في النُّزول- مُسَوَّمةً -أي: معَلّمَة- عِنْدَ ربِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ ببَعيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]. =

وآيةُ نار إبراهيم[1]،

= وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**فَأَخَذَتْهُم الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** -أي داخِلين في وقتِ الشُّروق- **فَجَعَلْنا عَالِيَها سَافِلَها وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ [الحجر: ٧٣-٧٤].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿**والمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى**﴾ [النجم: ٥٣] أي: القُرى التي انقلبَتْ بأهلِها وهي قُرى قومِ لوط ، أسقطَهَا إلى الأرضِ بعد أن رفعها إلى السماء.وهو عذابٌ يتناسب مع جرائمهم وشذوذهم ، والجزاءُ من جنس العمل ، لأنَّهُم قَلَبوا الفِطْرَةَ والقيم فناسب الله أن يقلب بيوتهم فجعل عاليهَا سَافِلَها ، عقاباً على كفرهم وعلى شذوذهم وإتيانهم الذُّكران من العالمين .

وقد أبقى الله سبحانه قرى قوم لوطٍ آيةً شاهدة على قدرته سبحانه ، فقال: ﴿**وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [العنكبوت :٣٥] . وقال تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [الذاريات:٣٧]. فآثارهم في بحيرة لوط أو البحر الميت لاتزال باقيةً وماثلةً للعَيان ، والتي أصبحت نتيجة ماحَدَث فيها أخفض منطقة في العالم عن مستوى سطح البحر ، كما صارت منتنةً لايعيش فيها مخلوق مائيٌّ حيٌّ حتى الآن ؟.

(١) قالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيم * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِين**﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠] .وقال سبحانه :﴿**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُم الأَسْفَلِين**﴾ [الصافات :٩٨]. =

وعَجَائِبُ عَصَا موسى[1]،

= قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في " أضواء البيان " ٤:٥٨٨ :" وما ذكر الله جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أنَّه أمر النَّار بأمره الكوني القدريِّ أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم يدلُّ على أنَّه أنجاه من تلك النار؛ لأنَّ قوله تعالى : ﴿ **كُونِي بَرْداً** ﴾ يدلُّ على سلامته من حرِّها ، وقوله:﴿**وسَلاماً** ﴾ يدلُّ على سلامته من شرِّ بردها الَّذِي انقلبت الحرارة إليه . وإنْجاؤه إيَّاه منها الَّذِي دلَّ عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرَّحاً به في العنكبوت في قوله تعالى :﴿ **فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ** ﴾ . وعن أبي العالية : لو لم يقل الله : ﴿ **سَلَاماً** ﴾ لكان بردها أشدَّ من حرها . ولو لم يقل : ﴿ **عَلَى إبْرَاهِيم** ﴾ لكان بردها باقياً إلى الأبد " انتهى .

(١) ذَكَرَ سُبْحَانَهُ ثلاثَ معجزاتٍ لموسى أجراها الله تعالى بواسطة عصاه:
أولها: عندما اجتمع السحَرةُ وألقَوا عِصيَّهُمْ وحِبالَهم ، قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُون**﴾ [الأعراف: ١١٧] أي : تبتَلِع وتلْقَمُ بسرعةٍ ما يكذِبون ويُمَوِّهون.
ثانيها: لَمّا لحقه فرعون أمرَهُ الله تعالى أن يضرب بعصاهُ البحر ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فأَوْحَيْنا إلى مُوسى أنِ اضرِب بِّعَصَاكَ البحْرَ فَانْفَلَقَ** -أي : انشَقَّ اثني عشر فرقاً- **فكان كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العظيم * وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرين** * -أي: قرَّبنا فرعَونَ وقومَه- **وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِين * ثُمَّ أَغْرَقْنا الآخَرين * إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وما كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنين**﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٧] . =

وتسخير الرِّيح والشَّياطين وجميع الحيوانات لسليمان[1]،

ومنه المَسْخُ قردةً وخنازيرَ حقيقةً للأجسام[2].

= **ثالثها:** عندما احتاج بنو إسرائيل في التِّيهِ إلى الماء، فأمرَهُ الله أن يَضْربَ بعَصاه الحَجَر، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ** -أي: انفجرتْ- **مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾** [الأعراف: ١٦٠].

(١) قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِين * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وكُنا لَهُمْ حافظين﴾** [الأنبياء: ٨١-٨٢].

وقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَلِسُلَيمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شهرٌ وَرَوَاحُها شهرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** -وهو النحاسُ المذاب- **وَمِنَ الجنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدِيهِ بِإِذْنِ رَبِّه وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ من عَذَابِ السَّعِير..﴾** [سبأ: ١٢].

وقال عَزَّ وجَلّ: **﴿فسخَّرْنا له الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً** -أي: ليِّنةً غير عاصفة- **حيثُ أَصَابَ * والشَّيَاطِينَ كُلَّ بنَّاء وغوَّاص وَآخَرِينَ مُقَرَّنينَ** -أي: مقروناً بعضهم ببعضٍ بالأغلال والقيود- **في الأَصْفَاد * هَذَا عَطَاؤنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بغَيْرِ حِسَاب﴾** [ص: ٣٦-٣٨].

واقرأ الآيات ١٦-٤٤ من سورةِ النمل، وَمَا فيها من عظيمِ مُلكِ سليمان، وكثرةِ جنوده، وتسخير الطير والحيوانات والجنِّ له.

(٢) قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلَقَدْعَلِمْتُمُ الَّذِين اعْتَدَوا مِنكُم في السَّبتِ فقلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾** [البقرة: ٦٥] أي: مُبْعَدينَ عن رحمةِ الله مطرودين، =

وخلقُ عيسى بلا أبٍ[1]، وإبْراؤُهُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ

= والجمهور على أنهم مُسِخوا حقيقةً، أي: أنَّ أجسامهم تحوَّلت من الصورة البشرية إلى صورة القردة بقدرة الله القادر على كلِّ شيء، وعن مجاهدٍ: لم تُمسخ صورُهم، ولكن مُسِخَتْ قلوبهم، فلم تقبل وعظاً ولم تعِ زَجْراً.

وقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿فَلَمَّا عَتَوا عَنْ مَا نُهُوا عنهُ قُلنَا لَهُمْ كونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾** [الأعراف: ١٦٦].

وقال عَزَّ وجَلّ: **﴿وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ﴾** [المائدة: ٦٠]، قال المفسِّرون: صار الشبابُ قِردةً، والشيوخُ خنازير، فَمَكثوا ثلاثةَ أيَّامٍ ثُمَّ هلكوا، ولم يتوالَدوا.

قال القرطبي في "الجامع" ١: ٤٤٠-٤٤٢: "واختلف العلماء في الممسوخ هل يُنسل على قولين: قال قوم: يجوز أن تكون هذه القردة منهم، واختاره القاضي أبوبكر بن العربي، وقال الجمهور: الممسوخ لا يَنْسل، وإنَّ القردة والخنازير وغيرها كانت قبل ذَلِكَ، والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق لهم نسل؛ لأنَّهُ قد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام. قلت: هذا هو الصحيح من القولين" انتهى.

(١) قَالَ تَعَالَى على لسان مريمَ عليها السَّلام عندما تمثَّلَ لها جبريل بشراً سويّاً: **﴿قالتْ: أنَّى يَكُونُ لي غلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بشَرٌ ولَمْ أكُ بغِيّاً؟ قال: كذلكِ قالَ ربُّكِ هُوَ عَليَّ هيِّنٌ ولِنَجْعَلَهُ آيةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾** [مريم: ٢٠-٢٢]. =

وإحياؤُهُ الموتى بإذنِ الله[1]، ورفعُهُ إلى السَّماء[2].

= وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَتْ: رَبِّ أنّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَم يَمْسَسْنِي بشرٌ؟ قال: كذلكِ اللهُ يَخْلقُ مَا يَشاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

(١) قَالَ تَعَالَى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿أنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أنّي أخلُقُ لَكُم منَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَأنفخُ فيه فَيَكونُ طَيراً بإذْنِ اللهِ وأُبرئُ الأكْمَهَ والأبْرصَ وأُحْيي الموتى بإذنِ اللهِ وأُنبِّئُكُم بِمَا تأكُلونَ وَمَا تدَّخِرونَ في بُيوتِكُم إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لكُمْ إن كُنْتُم مؤمنين﴾ [آل عمران: ٤٩]، والأكْمَه: مَن وُلِدَ أعمى. والأبْرَصُ: هو الَّذي به بَرَصٌ، وهو بياض يكون في جسم الإنسان، في مواضعَ متفرِّقة منه، بسبب علَّة أصابته.

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إنّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إليّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقال تعالى: ﴿بَلْ رَّفَعَهُ اللهُ إليه﴾ [النساء: ١٥٨].
ومعنى قوله تعالى: ﴿إنّي مُتوفّيكَ﴾ أي: آخِذُكَ وافياً بروحِكَ وجسمِك، ورافعُكَ إليَّ بروحك وجسمك، ولا يصحُّ تفسير التوفيةِ هنا بالموت، لأنَّهُ يتنافى مع قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وإنْ مِنْ أهلِ الكِتَابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] فلا يموتُ عيسى عليه السلام حتى يُؤمنَ جميعُ أهلِ الكتاب، حتى اليهود، وهذا أمرٌ لم يقع، ولكنه سوف يقعُ قبل قيامِ الساعة، حين ينزلُ إلى الأرض، كما دلَّت على ذَلِكَ الآياتُ القرآنية والأحاديثُ النبويَّة، والجمهورُ على أنه رُفِعَ حيّاً من غيرِ موتٍ ولا غَفْوةٍ، بجسدِهِ وروحِهِ إلى السماء، وهو حيٌّ الآن في السَّماء الثانية، وكما كان عليه السلام في مبدأ خلقه آيةً للناسِ ومعجزةً ظاهرةً، كان في نهايةِ أمره آيةً =

وقصَّةُ أصْحَابِ الكهفِ[1]، وخَلْقُ آدمَ بِلا أبَوَينِ[2]، والإسْراءُ المحمَّديُّ[3]، ومعراجُهُ إلى السَّموات[4].

= ومعجزةً باهرة، والمعجزاتُ بأسْرِها فوقَ قُدرةِ البشر ومدارك العقول، وهي من متعلّقاتِ القدرةِ الإلهية، ومن الأدِلَّةِ على صِدقِ الرُّسُلِ عليهم السلام.

(١) كما في قوله عزَّ وجل في سورة الكهف: ﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقيمِ كَانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾ [الآية: ٩] إلى قوله تعالى: ﴿ولَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً﴾ [الآية: ٢٥].

(٢) تقدَّم تفصيل خلق آدم عليه السَّلام ومراحله ص ٢١٧-٢١٨.

(٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أسْرَى بِعَبدِهِ لَيلاً مِنَ المسْجِدِ الحَرَامِ إلى المسْجِدِ الأقْصَى الَّذِي بَارَكْنا حَولَه لِنُرِيَهُ مِن آياتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]

(٤) قَالَ تَعَالَى: ﴿والنَّجْمِ إذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكمْ وَمَا غَوى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَديدُ القُوى -وهو جبريل عليه السلام- * ذُو مِرَّةٍ -أي: ذو حصافةٍ أو ذو منظرٍ حسن- فَاسْتَوَى -أي: فاستقامَ وظَهَرَ في صورته الملائكية- * وَهُوَ بالأُفُقِ الأعلى * ثُمَّ دَنا فَتَدَلّى -أي: قَرُب جبريل من النبيِّ ﷺ- * فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى * فأوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأى * أفَتُمارُونَهُ على مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرَى * عِنْدَ سِدْرةِ المُنْتهَى * عِنْدَها جَنَّةُ المَأوى * إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ ربِّه الكُبْرَى﴾ [النجم:١-١٨]. =

بجسده يقظةً(١) ورجوعه في ليلةٍ واحدة .

= فآيةُ سورةِ الإسراء تثبتُ الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بنصِّ قوله تعالى: ﴿أسْرَى بعبده﴾ وتثبتُ المعراج إلى السَّموات السبع ، إلى سِدْرةِ المنتهى ، بإشارةِ قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ من آياتِنا﴾ ، وهذه الآيات التي أراها الله سُبْحَانَهُ لرسوله ﷺ جاء ذِكرُها في مَطْلعِ سورةِ النجم الَّتِي جاء فيها النَّصُّ على المعراج الجسْماني في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ المنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ المأْوَى**﴾ فهذه الآية صريحةٌ في أنه ﷺ عُرجَ بِهِ إلى العالم العُلوي ، وأنه رأى جبريلَ عليه السلام بالحقيقةِ الجبريليَّة ، وسِدْرة المنتهى هي فوق السَّموات السبع ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿**عندَها جنَّةُ المأْوَى**﴾ ، ولا شكَّ أنَّ جنَّةَ المأوى هي فوق السَّموات ، وسقْفُها عرشُ الرحمن كما في الأحاديث الصحيحة ، ثُمَّ قالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**لَقَدْ رَأَى من آياتِ ربِّه الكُبْرى**﴾ ، وهذه الآيات هي الَّتِي جاءَ ذِكرُها في سورةِ الإسراء: ﴿**لِنُرِيَهُ من آياتِنا**﴾ ، ففاتحة سورةِ النجم صريحةٌ في إثباتِ المعراج، كما أنَّ فاتحة سورة الإسراء صريحةٌ في إثبات الإسراء ومشيرةٌ إلى إثبات المعراج.

(١) قال الإمام الطبري في " تهذيب الآثار " ٢:٨٤-٨٧ في الرد على من زعم أنَّ الإسراء رؤيا نوم لا رؤيا يقظة أو أنه بالروح دون الجسم :" فقول ظاهر الكتاب على خلافه دالٌ ، والتنزيل على فساده شاهدٌ ، والأخبار عن رسول الله ﷺ بغيره متظاهرةٌ ، والروايات ببطوله واردةٌ ، فأمَّا دليل ظاهر كتاب الله على خلافه ، فقوله : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً** =

= **مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾. فأخبر تبارك وتعالى أنَّه أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مُعلِماً بذلك خلقه قدرتَه على ما فعل به ، مِمَّا لا سبيل لأحدٍ من خلقه إلى مثله إلاَّ لمن مكَّنه من ذَلِكَ مثلَ الَّذِي مكَّن منه نبيَّه محمداً ﷺ ، ودالاً بذلك مِنْ فعلِهِ به على صدقه وحقيقة نبوَّته ؛ إذ كان ذَلِكَ من المعجزات التي لايقدر من البشر عليه أحد إلاَّ من خصَّه الله بمثل ماخصَّه به، ولو كان ذَلِكَ رؤيا نوم لم يكن في ذَلِكَ على حقيقة نبوَّة رسول الله دلالة ، ولا على من احتجَّ عليه به من مشركي قوم رسول الله لرسوله حجَّة ، ولا كان لإنكار من أنكر من المشركين مَسْراه من مكة إلى المسجد الأقصى ورجوعه إليها في ليلة واحدةٍ وجهٌ معقول ؛ إذ كان معقولاً عند كلِّ ذي فطرة صحيحة أنَّ الإنسان قد يرى في منامه في السَّاعة ما على مسيرة سنة من موضع منامه من البلاد أو أكثر ، وإنه يقضي هنالك أوطاراً وحاجات . وفي تظاهر الأخبار عن مشركي قوم رسول الله ﷺ بإنكارهم ما أخبرهم به رسول الله ﷺ من مَسْراه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أوضح البرهان وأبين البيان ، إنَّ ذَلِكَ كان منهم لإخبار رسول الله ﷺ إيَّاهم من الخبر بما كان ممتنعاً عندهم فعله على مَنْ كان بمثل خِلْقَتِهم وبُنْيَتِهم من جميع البشر ، فأمَّا ما كان جائزاً وجودُهُ وممكناً كونه من كلِّ من كان بمثل هيئتهم ومفطوراً مثل فطرتهم ، فغيرُ جائزٍ منه التكذيب به ، ومستحيل من رسول ربِّ العالمين أن يكون احتجَّ عليهم به ، ولا شكَّ أنَّ النَّائم قد يرى في نومه ممَّا هو أبعد من مسافة ما بين مكة و بيت المقدس ، وأنه يعاني به =

= أموراً ويقضي به أوطاراً ، والأنبياء صلوات عليهم لا تحتجُّ على مَنْ أُرسلت إليه لصدقها فيما ينكره المرسلون إليهم من نبوتها إلاَّ بما يعجز عن مثله جميعُ البشر .

وأما الأخبار عن رسول الله ﷺ فمتظاهرةٌ بأنّه قال :" **أتاني جبريلُ بالبراق فحملني عليه ، فَسَارَ بي حتّى أتينا بيتَ المقْدس** " ، ولا شكَّ أنَّ الأرواحَ لا تُحمَل على الدوابِّ ، وإنّما تُحمل على الأجسام ذواتِ الأرواح وغير ذوات الأرواح .

وفي إخباره ﷺ أنه حُمِل على البراق الإبانة عن خطأ من قال : إنَّ خبر الله تعالى ذِكرُهُ عن نبيِّه ﷺ أنه أُسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنّما هو خبرٌ منه عن أنّه أُسري بروحه دون جسمه مع أنَّ في خبر شَدَّاد بن أوس ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنّه قال لرسول الله ﷺ صبيحة أسري به : " طَلَبْتُكَ يارسول الله البارحة في مظانِّك – أي المواضع التي يظنُّ أنّه يكون فيها – فلم أصِبْكَ ". وإجابة رسول الله ﷺ إياه بأنَّ جبريل حمله في تلك الليلة إلى بيتِ المقدس ، البيانَ الواضح أنّه سار بنفسه تلك الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، والإبانة عن خطأ قول من قال : إنّما كان ذَلِكَ رؤيا منام ، وبنحو الّذي قلنا في ذَلِكَ تتابعت الأخبار عن عامّة السَّلف " انتهى .

ومّما يدلُّ على أنَّ الإسراءَ والمعراج بالجسمِ والرُّوح معاً ، يقظةً لا مناماً ، قوله تعالى: **﴿أسرى بعَبْدِهِ﴾** أي: بجسمِهِ وروحِهِ ؛ إذ أنَّ اسمَ العبدِ لا يُطْلَقُ على الرُّوح بدون جسم. =

وكانشقاق القمر له[1]، وغير ذلك مما بعضُهُ لا تَقْتَضِيهِ الطبيعة أصلاً ، وبعضُهُ يقع مثله بالطبيعة نادراً ، ولا يبلغ درجةَ ما يقع معجزة .

❁❁❁

= كما أنَّ قوله تعالى: **﴿من المَسْجِدِ الحرام إلى المسْجِدِ الأقصَى﴾** يدلُّ على الإسراء بالجسم ، وذلك لأنَّ تحديدَ المسافات الحسِّيَّة الأرضية هو من شأنِ الأجسام ، أما الأرواح فلا تحدُّها المسافات ، ولا تقيِّدُها الأماكن المحسوسات ، ولَمَّا كانت معجزةُ الإسراء بالجسم ، وَمَا فيها من خوارق العادات وعجائب الأمور ، بدأ الله تعالى الآية بالتسبيح الدالِّ على كمالِ قدرته ، ونزاهته أن يعجزه شيءٌ، فقال: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾** ؛ لأنَّ الإسراء والمعراج معجزة خارقة للعادة البشريَّة .(شهادة لاإله إلاَّ الله محمد رسول الله ، للشيخ عبدالله سراج الدين ، ص١١٣-١١٧) .

(١) قَالَ تَعَالَى: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويَقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾** ، وهذا الانشقاق للقمر هو ما حَصَلَ للنَّبيِّ ﷺ ، كما هو ثابتٌ بالأحاديثِ المتواترةِ الصحيحة .

روى البخاري في صحيحه (٣٦٣٧) و (٣٨٦٨) و (٤٨٦٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه :"**أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر**".

(فَصْل)

لا نجهل ولا ننكر أنَّ طبيعةَ البشَر وذوي الأرواحِ الأرضِيَّةِ إذا ارتفعت خارقةً لِكُرَةِ الهَواءِ لَهَا حَدٌّ محدودٌ لا تتعيَّشُ فوقه عادة[1] ، لكنَّ مشيئةَ الله وقدرتَه تنقُضُ حُكْمَ الطبيعة في ذلك الأمر ، **﴿واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾**[2]، وهذا أصْلٌ عامٌّ من ضروريَّات الإيمان واليقين[3] .

(١) وقد أشارَ القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية ، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّمَاء﴾** [الأنعام :١٢٥]. فقد أثبت علم الطيران الحديث أنَّ صعود الإنسان من سطحِ الأرض إلى الطبقات العليا في السماء تُحدِثُ له أعراضاً تتدرَّج من الشُّعور بالضيق الَّذي يتركَّز في منطقة الصدر كما ذُكر في الآية الكريمة ، ثمَّ إذا استمرَّ الإنسان في الارتفاع في السماء انخفض الضغط الجوي ونقص الأوكسجين، و يفقد الإنسان فيها الوعي بسبب فشل الجهاز العصبي ، وهي المرحلةُ الحرجة التي ذكرها الله تعالى . وانظر حول هذه الحقيقة العلمية : رسالة "الإنسان في الارتفاعات العالية بين العلم الحديث والإعجاز العلمي في القرآن " للدكتور صلاح الدين المغربي .

(٢) من سورة يوسف ، الآية: ٢١.

(٣) انظر ما تقدَّم ص٢٢٣-٢٢٤.

س٢٧- ما القولُ فيمن قال: إنَّ تلكَ المعجزات وقعت بوجْهٍ طبيعي غير معروفٍ لا بخرقِ العادة؟

جَرَيانُ الطبيعةِ بذلك كيف يَتَّفِقُ دائماً مع غضبِ الله على المُهْلَكِين مثلاً ، ورِضَاهُ عن النَّاجين[1] ، فإذا كان مَجْرى

(١) لأنَّ سُنَّةَ الله تعالى جرت بالهلاك والاستئصال في كُلِّ أمَّةٍ أتاها نبيُّها بآيةٍ عامَّةٍ يدركُها الحسُّ فلم يؤمنوا بها ، كما وقع لقومِ نوحٍ -عليه السلام- وغيرهم من الأمم المكذِّبة لآياتِ ومعجزاتِ رسُلِها ، قَالَ تَعَالَى -بشأن قوم نوح-: **﴿فكذَّبوهُ فأنْجَيْنَاهُ والَّذينَ مَعَه في الفُلْكِ وأغرقْنا الذينَ كذَّبُوا بآياتِنا إنَّهم كَانُوا قوماً عَمين﴾** [الأعراف: ٦٤] .

وقَالَ سُبْحَانَهُ بشأن عادٍ قوم هود: **﴿فأنجَيْنَاهُ وَالَّذينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابرَ الَّذِين كَذَّبوا بآياتنا وَمَا كَانُوا مُؤمِنِين﴾** [الأعراف: ٧٢] .

وقَالَ سُبْحَانَهُ بشأن ثمود قوم صالح: **﴿فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمين﴾** [الأعراف: ٧٨] .

روى الإمام أحمد في المسند ١:٢٥٨ ، والنسائي في التفسير ١:٦٥٥ (٣١٠) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: "سأَلَ أهلُ مكةَ النبيَّ ﷺ أن يجعل لَهُمُ الصَّفَا ذهَباً ، وأن يُنَحِّيَ الجبال عنهم فيَزْدَرِعُوا - أي : يحرثوا ويزرعوا - ، فقيل له: إنْ شِئْتَ أنْ تستأنيَ بهم - أي:تنتظر - ، وإنْ شئتَ أن نُؤْتِيَهُم الَّذِي سألوا ، فإن كفروا أُهلِكوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ ، قالَ:" **لا، بل أستأني بهم** " ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: **﴿وَمَا مَنَعَنا أن نُرْسِلَ بالآيَاتِ إلاَّ أن كذَّبَ بها الأوَّلونَ وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً﴾** =

العادة مستمراً في سبيله بلا تَخَلُّفٍ ، فَأيُّ حاجةٍ بغضبهِ تعالى ورضاه ؛ إذْ لا تأثير له على زعمهم .

= [الإسراء: ٥٩] . أي : دالة على وحدانية من خلقها ، وصِدْقِ الرسول الَّذِي أجيب دعاؤه فيها . ﴿ **فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ أي : كفروا بهَا ، ومنعوها شُرْبَهَا ، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم ، وأخَذَهم أخذَ عزيزٍ مُقْتَدِر.

قَالَ الإمام الخطابيُّ في "أعلام الحديث" ٣: ١٦٢٠ : "وَخَصَّ هذه الأمَّة بالرحمة فجعل آيَةَ نَبِيِّهَا الَّتِي دعاهم إليها وتحدَّاهم بها عقليَّة ، وذلك لِما أُوتوه من فضْلِ العقول وزيادةِ الأفهام ، ولئلا يهلكوا فيكون سبيلهم سبيلَ من هَلَكَ من سائر الأمم المسخوطِ عليهم ، المقْطوع دابرهم ، فلم يبقَ لَهُمْ عينٌ ولا أثر ، والحمدُ لله على لُطفِهِ بنا ، وحُسْن نظرهِ إلينا ، وَصَلَى الله على نبيِّهِ المُصْطفى وعلى آله وسلم كثيراً" ، انتهى .

وقال العلامة الصَّاوي في "حاشيته على تفسير الجلالين " ٢:٢٥٦ :"إن قلت :لِمَ لَمْ يُجب الله نبيَّه بعين ماطلبوا كما أجاب صالحاً في الناقة ، مع علمه بأنهم لايؤمنون ؟ أُجيبُ : بأنَّه قد جَرَت عادةُ الله في عباده الكفَّار أنَّهم متى طَلَبوا شيئاً من المعجزات ، وعاهدوا نبيَّهم على الإيمان عند مجيئها ولم يؤمنوا أنَّه يهلكهم ويقطع دابرهم عن آخرهم ، وقد أراد الله إبقاء هذه الأمَّة المحمديَّة ، وعدم استئْصالها إكراماً لنبيِّها ، فلم تحصل الإجابة بعين ماطَلبوا ، رحمةً بهم ، وإكراماً لنبيِّهم " انتهى .

ومعنى هَذَا القول: هو نسبة العجز للقُدْرة الإلهيَّة ، وَعَزْلُ الخالق عن التَّصَرُّف في مخلوقاتِهِ ، وهو انْسِلاخٌ من الدِّين بلا شَكٍّ . فَقُدْرَتُهُ تعالى لا يُوجبُها سَبَبٌ ، ولا يرفعُها سَبَبٌ ، مَا شَاءَ الله كان ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يكن .

❁❁❁

(فَصْل)

ولو شاءَ الله أن يَجْعَلَ الزمانَ كلّه نهاراً مُضيئاً أو كُلَّهُ ليلاً مظلماً لَفَعَل ، ولذلك شَرَعَ عند كُسوفِ الشَّمْس : الفزعُ إلى الصَّلاة والاستغفار خوفاً من غَضَبِ الجبار جَلَّ جلاله[1] ، فيخرق حساب انجلائها المعروف ، فيستمرُّ الظلام عقوبةً إن لم يرحَمْ عبادَهُ ، ولا يَعْجزُ عن ذَلِكَ.

---

(١) فَإنَّ الله جل جلاله وحده هو الفاعل لِما يشاء ، ولكنه يعقد أسباباً للعذاب ، كما يعقدُ أسباباً للرحمة ، فأسبابُ العذابِ يخوِّفُ الله بها عباده ليتوبوا ويتضرَّعوا إليه ، مثل كسوفِ الشَّمس وخسوف القمر ، فإنّهُما آيتان من آياتِ الله يخوِّفُ الله بهما عباده . روى البخاري (١٠٤٤) ومسلمٌ (٩٠١) عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: "**إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ الله ، لا ينخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ ، فإذا رأيتم ذَلِكَ فادْعوا الله وكبِّروا ، وَصَلُّوا ، وَتَصَدَّقوا**".

وروى البخاري (١٠٥٩) ومسلم (٩١٢) عن أبي موسى ﷺ قال: خسفت الشمسُ ، فقام النبي ﷺ فزعاً ، يخشى أن تكونَ الساعة ، فأتى المسجدَ ، فصلّى بأطْوَلِ قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ ، ما رأيتُهُ قط يفعله ، وقال: "**هذه الآياتُ التي يُرسلُ الله عَزَّ وَجَلّ لا تكون لموتِ أحدٍ ولا لحياته ، ولكن يخوِّفُ الله بِهَا عباده ، فإذا رأيتم شيئاً من ذَلِكَ فافزَعوا إلى ذِكرِ الله ودُعائِهِ واستغفارِهِ**".

ففي الآية الكريمة: **﴿قُل أرَأَيتُم[1] إن جَعَلَ اللهُ عليكم الليْلَ سَرْمَداً[2] إلى يَوْمِ القِيَامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكمْ بضِياءٍ أفلا تَسْمَعُون ۞ قُل أرَأيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيَامةِ مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُمْ بلَيْلٍ تَسكُنونَ فيه أفَلا تُبْصِرون ۞ ومِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنوا فيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ[3] وَلَعلَّكُمْ تشْكُرون﴾**[4].

فلو فُرِضَ أنَّ قائلاً قال في مقابلة الآية: يأتينا بالضِّياءِ والليلِ القانونُ الطبيعيُّ الَّذِي لا يَتَخَلَّف ، يعني اختلاف الحركة في التقابل بينَ الأرضِ والشمس ، فكأنَّهُ قال: لنا إلهٌ يأتينا بهِ ، وليس وَرَاءَ ذلك دين ! .

۞۞۞

---

(١) أي: أخبروني ، وفي هذه الآية واللتين بعدَها دلائلُ على كمالِ القدرةِ الإلهية ، موجبةٌ لتوحيده سُبْحَانَهُ في العبادة.

(٢) سَرْمَداً: أي دائماً لا ينقطع ، من السَّرْدِ وهو المتابعة ، والميم مزيدةٌ ، ووزنه فعْمَلْ (تفسير النَّسَفي ٣: ٤١١).

(٣) أي : جَعَلَ الليل والنَّهار يتعاقَبان بالظُّلمَةِ والضياء ؛ لتسكُنوا في الليل ، وتبْتغوا من فَضْلِ الله في النهار ، فيكون من باب اللفِّ والنَّشْرِ المرتَّب.

(٤) من سورةِ القصص ، الآية: ٧١-٧٣.

(فَصْل)

وبقدرتِهِ تعالى قال للسَّماواتِ والأرضِ: ﴿ائتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتا أَتَيْنا طَائِعين﴾[1].

فالمخلوقاتُ كُلُّها مُذْعِنةٌ لسَطْوةِ الأُلوهيَّة إلاَّ مَن أَبَى واسْتَكْبَر مِن الجنِّ والإنْس .

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدان﴾[2] ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالملائِكَةُ مِنْ خِيفَتِه﴾[3]

---

(١) من سورة فُصِّلت، الآية: ١١. ومعنى الآية : أتيناك طائعين لأمرك على الوجه الَّذي تختاره لنا ، من الشكل والوصف ، والعدد ، والمساحة ، والطبيعة ، والكيفيَّة ، والكميَّة ، طائعين لأوامرك التي تُحمِّلنا إيَّاها ، وتريد منّا تنفيذها .

(٢) من سُورَة الرحمن ،الآية: ٦. والنَّجمُ هنا: النبات الَّذي يَنْجُم ، أي يظهر ويطلعُ من الأرضِ ولا ساقَ له ، والشجر: النباتُ الَّذي له ساقٌ ، وسجودهما: انقيادُهما لله تعالى فيما خُلِقا له ، كانقيادِ السَّاجد لخالقه.

(٣) من سُورَة الرعد ، الآية: ١٣. فالرعدُ يسبِّحُ بحمدِ الله ، وينزِّه الله تعالى عن كُلِّ نقص ، فكلُّ الظواهر والقُوى غير العاقلة في هذا الكونِ تسبِّح اللهَ تعالى ﴿ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ ﴾ ، والقوى العاقلة من الملائكة والإنس والجنِّ تسبِّحُ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿والملائكة من خِيفَتِهِ﴾ أي: خشيةً وهيبةً =

﴿وإن مِّن شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم﴾[1]

= وإجلالاً ، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحونَ الليلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرون﴾ [الأنبياء:٢٠] .

(١) من سُورَة الإسراء ، الآية: ٤٤. فالعوالِمُ كُلُّها بأصنافِها تعرف خالِقَها وتسبِّحُه ، وتحمده ، وتسجد له حقيقةً على كيفيَّةٍ مناسبةٍ لخلقِها ، وهذه الآية الكريمة: ﴿تسبِّحُ له السَّمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فيهنَّ وإن مِّن شيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحمدِهِ وَلكِنْ لا تفقهونَ تَسْبيحَهُم إنَّه كانَ حَليماً غَفوراً﴾ تُخبِرُ عن تسبيحِ الأشياء وحمدها على وجه الحقيقة -أي: تسبِّح بحمده وتنزِّهه عما لا يليق به ، وتحمده وتصفه بالكمالات اللائقة به- عن نطقٍ صادرٍ عنها ، وليس ذَلِكَ من بابِ المجاز ، أو من بابِ دلالةِ الحال دون المقال ، فلو لم يكن تسبيحُ الأشياء حقيقيّاً واعتقاداً وقولاً لَما احتاجَ الأمر إلى الاستدراك في قوله سُبْحَانَهُ: ﴿ولكن لا تفقهونَ تسْبيحَهُمْ﴾ ؛ فالآيةُ دليلٌ صريحٌ على أنَّ هذا التسبيح هو حقيقةٌ ، صادرٌ عن نطقٍ ، لا يفهمه إلاَّ مَنْ فهَّمه الله تعالى ، كما أخبر تعالى عن سليمان عليه السلام.

ومما يدلُّ على أَنَّ تسبيحَ الأشياء وتحميدها هو حقيقةٌ واقعةٌ ، وليس من بابِ الاستدلال ودلالةِ الحال ، قوله تعالى فيما أكرمَ به عبده داود عليه السلام: ﴿إنّا سَخَّرْنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْراق﴾ [ص:١٨] ؛ فكانت الجبال تسبِّحُ معه في العَشِيِّ والإشراق ، فلو كان ذَلِكَ من بابِ دلالةِ الحال ، لَما اختصَّت في هذين الوقتين ، وكذلك قوله تعالى: =

= ﴿يا جبالُ أوِّبي مَعَه﴾ [سبأ: ١٠] أي: ردِّدي التسبيح النُّطْقِيَّ ، فهي تسبِّح الله تعالى مع داود تسبيحاً خاصّاً ، وإن كانت الجبال وجميع بقاعِ الأرض في كُلِّ الأوقات تسبِّح الله تعالى وتذكره.

وَمِمَّا يدلُّ على معرفةِ الأشياء بخالِقِها وتسبيحها له حقيقة قوله سُبْحَانَهُ: **﴿سَبَّحَ للهِ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [الصف:١] ، وقوله تعالى: **﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأرضِ المَلِكِ القدُّوسِ العزيزِ الحكيم﴾** [الجمعة:١] ، فالعموم المفهوم من قوله تعالى: **﴿ما﴾** يعمُّ جميعَ الكائنات ، فكلُّها تسبِّح الله حقيقةً ، وانظر كتاب العلاّمة المفسِّر الشيخ عبدالله سراج الدين -حفظه الله- "هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان " ص٣٢٨-٣٣٣.

قال الإمام السبكي في "الطبقات" ٨:٩٤-٩٥ : " وذهب قومٌ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ من جمادٍ وغيره يسبِّح الله بلسان المقال ، وهذا هو الأرجح عندنا ؛ لأنَّهُ لا استحالة فيه ويدل له كثير من النقول . وفي صحيح البخاري أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهو يُؤْكل عند النبي ﷺ ، وفي صحيح مسلم ٤:١٧٨٢ (٢٢٧٧) أنّ رسول الله ﷺ قال :" **إني لأعرفُ حَجَراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث** " . وخبر الجذع في هذا الباب مشهور .

إلى غير ذَلِكَ من أخبارٍ وآيات تشهد لمن يحمل قوله تعالى : **﴿ وَإنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾** [الإسراء :٤٤] على عُمومه . غير أنّا نقول : لانسلّم من تسبيحها بلسان المقال أنّا نسمعها ، وإنّما يكون ذَلِكَ على سبيل =

﴿وإنَّ منها -أي الحجارة- **لَمـا يَهْبِـطُ مـن خَشْـيةِ الله﴾** (١)

= المعجزة ، كما كانوا يسمعون تسبيحَ الطعام عند المُصْطفى ﷺ ، أو على وجْه الكرامة " انتهى ملخصاً .

وقال الإمام ابن رجب في " فتح الباري " ٥:٢٢٧ : "وخرج الإمام أحمد (٤:٢٨٤) والنسائي (٢:١٣) عن البراء بن عازب أنَّ النّبي ﷺ قال : "**المؤذّن يُغْفَر له مدَّ صوته ، ويصدِّقه مَنْ سمعَهُ من رَطْبٍ ويابس ، وله مثلُ أجر من صلّى معه** ". وقوله :" **كل رَطْب ويابس** " يدلُّ على أنَّ الجمادات سواء كانت رطبةً أو يابسةً ، فإنَّ لهما سماعاً في الدنيا وشهادةً في الآخرة ، ومنها : إدراك الجمادات ونطقها ، وقد أثبت ذَلِكَ جمهور السلف سواء كانت رطبة أو يابسة كما دلَّ عليه قوله : **﴿ ياجبَالُ أوِّبي مَعَهُ ﴾** [سبأ:١٠] ، وقوله : **﴿ وَإنْ مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ ﴾** [الإسراء:٤٤]. وخصَّ الحسنُ التسبيحَ بما كان رطْباً قبل أن يَيْبَسَ ، والجمهورُ على خلافِهِ ، وأمَّا من قال : تسبيحُها دلالاتها على صانعها بلسان الحال ، فقولٌ ضعيفٌ جدّاً ، والأدلّة الكثيرة تُبْطله " انتهى . وانظر أيضاً :" فتح الباري " لابن رجب ٤:٢٤٤-٢٤٥.

(١) من سُورَةِ البقرة ، الآية: ٧٤. وهذه الآية الكريمة تدلُّ على أنَّ الجمادات تعرف ربَّها ، وتسجدُ له ، وتخشاه ، والخشيةُ إنما تكونُ عن علمٍ بعظَمَةِ الّذِي يُخْشَى منه ، كما قال الله تعالى: **﴿لَوْ أَنزَلْنا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾** [الحشر: ٢١] . =

﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ﴾[1]

والطيرُ في الجوِّ ما يُمسكهن إلاَّ الله[2] كما ويُمْسِكُ السماء أن

= ومن ذَلِكَ قوله سُبْحَانَهُ: ﴿تكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً أن دَعَوْا لِلرَّحمنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أن يتَّخِذَ ولداً﴾ [مريم: ٩٠-٩٢] ، فأخبر سُبْحَانَهُ عن تغيُّظِ السمواتِ والأرضِ والجبال ، وعن شدَّةِ غضبِها ممَّن نَسَبَ إلى الله تعالى ما لا يليقُ بكمالِ ربوبيَّتِهِ.

(١) من سورةِ الأعراف ، الآية: ٥٤ ، والمراد بتسخيرهن: تذليلهن لِما يُرادُ منهنَّ من طلوعٍ وغروب ، وسَيْرٍ ورجوع ، إذ لسن قادِراتٍ بأنفسِهنَّ ، وإنما هُنَّ يتصرَّفْنَ في متصرفاتهنَّ ، بإرادةِ المدبِّرِ لَهُنَّ الحكيمِ في تدبيرِهِنَّ وتصريفِهنَّ على ما أراد منْهُنَّ ، وإنما أَفْرد الشمسَ والقمرَ من النجوم بالذِّكْرِ ، ثُمَّ عَطَفَ عليهما ذِكر النجوم لبَيانِ شرفهما على سائرِ الكواكب لِما فيهما من الإشراق والنُّور ، وسيرِهما في المنازِلِ لِتُعْرَفَ الأوقات . (تفسير الخازن ٢: ٩٥-٩٦).

(٢) قال سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ يَرَوا إلى الطَّيرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللهُ﴾ [النحل: ٧٩] وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُم صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمَنُ إنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِير ﴾ [الملك: ١٩] فهو سُبْحَانَهُ الَّذِي أعطى تلك الأجسام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف في الجوِّ ، والحركة السَّريعة ، فجَعَلَ لها أجنحةً تنقلها ، وأذناباً خفيفة تُعدِّل بِهَا حركاتها ، وهو سُبْحَانَهُ هداها إلى استعمال أجنحتها =

تقعَ على الأرضِ إلاَّ بإذنه[1] .

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ﴾[2] ، وهو الَّذِي يُرسِلُ الرياح لواقحَ فتُثِيرُ سحاباً[3] ، هو الَّذِي يخْلُقُ المطرَ ويُنزله ، وينبتُ النبات[4] ، ولو لم يَشأ لم تنزل قطرةٌ .

= بالقبض تارةً ، والبَسْطِ تارةً أخرى ، والتحرُّك يميناً وشمالاً ، وعُلُوّاً وانخفاضاً ، وفي ذَلِكَ حجةٌ ظاهرة على قدرةِ الخلاَّق العليم.

(١) قال سُبحانَهُ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أن تَقَعَ عَلَى الأرضِ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] .

وقَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ أن تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

(٢) من سورةِ يونس ، الآية: ٢٢.

(٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢] .

(٤) قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ * والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾[ق :٩-١١] فهو سبحانه الَّذِي أنبت الزَّرعَ ، ولكن بسبب الماء الَّذِي جعله سبحانه سبباً ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ فهو سبحانه المحيي وحده، كما قال سبحانه:﴿اعْلَمُوا أنَّ اللهَ =

أو ينزل الماء ولا يَنْبُتُ نَبَاتٌ،(١) هُوَ الَّذِي يخْلُقُ الزَّلزلةَ والصَّاعقةَ بسَبَبٍ أو بلا سَبَب ، ويُسَلِّطُها على مَنْ يشاء ويَصْرِفُها عَمَّن يشاء(٢) بِسَبَبٍ أو بلا سَبَب (٣) .

= ﴿ يُحيي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد :١٧] ، ولكن جعل الماء سبباً في الحياة، فلا تُنْكَرُ الأسباب ، فإنَّ الَّذي جعلها أسباباً هو الله تعالى ربُّ الأرباب .

(١) قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامَاً فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣-٦٥] . وقال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجَاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨-٧٠].وقال عزوجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرَاً فَمَنْ يَأتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِين ﴾ [الملك :٣٠] . وقال سبحانه : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرَاً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبَاً ﴾ [الكهف : ٤١] .

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا من يَّشَاءُ﴾ [الرعد:١٣] . وقال سبحانه : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ منْ جبَالٍ فيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَن يَّشَاءُ﴾ [النور:٤٣] .

(٣) اقْتَضَتْ حكمتُه سبحانه مع كمال علمه وقدرته وتمام مشيئته أن يدبِّر أمر المكوَّنات بأسباب ومسبَّبات ، وأن يكون بينهما ارتباط بتقديره ومشيئته أيضاً ، مع العلم أنه تعالى قادرٌ على الخلق والتدبير من غير تقدُّم أسباب: =

= ﴿ إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. وَبَثَّ سبحانه الأسباب في جميع المكوَّنات الظاهرة والخفيَّة والمشاهَدَة والغائبة .

والنواميسُ الكونية التي نراها في الكون ليست سوى أسباب أجرى الله تعالى بهَا مَقْدوراته ، ومن المعلوم المُشَاهَد أنَّ الظواهرَ الكونيَّة ترتبطُ بأسباب ونواميس ، ومع ذَلِكَ فالآياتُ القرآنية الكريمة تردُّ أمر تدبيرها وحدوثها إلى الله تعالى وحده .

" فالأسباب ليس لها تأثيرٌ من ذاتها ، وإنَّما المؤثِّر بالذات والفعَّال هو الله تعالى وحده ، فإنَّ الأسبابَ إنْ شاءَ أعمَلَها وجَعَل لها التأثير، وإنْ شاءَ عطَّلها . فالأسبابُ كالأجسام ، فإن جعل الله فيها روحاً عملت وتحرَّكت، وإلا فلا حِراكَ لها .والأسباب كآلة عمل إنْ أمدَّتها قوة كهرباء أو نحوها تحرَّكت ، وإلا فهي عاطلةٌ عن الحركة . فليس لسببٍ تأثيرٌ ذاتي ، فالماءُ سبب ولكن الَّذي يروي به هو الله تعالى، والدواء سبب ولكن الَّذي يشفي به هو الله تعالى ".(حَوْل تفسير سورة الفاتحة ، لعبدالله سراج الدين ، ص ٤٥-٤٦) .

والواجبُ على المسلم أن يردَّ الحوادث كُلَّهَا إلى الله تعالى وحده لا إلى أسبابها ونواميسها .

فهو خالقُ الأسباب والمسبَّبات[1] ، ولو شاء أن لا يؤثّر سببٌ في مُسَبِّبٍ ما أثَّرَ ، يَسْلُب سَبَبِيَّةَ الشيءِ إن شاء ، ويُبقيها إن شاء ، كما سَلَبَ النَّارَ قوَّةَ الإحراقِ للخليل .

وهو تعالى الشافي للمريض[2] ، ولو شاء أن لا يَبْرَأَ لا يقع البُرْء ،

---

(١) أي : خالق الأسباب المتوصَّل بها إلى المطلوب . قال أهل اللغة : السببُ الحبلُ ، وكلُّ شيء يتوصَّل به إلى أمر من الأمور . وفي عرف الشَّرع : ما يلزم من وجوده الوجود ، ويلزم من عدمه العدم لذاته " لوامع الأنوار البهيَّة" ١ :٣٩ .

قال ابن القيم في " الفوائد" ص١٣١ :" ليس في الوجود الممكن سببٌ واحدٌ مُسْتَقلٌّ بالتأثير ، بل لايؤثّر سبب ألبتَة إلاَّ بانضمام سببٍ آخر إليه ، وانتفاء مانعٍ يمنع تأثيره . هذا في الأسباب المشهودة بالعيَان .وفي الأسباب الغائبة ، والأسباب المعنويَّة – كتأثير الشَّمس في الحيوان والنبات – فإنّه موقوفٌ على أسبابٍ أُخَرَ من وجود محلٍّ قابل ، وأسباب أخَرَ تنضمُّ إلى ذَلِكَ السبب ، وكذلك حصول الولد موقوفٌ على عِدَّة أسباب غير وطْءِ الفحل ، وكذلك جميعُ الأسباب مع مُسبَّباتها . فكلُّ ما يُخاف ويُرجى من المخلوقات ، فأعلى غاياتِهِ أن يكون جزءَ سببٍ غيرَ مستقلٍّ بالتأثير . ولا يستقلُّ بالتأثير وحدَه دون توقُّف تأثيره على غيره إلاَّ اللهُ الواحدُ القهَّار، فلا ينبغي أن يُرجى ولا يُخاف غيره " .

(٢) فالله تعالى هو الشافي وحده ، ولا شفاء إلاَّ شفاؤه سبحانه ، وقد جعل سبحانه الشفاء منوطاً بأسباب قال تعالى في العسل:﴿ **فِيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ**﴾=

ولو انتظم له علاج لا يتخلَّف نفعه عادةً بتدبير ألفِ حكيم ، ولا يقال -حيث لم يشأ الله بُرْءَ المريض-: يقع الخطأُ في العلاج أو في استعماله ، فَإِنَّ هَذَا إيجابٌ لتأثير الأسباب تأثيراً حقيقيّاً ، وفكٌّ

= [النحل :٦٩] . وقال تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُو شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء :٨٢] وهناك أسباب من الأدوية المركَّبة والعقاقير ، روى مسلم ٤ :١٧٢٩(٢٢٠٤) وغيره عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :" **لكلِّ داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصيب دواءُ الدَّاء بَرأ بإذن الله تعالى** " .

وروى البخاري في كتاب الطب (٥٦٧٨) وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :" **مَاأنزلَ اللهُ تعالى من داء إلاَّ وأنزل له دواء** " ، فهذه الوسائل والوسائط هي بجَعْل الله سبحانه وتعالى ، وهو عز وجلَّ الشافي وحده .

وما أجمل ما قاله الإمام محمد بن أسلم الطوسي ت (٢٤٢) كما في ترجمته في " السِّير " ١٢ :٢٠٤:

إنَّ الطبيب بطبِّه ودوائِهِ ... لا يستطيعُ دفاعَ مقدورٍ أتى
ما للطبيب يموتُ بالداءِ الَّذي ... قد كان يُبري مثله فيما مضى
هَلَكَ المداوِي والمُداوَى والذي ... جَلَب الدواء وباعَه ومن اشترى

للحُكْم من يَدِ الله إلى يَدِ الأسباب ، فالحذر من اعتقاده[1].

(١) لأنَّ الفاعلَ الحقيقيَّ ومسبِّبَ الأسباب هو الله عَزَّ وَجَلّ ، وَكُلُّ ما يَجْري في الكون فبإرادته ، وإذا جَرَت سُنَّةُ الله تعالى في أمرٍ ما أن يحدثه بقرينةٍ دالّةٍ عليه ، فليس معنى ذَلِكَ أَنَّ القرينةَ هي المؤثِّرة في وجودِ ذَلِكَ الأمر ، لا ، إنّما المؤثِّرُ في وجوده وفي وجودِ تلك القرينة ، وفي وجودِ ذَلِكَ الأمر عند تلك القرينة إنما هو الله عَزَّ وَجَلّ.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه "الأم" ١: ٢٥٢: "وأما مَن قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشِّرك يعنونَ من إضافةِ المطر إلى أنه أمطره نَوْءُ كذا: فذلك كُفْرٌ ، كما قال رسول الله ﷺ، لأنَّ النَّوْءَ وقتٌ ، والوقتُ مخلوقٌ ، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ، فأمَّا من قال: مُطِرْنا بنوءِ كذا ، على معنى: مطِرْنا بوقتِ كذا ، فإنّما ذَلِكَ كقوله: مطِرْنا في شهرِ كذا ، ولا يكون هذا كُفْراً ، وغيرُهُ من الكلام أَحَبُّ إليَّ منه" انتهى . نقلاً من كتاب: "من صِحاح الأحاديث القدسية" ص ٥٥ .

وقال الإمام العز بن عبدالسلام (ت٦٦٠) في " شجرة المعارف والأحوال " ص٣٨٧في الإساءة القولية :" إضافة النعم إلى أسبابها دون المنعم بِهَا . قال الله تعالى ﴿ **قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** ﴾ [القصص :٧٨]، وقال : ﴿ **قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ** ﴾ [الزمر :٤٩] . إضافة النعم إلى أسبابها جحدٌ لإنعام الله، وكذلك إضافة النّعم إلى غيره ممن يعجز عنها. ولابأس بإضافتها إلى الأسباب مع ملاحظة كونها أسباباً . =

= وأنَّ المُنْعِم هو الله وحده . فإنّا أمرنا بشكر الأسباب أيضاً . قال تعالى:﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾ [لقمان :١٤] انتهى .

وقال الإمام النووي في شرح مسلم ٢: ٥٩: "اختلفوا في كراهته -أي التعبير نفسه مع الاعتقاد السليم- والأظهرُ كراهته ، لكنها كراهةُ تنزيهٍ لا إثم ، وسببُ الكَراهةِ أنها كلمةٌ مترَدِّدَةٌ بين الكفرِ وغيره ، فَيُسَاءُ الظَّنُّ بصاحبها ، ولأنَّها شِعارُ أهلِ الجاهلِيةِ ومَن سَلَكَ مسلكهم".

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في " لطائف المعارف " ص١٤٢ :" فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنَّه ليس من الله فهو شرك حقيقة ، ومع اعتقاده أنّه من الله فهو نوع شرك خفي ".

وقال الحافظ ابن رجب أيضاً في " فتح الباري " ٩:٢٦٠ :" فإضافة نزول الغيث إلى الأنواء -منازل القمر - إن أعتقد أنَّ الأنواء هي الفاعلةُ لذلك المُدبِّرة له دون الله عزَّوجل فقد كفر بالله وأشرك به كفراً ينقله عن ملّة الإسلام ، ويصير بذلك مرتدّاً حكمُهُ حكمُ المرتدِّين عن الإسلام إن كان قبل ذَلِكَ مسلماً ، وإن لم يعتقد ذَلِكَ : فظاهر الحديث يدلُّ على أنَّه كفر نعمة الله ، وقد جعله ابن عبَّاس كفراً بنعمة الله عزَّ وجل . والكفر كفران: كفرٌ يَنقل عن المِلّة ، وكفرٌ دون كفر لا ينقل عن المِلّة ، فإضافة النِّعم إلى غير المُنعم بهَا بالقول كفرٌ للمنعم في نعمه ، وإن كان الاعتقاد يخالف ذَلِكَ، والأحاديث والآثار متظاهِرَةٌ بذلك " .

ثمَّ قال ٩:٢٦٤ :" واختلفت الناس في قول القائل :" مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا" من غير اعتقادِ أهل الجاهلية : هل هو مكروهٌ أو محرَّمٌ ؟ فقالت =

ولا يترك تعاطي الأسباب إلاّ جاهل"[١] .

= طائفة:محرم ، وهو قول أكثر أصحابنا ، والنصوص تدلُّ عليه . وقالت طائفة : هو مكروهٌ ، وهو قول الشافعي وأصحابه وبعضُ أصحابنا " انتهى.
وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ١٠: ٥٦٥: "قال المحقّقون: من نَسَبَ شيئاً من الأفعالِ إلى الدَّهر حقيقةً كَفَرَ ، ومَن جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقدٍ لذلك فليس بكافر ، لكنه يكره له ذلك ، لشبهه بأهل الكفر في الإطلاق ، وتقويم اللسان وتنزيهُه عن المُشْتَبِهاتِ أمرٌ مطلوبٌ شرعاً".

(١) وذلك أنَّ كتاب الله تعالى و سنةَ رسول الله ﷺ -القوليَّةَ والعَمَليَّةَ والتقريريَّةَ- يدعوان إلى تعاطي الأسباب ، مع تعلُّق القلبِ بالله مسبِّب الأسباب ، وفي الحديث الّذي رواه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس بن مالك قال: جاء رجلٌ على ناقةٍ له ، فقال: يارسولَ الله ، أَدَعُها وأتوكّل؟ أو أُرْسلها وأتوكل؟ فقال ﷺ:**"اعقلها وتوكّل"** ، أي : شدَّ ركبة ناقتك مع ذراعها بحبلٍ وتوكّل. وأحاديثه ﷺ في الأخذ بالأسباب ، و الدعوةِ إلى العمل والسعي والكسب الحلال كثيرةٌ شهيرة.
وكان ﷺ يُعِدُّ العُدَّة ، ويُهيئُ الأسبابَ في غزواته وسَراياه ، ويَتَّخِذُ الاحتياطات اللازمة لسلامةِ جنوده ، كما هو واضحٌ في مغازيه وسيرته ﷺ.
قال القرطبي في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " ١١: ٢٠٢ : " ومنه : حفر النبيِّ ﷺ الخندق حَوْلَ المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكّل والثقة بربه بمحلٍّ لم يبلغه أحد. ثم كان من أصحابه مالا يجهله=

= أحدٌ من تحوُّلهم عن منازلهم مَرَّةً إلى الحبشة ، ومَرَّةً إلى المدينة ، تخوُّفاً من مُشْرِكي مكة ، وَهَرَباً بدينهم أن يَفتنوهم عنه بتعذيبهم "انتهى.
وقال القرطبي أيضاً في " الجامع " ٤:١٩٥ في تفسير قوله تعالى :﴿ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُم أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ**﴾ [آل عمران :١٢٤] :" نزول الملائكة سببٌ من أسباب النصر لا يحتاج إليه الربُّ تعالى ، وإنّما يحتاج إليه المخلوق ، فَلْيُعلِّق القلب بالله وليثق به ، فهو الناصرُ بسببٍ وبغير سبب ، ولكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خَلَتْ من قبل ، ولايَقْدح ذَلِكَ في التوكُّل ،وهو ردٌّ على من قال: إنّ الأسباب إنّما سُنّت للضعفاء لا للأقوياء ، فإنَّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء " انتهى .
والأخذُ بالأسباب سُنّةُ الأنبياء من قبله ، فهذا نوحٌ عليه السلام يصنعُ الفلك كما أمره الله تعالى: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾ [هود:٣٧]، وهذا يعقوب عليه السلام يوصي أبناءه قائلاً: ﴿**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادْخُلوا مِنْ أَبْوابٍ مُتفرِّقَة وَمَا أُغْني عَنْكُم مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ**﴾ [يوسف: ٦٧] .
وهذا يوسُف عليه السلام يضع لإنقاذِ مصرَ من القحط والمجاعة خطةً يقومُ على تنفيذها.
وقد أمرَ الله الصِّدِّيقةَ البَتول عليها السلام أن تهزَّ بجذعِ النخلةِ ليتساقط عليها الرُّطَب رعايةً للأخذِ بالأسبابِ ظاهراً: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً**﴾ [مريم: ٢٥] .
=

= قال القرطبي ١١:٣٢١ في تفسير قوله تعالى في داوود عليه السلام :
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء : ٨٠] :
"هذه الآية أصلٌ في اتّخاذ الصَّنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأنَّ ذَلِكَ إنما شُرِعَ للضعفاء ، فالسببُ سُنّة الله في خلقِهِ ، فَمَن طَعَن في ذَلِكَ فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنّة " .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في " مجموع الفتاوى " ٨:٥٢٩ فيمن ترك تعاطي الأسباب اتكالاً على الله :" وهذا القول وأمثاله من قلّة العلم بسنّة الله في خلقه وأمره ، فإنَّ الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة . فمن ظنَّ أنّه بمجرَّد توَّكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأنَّ المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً فهو غالط ".

وقال ابن القيّم رحمه الله تعالى في " مدارج السالكين " ٣:٤٧٨ :" والله أمرَ بالقيام بالأسباب فمن رفضَ ما أمره الله أن يقوم به فقد ضَادَّ الله في أمره ، وكيف يحلُّ لمسلمٍ أن يرفض الأسباب كُلّها " ؟.

وقال العلامة ابن القيم أيضاً في كتاب" الروح " ص٥٦٥ :" وأمَّا من عَطَّل الأسباب ، وزعم أنّه متوكّل فهو مغرورٌ مخدوع مُتَمَنٍّ ، كمن عطّل النكاح والتسرّي وتوكّل في حصول الولد ، وعطّل الحَرْثَ والبَذْرَ وتوكّل في حصول الزرع ، وعطّل الأكل والشرب وتوكّل في حصول الشِّبَع والرِّيِّ ، فالتوكل نظير الرجاء ، والعَجْزُ نظير التمنّي . =

= والربُّ أمر عبده بالاحتيال ، وتوكّل له أن يستخرج له من حيلتِهِ مايُصْلِحُهُ، فأمره أن يحرث ويَبْذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذَلِكَ ، كما قدَّره سبحانه ودبَّره واقْتضته حكمته ، وأَمَرهُ أن لايعلّق قلبه بغيره ، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه ، وأخبر أنّه سبحانه المليء بالوكالة ، الوفي بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره ، وقعد كسلان طالباً للراحة ، مُؤْثِراً للدَّعة".

ثم يقول رحمه الله تعالى :" ولم يكن في الصحابة من يعطّل السبب اعتماداً على التوكل ، بل كانوا أقوم الناس بالأمْرَيْن ، ألا ترى أنّهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم ، وقاموا في ذَلِكَ بحقيقة التوكل ، وعمروا أموالهم وأصلحوها ، وأعدُّوا لأهليهم كفايتهم من القوت ، اقتداءً بسيِّد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه " انتهى .

وقال ابن القيم مبيِّناً أقسام الأسباب الموصلة للمراد إلى مأمورٍ ومحرّمٍ ومباحٍ في كتابه " الفوائد " ص٢١٢-٢١٣ :" فإن كان السبب **مأموراً به** : ذُمَّ على تركه ، وإن قام بالسبب وترك التوكُّل ذُمَّ على تركه أيضاً ، فإنه واجب باتفاق الأمَّة ونصِّ القرآن ، والواجب : القيام بهما والجمع بينهما.

وإن كان السبب **محرَّماً** : حرُم عليه مباشرته ، وتوحَّد السبب في حقّه في التوكُّل فلم يبق سببٌ سواه ، فإنَّ التوكُّل من أقوى الأسباب في حصول المراد ، ودفع المكروه ، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق .

وإن كان السبب **مباحاً** ، نظرت : هل يُضعف قيامك به التوكل أو لا يُضعفه ؟ فإنْ أضعفه وفرّق عليك قلبك وشتّت همَّك ، فتَرْكُه أولى . =

= وإن لم يُضعفه ، فمباشرته أولى ؛ لأنّهُ حكمة أحكم الحاكمين اقْتضَت ربط المسبَّب به ، فلا تعطِّل حكمته مهما أمكنك القيام بهَا ، ولا سيِّما إذا فعلته عبوديَّة ، فتكون قد أدَّيْت عبودية القلب بالتوكل ، وعبودية الجوارح بالسبب المنويِّ به القربة .

والذي يحقّق التوكل : القيام بالأسباب المأمور بهَا ، فمن عطّلها لم يصحَّ توكله، كما أنَّ القيام بالأسباب المُفْضية إلى حصول الخير يحقّق رجاءه ، فمن لم يقم بهَا كان رجاؤه تمنياً ، كما أنَّ من عطّلها يكون توكُّله عجزاً ، وعجزه توكُّلاً " .

وقال الحافظ ابن رجب في " جامع العلوم والحكم " ٢:٤٩٨ :"فتحقيق التوكل لاينافي السعي في الأسباب التي قدّر الله سبحانه المقدورات بهَا ، وجرت سنّته في خَلقِهِ بذلك ، فإنَّ الله أَمَرَ بتعاطي الأسباب مع أمرِهِ بالتوكُّل ، فالسعيُ في الأسبابِ : طاعةٌ له ، والتوكُّل بالقلب : إيمانٌ به .

قال سهل التُّستَري : من طَعَنَ في الحركة -يعني في السعي والكسب -فقد طعن في السنّة ، ومن طعن في التوكُّل فقد طعن في الإيمان " انتهى .

وقال العلاّمة ابن أبي العزِّ الحنفي في "شرح العقيدة الطحاوية " ٢:٦٧٩ : "وممَّا ينبغي أن يُعلَم ، ماقاله طائفةٌ من العلماء ، وهو: أنَّ الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع ، ومعنى التوكل والرجاء ، يتألَّفُ من موجبِ التوحيد والعقل والشرع " اهـ.وسيأتي مزيد تفصيل عند قول المصنِّف رحمه الله تعالى :" لايُترك تعاطي أسباب المنافع ، وتجنُّب أسباب المضار ، وإعداد القوة لدفع البلاء بقدر الاستطاعة "ص(٣٥٧) .

(فَصْل)

س٢٨- ما بِدْعة العقيدة في هَذَا العلم؟

كُلُّ عقيدةٍ حَدَثَتْ بعدَ الصَّحابة فهي مُبْتَدَعَةٌ[1] ،

(١) وقد ظهرت البدع والفرق بعد مقتل عثمان رضي الله عنه . قال الحافظ الذهبي في تحديد ظهور البدع ونشوء الفِرَق في " سير أعلام النبلاء " ١١:٢٣٦ : "كان النّاس أمّة واحدة ، ودينهم قائماً في خلافة أبي بكر وعمر ، فلمَّا استُشهد قُفْل باب الفتنة عمر رضي الله عنه ، وانكسر الباب ، قام رؤوس الشرِّ على الشهيد عثمان حتّى ذُبح صَبْراً ، وتفرَّقت الكلمة ، وتمَّت وقعة الجمل ، ثمَّ وقعة صفّين ، فظهرت **الخوارج** وكفَّرت سادات الصحابة ، ثمَّ ظهرت **الروافض والنواصب** ، وفي أواخر زمن الصحابة ظهرت **القدرية** ، ثمَّ ظهرت **المعتزلة** بالبصرة ، **والجهميَّة والمجسِّمة** بخُراسان في أثناء عصر التابعين " .

وقال الذهبي في " المنتقى من منهاج الاعتدال " ص٣٨٦-٣٨٧ :" فإنّه كلّما تأخّر العصر عن النبوَّة كثُر التفرُّق والاختلاف ، ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة ، فلمَّا قُتِل وتفرَّق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة **الخوارج** المكفرِّين لعلي ، وبدعة **الرَّافضة** المدَّعين لإمامته وعصمته أونبوَّته أو إلهيته ، ثمَّ لَمَّا كان في آخر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبدالملك حدثت بدعة **المرْجئة والقَدَرية** ، ثمَّ لَمّا كان في أوَّل عصر =

= وإن لم يُضعفه ، فمباشرته أولى ؛ لأنَّـهُ حكمـة أحكـم الحـاكمين اقْتضَـت ربـط المسبَّب به ، فلا تعطِّل حكمته مهمـا أمكنـك القيـام بِهَـا ، ولا سـيّما إذا فعلتـه عبوديَّة ، فتكون قد أدَّيْت عبودية القلب بالتوكل ، وعبوديـة الجـوارح بالسـبب المنويِّ به القربة .

والذي يحقِّق التوكل : القيام بالأسباب المأمور بِهَا ، فمن عطَّلها لم يصحَّ توكله، كما أنَّ القيام بالأسباب المُفْضية إلى حصول الخير يحقِّق رجاءه ، فمن لم يقم بِهَـا كان رجاؤه تمنياً ، كما أنَّ من عطَّلها يكون توكُّله عجزاً ، وعجزه توكُّلاً " .

وقال الحافظ ابن رجب في " جامع العلوم والحكم " ٢:٤٩٨ :"فتحقيق التوكـل لاينافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بِهَا ، وجرت سنَّته في خَلقِهِ بذلك ، فـإنَّ الله أَمَرَ بتعـاطي الأسـباب مـع أمـرِهِ بـالتوكُّل ، فالسعيُ في الأسبابِ : طاعةٌ له ، والتوكُّل بالقلب : إيمانٌ به .

قال سهل التُّستَري : من طَعَنَ في الحركة -يعني في السعي والكسب- فقد طعـن في السنَّة ، ومن طعن في التوكُّل فقد طعن في الإيمان " انتهى .

وقال العلاَّمة ابن أبي العزِّ الحنفي في "شرح العقيدة الطحاوية " ٢:٦٧٩ : "وممَّـا ينبغي أن يُعلَم ، ماقاله طائفةٌ من العلماء ، وهو: أنَّ الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكـون أسباباً نقـصٌ في العقـل، والإعـراض عـن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع ، ومعنى التوكل والرجاء ، يتألَّفُ مـن موجِـب التوحيد والعقل والشرع " اهـ.وسيأتي مزيد تفصيل عند قول المصنِّـف رحمـه الله تعالى :" لايترك تعاطي أسباب المنافع ، وتجنُّـب أسباب المضـار ، وإعـداد القـوة لدفع البلاء بقدر الاستطاعة "ص(٣٥٧) .

(فَصْل)

س٢٨- ما بِدْعة العقيدة في هَذَا العلم؟

كُلُّ عقيدةٍ حَدَثَتْ بعدَ الصَّحابة فهي مُبْتَدَعَةٌ[1] ،

(١) وقد ظهرت البدع والفرق بعد مقتل عثمـان ﷺ . قـال الحـافظ الذهـبي في تحديد ظهور البـدع ونشـوء الفِـرَق في " سـير أعـلام النبـلاء " ١١:٢٣٦ : "كان النَّاس أمَّة واحدة ، ودينهم قائمـاً في خلافـة أبـي بكـر وعمـر ، فلمَّـا استُشهد قُفْل باب الفتنة عمر ﷺ ، وانكسر الباب ، قام رؤوس الشرِّ علـى الشهيد عثمان حتَّى ذُبح صَبْراً ، وتفرَّقت الكلمة ، وتمَّت وقعة الجمل ، ثـمَّ وقعة صفِّين ، فظهرت **الخوارج** وكفَّـرت سـادات الصحابـة ، ثـمَّ ظهـرت **الروافض والنواصب** ، وفي أواخر زمـن الصحابـة ظهـرت **القدريـة** ، ثـمَّ ظهرت **المعتزلـة** بـالبصرة ، **والجهميَّـة والمجسِّـمة** بخُراسـان في أثنـاء عصـر التابعين " .

وقال الذهـبي في " المنتقـى مـن منهـاج الاعتـدال " ص٣٨٦-٣٨٧ :" فإنَّـه كلَّما تأخَّر العصر عن النبوَّة كثُر التفرُّق والاختـلاف ، ولهـذا لم يحدث في خلافـة عثمـان بدعـة ظـاهرة ، فلمَّـا قُتِـل وتفـرَّق النـاس حدثـت بدعتـان متقابلتان: بدعة **الخوارج** المكفرِّين لعلي ، وبدعة **الرَّافضـة** المدَّعـين لإمامتـه وعصمته أونبوَّته أو إلهيته ، ثمَّ لمَّا كان في آخر الصحابة في إمارة ابـن الزبـير وعبدالملك حدثت بدعة **المرْجئة والقَدَرية** ، ثمَّ لمَّا كان في أوَّل عصـر =

= التَّابعين حدثت بدعة **الجهميـة والمشبِّهة والمُمَثِّلـة** ...ولم يكـن علـى عهـد الصحابة شيءٌ من ذَلِكَ " انتهى .

وقـال العلاَّمـة محمـد بـن إبراهيـم الوزيـر (ت ٨٤٠) رحمـه الله تعـالى في "الروض الباسم " ٣٢٢:٢ " كان المسلمون أمَّةً واحدة في عهـد رسـول الله ﷺ وأيَّام الخلفاء الراشدين رضـي الله عنهـم ، ليـس بينهـم خـلافٌ في أمـر العقيدة ، وعلم من النَّبي ﷺ ومن الخلفاء الراشـدين والسَّـلف الصـالحين أنَّ الَّذِي كان في أعصارهم هو سبيل الهدى ، ومنهج الحق ، وطريق السلامة"، ثمَّ قال ٣٩٩:٢ :" وبالجملة : فمن أحدث عقيدةً لم تكـن مشـهودة وقـت رسول ﷺ ودعا النَّاس إليها ، وحملهم عليها ، مع سـكوت رسـول الله ﷺ عنها ، وعـدم تعرُّضـه لهـا ، فليـس بسُنِّي العقيـدة ، ولا سـالك عنـد أهـل الحديث الطريق الحميدة " انتهى .

وقال الحافظ في " الفتح" ٢٥٣:١٣ :" وَمِمَّا حدث أيضـاً –أي بعـد عصـر الصحابة– تدوينُ القول في أصول الديانات ، فتصـدَّى لهـا المُثْبِتـة والنفـاة ، فبالغ الأول حتَّى شبَّه ، وبـالغ الثـاني حتَّـى عطَّـل ، واشـتدَّ إنكـار السَّـلف لذلك ، كأبي حنيفة ، وأبـي يوسُـف ، والشـافعي ، وكلامهـم في ذمِّ أهـل الكلام مشهور ، وسببُه أنَّهم تكلَّموا فيما سكت عنه النـبيُّ ﷺ وأصحابـه ، وثبت عن مالك : أنَّه لم يكن في عهد النَّبي ﷺ وأبي بكر وعمـر شـيء مـن الأهواء . =

ومعتقِدُهَا بِدْعِيٌّ فيها[١] ، وإنْ كـان مـن أهـلِ السُّـنَّةِ في غيرِها[٢].

= وقد توسَّع من تأخَّر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ، ولم يقْتنعوا بذلك حتَّى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسـفة أصلاً يـردُّون إليـه مـا خالفـه مـن الآثـار بالتأويل ، ولو كان مُسْتَكرهاً ، ثمَّ لم يكتفوا بذلك حتَّـى زعمـوا أنَّ الَّـذِي رتَّبوه هـو أشـرف العلوم وأولاهـا بـالتحصيل ، وأنَّ مـن لم يستعمل مـا اصْطَلحوا عليـه فهـو عـامِّيٌّ جـاهل ، فالسـعيد مـن تمسَّـك بمـا كـان عليـه السَّلف، واجْتَنَب ما أحدثه الخَلَف ". انتهى .

(١) قال الحافظ في " الفتح " ١٨٨:٢ :" المبتدع من اعتقد شيئاً مما يخـالف أهـل السنَّة والجماعة " ، وقـال الحـافظ في " هـدي السـاري " ص٣٨٥ :" وأمـا البدعة فالموصوف بهَا إما أن يكون ممن يُكَفَّر بهَـا أو يُفَسَّـق ، فـالمكفَّر بهَـا لابد أن يكون ذَلِكَ التكفير متَّفقاً عليه من قواعـد جميـع الأئمـة ، كمـا في غلاة الروافض من دعوى بعضهم حلول الإلهيَّة في علي أو غيره ، أو الإيمـان برجوعه إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، أو غير ذَلِـكَ ..والمفسَّـق بِهَـا ، كبـدع الخوارج ، والروافض الَّذِينَ لايغلون ذَلِكَ الغلوّ ، وغير هؤلاء من الطوائـف المخالفين لأصول السنَّة خلافاً ظاهراً ، لكنه مستندٌ إلى تأويلٍ ظاهرُهُ سائغ "

(٢) قال الحافظ الذهبي في " سـير أعـلام النبـلاء " ٢٧١:٥ في ترجمـة قتـادة بـن دِعَامة السَّدوسي :" وكان يرى القدر ، نسأل الله العفو ، ومع هذا فما =

س٢٩- هل يجوزُ أن يُوصَفَ اللهُ تَعالَى بِما لَم يَثْبُت في الشَّرْع إذا كانَ وَصْفَ كمال؟

صِفَاتُه وأسماؤُهُ تعالى توقيفيَّة ، فلا يجوزُ أن يُوصَفَ إلاَّ بما وصَفَ بِهِ نَفْسَه أو وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه[1] .

= توقّف أحدٌ في صدقه وعدالته وحفظه ، ولعلَّ الله يعذر أمثاله ممَّن تلبَّس ببدعة يريد بهَا تعظيم الباري وتنزيهَهُ ، وبذل وسعه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لطيف بعباده ، ولا يُسأل عمَّا يفعل . ثمَّ إنَّ الكبير من أئمة العلم إذا كثُر صوابه ، وعُلم تحرِّيه للحق ، واتَّسع علمه ، وظهر ذكاؤه ، وعُرف صلاحه وورعه واتباعه ، يغفر له زلله ، ولانضلِّله ونطرحه ، وننسى محاسنه . نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ، ونرجو له التوبة من ذَلِكَ " .

وقال أيضاً في " السِّير " ٢٠:٤٥-٤٦ :" نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد ، وَنَبْرأُ إلى الله من الهوى والبدع ، ونحبُّ السنَّةَ وأهلَها ، ونحبُّ العالِمَ على ما فيه من الاتِّباع والصِّفَاتِ الحميدة ، ولا نحبُّ ما ابتدع فيه من بتأويلٍ سائغ ، وإنَّما العبرةُ بكثرة المحاسن " انتهى .

(١) قَالَ الإمام الخطابي فِي "شأن الدعاء" ص ١١١-١١٢ موضِّحاً لهذا الأصل من أصولِ الأسماء والصفات: "لا يتجاوز فيها التوقيف ، ولا يستعمل فيها القياس ، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارفِ الكلام.

فالجواد لا يجوز أن يقاس عليه السَّخيُّ -وإن كانا متقاربَيْن في ظاهر الكلام- وذلك أنَّ السخيَّ لم يرد فيه التوقيف كما ورد بالجواد ، ثُمَّ إنَّ =

= السخاوةَ موضوعةٌ في بابِ الرَّخاوة واللين ، وكذلك لا يُقاسُ عليه السَّمْح لِمَا يدخل السَّماحةَ من معنى اللين والسهولة ، وأما الجواد فإنما هو سَعَةُ العطاء.

وقد جاء في الأسماء: **القوي** ، ولا يُقاسُ عليه الجَلْد - وإن كانا يتقاربان في نُعوتِ الآدَميِّين- ؛ لأنَّ باب التَجلُّد يدخله التكلُّفِ والاجتهاد.

ولا يقاس على **القادر** المُطيق ، ولا المُسْتطيع ؛ لأنَّ الطاقةَ والاستطاعة إنَّمَا تُطلَقان على معنى قوةِ البنيةِ وتركيبِ الخِلْقَة.

ولا يُقاس على **الرحيم** الرقيق ، وإن كانت الرَّحمةُ في نعوتِ الآدميِّين نوعاً من رقةِ القلب وضعفه عن احتمالِ القسوة .

وفي صفاتِ الله سُبْحَانَهُ: **الحليم والصَّبور** ، فلا يجوز أن يُقاسَ عليها الوقور والرَّزين.

وفي أسمائه: **العليم**: ، ومِن صفته: **العلم** ، فلا يجوزُ قياسه عليه أن يسمى عارفاً ، لِما تقتضيه المعرفةُ من تقديم الأسبابِ الَّتِي بها يُتَوَصَّل إلى علمِ الشيء ، وكذلك لا يوصف بالعاقل . وهذا البابُ يجب أن يراعى ولايُغفل، فإنَّ فائدته عظيمة ، والجهلَ به ضارٌ ، وبالله التوفيق " انتهى .

وقال العلاَّمة الخازن ٢:٥١٥ في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَللهِ الأَسْمَاء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف :١٨٠] " يعني ادْعو الله سبحانه بأسمائه التي سَمَّى بهَا نفسَه أو سمَّاه بهَا رسولُه ﷺ . ففيه دليلٌ على أنَّ أسماء الله توقيفيَّة لا اصطلاحية ، وَمِمَّا يدلُّ على صحَّة هذا القول ويؤكِّده أنَّه يجوز أن يقال:ياجواد ، ولايجوز أن يقال : ياسخيُّ ، ويجوز أن يقال : ياعالمُ ، =

= ولايجوز أن يقال : ياعاقل ، ويجوز أن يقال : ياحكيم ، ولايجوز أن يقال: ياطبيب ". انتهى .فأسماء الله عزّوجل متوقفةٌ على الإذْن الشرعي في إطْلاقها،ولايجوزُ فيها القياس اللغوي .

وأسوقُ إليك -أيُّها القارئ- هذه المناظرة التي جَرَت بين الإمام أبي الحسن الأشعري البصري وبين أبي علي الجُبَّائي المعتزلي كما ذكرها السبكي في "طبقاته" ٣:٣٥٧-٣٥٨ فقال:" دخل رجلٌ على الجُبَّائي فقال : هل يجوز أن يُسَمَّى الله تعالى عاقلاً ؟ فقال الجبَّائي : لا ؛ لأنَّ العَقْل مشتقٌ من العِقال، وهو المانع ، والمنعُ في حق الله مُحَال ، فامتنع الإطلاق .

قال الشيخ أبو الحسن :فقلت له : فعلى قياسك لايُسمَّى الله سبحانه حكيماً؛ لأنَّ هذا الاسم مُشتقٌ من حَكَمة اللِّجام ، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج .

فإذا كان اللفظ مُشتقاً من المنع ، والمنع على الله مُحَال ، لَزِمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى .

قال : فلم يُحِرْ جواباً ، إلاَّ أنَّه قال لي : فلِمَ منَعْتَ أنت أن يُسمّى الله عاقلاً، وأَجزْتَ أن يُسمّى حكيماً ؟ قال : فقلت له : لأنّ طريقي في مَأْخذ أسماء الله الإذنُ الشّرعي دون القياس اللغوي ، فأطْلَقتُ حكيماً ؛ لأنّ الشّرع أطْلَقَه ، ومنعتُ عاقلاً لأنّ الشّرع مَنَعَه ، ولو أطْلَقَه الشّرع لأطْلَقتُه".

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في " طريق الهجرتين " ص:٤٦٣-٤٦٧ في ردِّه على من يجوِّز إطلاق الشوق على الله سبحانه :"والصواب أن يُقال: =

= إطلاقه متوقّف على السمع و لم يرد به ، فلا ينبغي إطلاقه .. فإنَّ الله سبحانه يوصف من كلِّ صفةِ كمال بأكملها وأجلِّها وأعلاها ، فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة ، وحصول كل ما يريد بإرادته ، كما قال تعالى : ﴿ **فعَّال لِمَا يُريد** ﴾ [البروج :١٦] ، وبإرادة اليُسر لا العسر ، كما قال تعالى: ﴿ **يُريدالله بكُم اليُسْرَ ولا يُريدُ بكُمُ العُسْرَ** ﴾ [البقرة:١٨٥] وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده كقوله : ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم** ..﴾ [النساء :٢٧] وقوله تعالى :﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة :٦] .

وكذلك **الكلام** يصف نفسه بأعلى أنواعه ، كالصدق والعدل والحق ، وكذلك **الفعل** يصف نفسه منه بأكمله ، وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة . وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العُلى أكمل معنىً ولفظاً مما لم يُطْلقه : **فالعليم الخبير** أكمل من الفقيه العارف ، **والكريم الجواد** أكمل من السَّخي ، و **الخالق البارئ المصوِّر** أكمل من الصانع الفاعل ، ولهذا لم تجئْ هذه في أسمائه الحسنى ، **والرحيم الرؤوف** أكمل من الشفيق ، فعليك بمراعاة ما أطلقه الله على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها ، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته ، وحينئذٍ فيُطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ، ولا سيَّما إذا كان مُجمَلاً أو منقسماً إلى ما يُمدح به وغيره ، فإنّه لايجوز إطلاقه إلاَّ مقيَّداً ، وهذا كلفظ الفاعل والصانع ، فإنّه لا يُطلق عليه =

= في أسمائه الحسنى إلاَّ إطلاقاً مقيَّداً أطلقه على نفسه ، كقوله تعالى : ﴿فعَّالٌ لما يُريد﴾ [البروج : ١٦]، ﴿ ويَفْعَلُ اللهُ مَـا يَشَـاءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] ، وقوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٨٨]، فإنَّ اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يُمْدح عليه ويُذم . ولهذا المعنى -والله أعلم- لم يجئ في الأسماء الحسنى : المريد كما جاء فيها السميع البصير ، ولا المتكلم ولا الآمر الناهي ، لانقسام مسمَّى هذه الأسماء ، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها .

ومن هنا يُعلَم غَلَطُ بعض المتأخرين وزلَقُه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مُطْلقاً ، فأدخله في أسمائه الحُسْنى ! فاشتقَّ له اسم : الماكر ، والخادع ، والفاتن ، والمضل ، والكاتب ونحوها من قوله تعالى :﴿ويَمْكُرُ الله﴾ [الأنفال :٣٠] ، ومن قوله تعالى:﴿ وَهُوَ خَادِعُهُم﴾ [النساء :١٤٢]، ومن قوله تعالى:﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه:١٣١] ، ومن قوله تعالى :﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الرعد :٢٧] وقوله تعالى :﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ ﴾ [المجادلة:٢١].وهذا خطأ من وجوه :

أحدها : أنَّه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء ، فإطلاقها عليه لا يجوز .

الثاني : أنَّه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيَّدة ، فلا يجوز أن ينسب إليه مُسمَّى الاسم عند الإطلاق . =

= **الثالث** : أنَّ مُسمَّى هذه الأسماء منقسمٌ إلى ما يُمدح عليه المسمَّى به ، وإلى ما يذم، فَيَحْسُنُ في موضع ، ويَقْبُحُ في موضع . فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع : أنَّ هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يُسمَّى بهَا سبحانه ، فلا يجوز أن يسمى بهَا ، فإنَّ أسماء الرَّب كُلَّهَا حسنى ، كما قال تعالى : ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف :١٨٠] وهي التي يحبُّ سبحانه أن يثنى عليه ويُحمد ويُمجَّد بهَا دون غيرها .

الخامس : أنَّ هذا القائل لو سُمِّي بهذا الاسماء ، وقيل له : هذه مِدْحَتُك وثناءٌ عليك ، فأنت الماكر الفاتن المخادع المُضلُّ اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدُّها مدحة ، ولله المثل الأعلى ، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الجاهلون به علواً كبيراً .

السادس : أنَّ هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه : اللاعن والجائي و الآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصَّادق والمنزِّل والنازل والمُدَمْدِم والمدمِّر . وأضعاف أضعاف ذَلِكَ ، فيشتق له اسماً من كلِّ فعل أخبر به عن نفسه ، وإلاَّ تناقض تناقضاً بيِّناً ، ولا أحد من العقلاء طرد ذَلِكَ ، فيُعلم بطلان قوله، والحمدلله رَبِّ العالمين " انتهى.

وكما يمتنع القياسُ اللغوي ، واشتقاق الأسماء الحسنى من صفات الأفعال ، فلا يسمَّى الله تعالى راضياً ولا ساخطاً ولا غاضباً ولا ماكراً ولا مهلكاً ، ولا غير ذَلِكَ من الأسماء اشتقاقاً من صفات فعله : الرِّضا ، والسَّخط ، والغضب ، والمكر، والإهلاك . يمتنع كذلك القياس لصفاتِهِ بصفات =

= خلقه بأيِّ وجه من الوجوه ، كقول من قال : (لله عينان) على التَّثنية استدلالاً بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في المسيح الدجَّال : " **إنَّه أعور ، وإنَّ ربَّكم ليس بأعور** " (متَّفق عليه من حديث أنس) ، والعَوَر في اللغة : زوال حاسَّة البصر في إحدى العينين ، فحيث نفاه عن الله تعالى ، فقد دلَّ على أنَّ له عينين صحيحتين !! فهذا القول زيادةٌ على الأدلة بتفسير استفيد من العُرف في المخلوق ، وإنَّما نفى الحديث عن الله تعالى العَوَر ، وإثباتُ لازمه يجب أن يكون بالنَّص ، والنَّصُّ إنَّما جاء بإثبات كمال البصر لله رَبِّ العالمين ، فيتوقَّف عنده من غير زيادة ، ونُثبتُ للهِ العينَ ، كما أخبر هو نفسه تعالى ، ولايقال : (له عينان) لعدم ورود ذَلِكَ صريحاً في النصوص ، إلاَّ في حديث موضوع (تيسير علم أصول الفقه ، ليوسف الجديع ص٣٧٨-٣٧٩) .

وقال ابن حزم في " الفِصَل في الملل والنِّحَل " ١:١٦٦ :" ولا يجوز لأحد أن يصف الله سبحانه بأنَّ له عينين ، لأنَّ النص لم يأت بذلك " انتهى .

بقي أنْ أُنبِّه إلى أنَّ بعض العلماء فرَّق بين ما يُطْلَق على الله سبحانه في باب الأسماء والصفات وما يُطْلَق عليه في باب الإخبار ، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في " الجواب الصحيح " ٣:٢٠٣ :" والصواب : أن يفرَّق بين أن يدعى بالأسماء أو يُخبر بهَا عنه ، فإذا دعا لم يدع إلاَّ بالأسماء الحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . وأمَّا الإخبار عنه فهو =

س٣٠- ما الحكمُ فيمن قال كلمةَ تحقيرٍ في بعضِ الأنبياءِ أو الملائكة أو الكُتُب الإلهيَّة؟

يكفُرُ بذلك [(١)] .

= بحسب الحاجة ، فإذا احتيج في تفهيم الغير المراد إلى أن تُترجَم أسماؤه بغير العربية ، أو يعبَّر باسم له معنى صحيح لم يكن ذَلِكَ محرماً " .

وقال العلاَّمة السَّفاريني في " لوامع الأنوار البهيَّة " ١:٤٠ عند شرحه لقوله:

الحمدُ للهِ القديمِ الباقي   مُسبِّب الأسباب والأرزاقِ

فإن قلتَ : هل من أسمائه تعالى المسبِّب حتَّى أطلقته عليه مع أنَّ أسماءه توقيفيَّة أم كيف الحكم ؟ قلت : ذكر غير واحد من المحققين منهم الإمام المحقِّق ابن القيِّم في " بدائع الفوائد " ١:١٧٠ أنَّ ما يُطلق عليه سبحانه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يُطلق عليه في باب الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيَّاً ، كالقديم والشيء والموجود أو القائم بنفسه . قال في "البدائع " ١:١٧٠ :" فهذا فصْل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفيَّة أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لا يرد به السَّمع " انتهى . وقال ابن القيِّم في "المدارج " ٣:٤١٥:" باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به ، فإنَّه يُخْبَرُ عنه بأنَّه شيءٌ وموجود ومذكورٌ ومعلومٌ ومُراد ، ولا يُسمَّى بذلك " انتهى.

(١) قال الإمام الفخر الرازي في "تفسيره الكبير" ١٦:١٢٤ :" إنَّ الاستهزاء بالدين كيف كان كُفْرٌ بالله ؛ وذلك لأنَّ الاستهزاء يدلُّ على الاستخفاف، والعُمْدة الكبرى في الإيمان : تعظيمُ الله بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما =

= مُحالٌ " ؛ لأنَّ الإيمان مبنيٌّ على التعظيم والإجلال للربِّ عزّوجل ، وملائكتهِ ، وكتبهِ ورسلِهِ ، ولاشك أنَّ تحقير شيئٍ من هذه الأركان الإيمانية يُناقِض التعظيم والإجْلال.

قال الشيخ ابن تيمية في " الصَّارم المَسْلول "ص ٣٢٤ :" فمن اعتقد الوحدانية في الإلهيَّة لله سبحانه وتعالى ، والرسالة لعبدهِ ورسوله ، ثمَّ لم يُتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام ، الَّذِي هو حالٌ في القلب يظهر أثره على الجوارح ، بل قارنه الاستخفاف والتَّسْفيه والازْدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذَلِكَ الاعتقاد كعدمِهِ ، وكان ذَلِكَ مُوجباً لِفَسَاد ذَلِكَ الاعتقاد " .

وأمّا تحقير النَّبيِّ ﷺ بسبٍّ أو استهزاءٍ أو إيذاء فهو كفرٌ مُخرجٌ من الملّة سواءٌ استحلَّ ذَلِكَ أو لم يستحلّه .

قال القاضي عياض في " الشفاء " ٢:٩٢٦-٩٢٧ :" دلّت نصوصُ الكتاب والسنّة وإجماع الأمة على تعظيم الرسول ﷺ وتوقيره وإكرامه ، ومن ثَمَّ حرَّم الله تعالى أذاه في كتابه ، وأجْمعت الأُمَّة على قَتْل مُنتَقِصه من المسلمين وسابّه . قال تعالى:**﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾** [الأحزاب :٥٧] انتهى .

وقال أيضاً ٢:٩٣٢ :" اعلم -وفقنا الله وإيَّاك - أنَّ جميع من سبَّ النبيَّ ﷺ أو عابَهُ ، أو ألحق به نَقْصاً في نفسه أونسبِهِ ، أو دينِهِ ، أو خَصْلَةٍ من خصالِهِ ، أو عَرَّض به ، أو شَبَّهَهُ بشيءٍ عن طريق السبِّ له ، أو الإزْراء عليه ، أو التصغير لشأنه ، أو الغضِّ منه ، والعَيْب له ، فهو سابٌّ له ، =

= والحكمُ فيه حكمُ السابِّ ، وكذلك من لعنه أو دَعَا عليه ، أو تمنّى مضرَّةً له ، أو نَسبَ إليه مالايليق على طريق الذم ، أو عَبَثَ في جهته العزيزة بسُخْفٍ من الكلام وهُجْرٍ ، ومنكر من القول وزور ، أو عيَّره بشيء مّما جَرى من البلاء والمحنة عليه ، أو غَمَصَه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه ، وهذا كلُّه إجماعٌ من الصحابة وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلمَّ جرّاً " إلى أن قال :" ولانعلم خلافاً في استباحة دمه -يعني سابَّ الرسول ﷺ - بين علماء الأمصار وسلفِ الأمة ، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره " انتهى .

وقال سلطان العلماء العزُّ بن عبدالسلام في " شجرة المعارف " ص٣٥٤ :
"سوء الأدب على الرسول ﷺ مُحبط للأعمال ، لاحتقار ما عظَّم الله ، وأيُّ حرمةٍ أكمل من حرمةِ رُسل الله ! " انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في" الصارم المسلول " ص٤٦٥ :" قد اتفقت نصوص العلماء من جميع الطوائف على أنّ التنقُّص له كفرٌ مبيح للدم. ولافرق في ذَلِكَ بين أن يقصد عَيْبَهُ لكن المقصود شيئ آخر حَصل السبُّ تبعاً له ، أو لا يقصد شيئاً من ذَلِكَ ، بل يهزل ويمزح أو يفعل غير ذَلِكَ " .

وقال الإمام السبكي في "الفتاوى " ٢:٥٧٣ :" أمّا سبُّ النبيِّ ﷺ فالإجماع مُنعقدٌ على أنه كفر ، والاستهزاء به كفر " .

ويُنْظَر : "الصَّارم المسْلول على شاتم الرسول " لابن تيمية ، وهو من أوسع ما أُلِّف في هذا الموضوع ، و" السيف المسلول على من سبَّ الرَّسول " =

= للسبكي ، و"تنبيه الولاة والحكام على أحكام شاتم خير الأنام " لابن عابدين ضمن مجموعة رسائله .

وكذلك الحكم في سائر الأنبياء عليهم السلام ، فأيُّ قولٍ فيه استهزاء بهم أو تنقُّص لهم أو طعن بهم أو سبهم ، فهو كفرٌ وردَّة عن الإسلام .

قال القاضي عياض في "الشفا" ١٠٦٩:٢ :" من استخفَّ بمحمدٍ أو بأحدٍ من الأنبياء أو أَزْرى عليهم أو آذاهم ...فهو كافرٌ بالإجماع "انتهى.

وكذلك الحكم في تحقير الكتبِ المنزلة والاستخفافِ والاستهزاء بِهَا فهو كافر بالإجماع .

قال القاضي عياض في "الشفا" :" ١١٠١:٢ :" اعلم أنَّ من استخفَّ بالقرآن ، أو المصحف ، أو بشيءٍ منه ، أو سبَّهما ، أو جَحَده ، أو حَرْفاً منه ، أو آيةً ، أو كذَّب به ، أو بشيءٍ منه ، أو كذَّب بشيءٍ ممَّا صُرِّح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت مانفاه ، فهو كافرٌ عند أهل العلم بإجماع".

وكما يكفر من قال كلمة تحقير في بعض الأنبياء أو الملائكة أو الكتب الإلهية ، كذلك يكفر من أتى بعملٍ فيه تحقيرٌ واستهزاء واستخفاف وامتهان؛ مثل أن يضع المصحف تحت قدمه ، أو يلقيه في القاذورات .

قال الإمام النووي في "روضة الطالبين" ٦٤:١٠ :" الأفعالُ الموجبةُ للكفر هي التي تصدر عن تعمُّد واستهزاء بالدين صريح ، كإلقاء مصحف في القاذورات " . =

س٣١- ما القولُ في الكرامات؟

كراماتُ الأولياء حقٌّ [1]

= وقال سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام رحمه الله تعالى في رسالته إلى الملك الأشرف موسى كما في "طبقات الشافعية الكبرى" ٢٣٣:٨ :" إنَّ تعظيم المصحف واجبٌ، وعندنا أنَّ من استهان بالمصحف أو بشيء منه فقد كفر، وانفسخ نكاحه ، وصار مالُهُ فَيْئاً للمسلمين ، ويضرب عنقه ، ولا يُغسَّل ولا يُكفَّن ولا يُصلَّى عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، بل يترك بالقاع طُعمة للسِّباع " انتهى .

(١) قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٢٠ في " الفتاوى " ٥٧٩:١ :" إنَّ إنكارها - أي الكرامة - والتكذيب بِهَا بدعة بثَّها في النَّاس أهل الزيغ والتعطيل الَّذِينَ لايقرُّون بالوحي والتنزيل ، ويجحدون آيات الأنبياء والمرسلين ، ولا يعتقدون أنَّ لهم رباً وخالقاً يفعل ما يشاء ، ويقدر على ما أراد من جميع الأشياء ، كي يوقعوا في نفوس الجهَّال والأغبياء إبطال معجزات الأنبياء من ناحية إبطال كرامات الأولياء ؛ إذ هي من قبيل واحد في أنَّها ليست من مقدورات البشر " .

ثم قال ٥٨١:١ :" ولوجودها وصحتها في الجملة طريقان : **أحدهما** : التواتر في النقل الَّذِي يوجب العلم، ويقطع العذر ، وذلك أنَّه قد روي منها، ونقل ما لايحصى عدده ، ولا يمكن حصره على مرِّ الأيام وفي جميع الأزمان ، ومع اختلاف المواضع والبلدان ، وهذا ما لا يمكن أحداً دفعه =

= لما فيه من جحد الضرورة الَّذِي هو كمكابرة العيان . والنقل إذا اتصل على هذا الحد والمثال يوجب العلم بما تضمنه في الجملـة ؛ إذ لا يمكـن أن يتواطأ جميع الناقلين له بهذه الصفـة علـى نقـل الكـذب في جميـع مـا نقلـوه لكـثرة عددهم مع افتراق بلدانهم ، وتباعد زمانهم ، ولا أن يدخل الوهـم والخطأ على جميعهم في ذَلِكَ . وإن جاز على بعض فيوجب أن يعلم بنقلهم صِحَّةَ ما نقلوه في الجملة دون التفصيل كما علم بهذا الجنس مـن النقـل : سـخاء حـاتم ، وشـجاعة علي ﷺ ، وحلـم معاويـة ﷺ ، **والطريـق الثـاني** : أنَّ القول بهَا والتصديق بهَا قد أجمع عليه أهل السـنة والجماعـة ، وقـد حصـل العلم بصحة ما أجمعوا عليه بقول النبي ﷺ " **لا تجتمع أمَّتي على ضلالة** " . ولا وجه لما تعلَّـق بـه مـن أنكرهـا وأبطلهـا إلاَّ الجهـل والضـلال ، والحيرة والعمى ؛ إذ لا يجوز أن يدفع وينكر ما روي من الأشياء التي قد اسـتفاضت وشـاعت وذاعـت إلاَّ أن يقـوم الدليـل علـى بطلانهـا ، والبرهـان علـى استحالتها، وهذا ما لم يقم دليل علـى بطلانـه ولا اسـتحالته ، بـل قـد قـام الدليل على جوازه ووجـوده ، فوجـب الإقـرار بـه ، والحكـم بفسـاد قـول منكره " انتهى .

وقـال الشيخ ابـن تيميـة في "الفتـاوى" ٣:١٥٦:"مـن أُصـول أهـل السـنّة والجماعة : التصديقُ بكرامـاتِ الأوليـاء ومـا يُجْـري الله علـى أيديهـم مـن خوارقِ العَادات في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثـيرات . كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صَدْر هذه الأمَّـة من الصَّحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة إلى يومِ القيامة".=

= وقال الإمام التاج السبكي رحمه الله تعالى في "طبقات الشافعية الكـبرى " في ترجمة أبي تُراب النَّخْشَبي ٢:٣٣٤ :" الدليل على ثبوت الكرامات وجوه : **أحدها** : وهو أوحدها ماشاعَ وذاعَ بحيث لاينكره إلاَّ جـاهل معـاند مـن أنـواع الكرامـات للعلمـاء والصَّـالحين ، الجـاري مَجْـرى شـجاعةِ علـيٍّ ، وسخاءِ حَاتم ، بل إنكـار الكرامـات أعظـمُ مباهتـة ، فإنـه أشـهر وأظهـر ، ولايعاند فيه إلاّ من طُمِسَ قلبه -والعِيَاذُ بالله- .

والثاني : قصة مريم مِنْ جهةِ حملِهَا من غير ذكرٍ ، وحصول الرُّطَب الطَّري في الجذع اليابس ، وحصول الرزق عندها في غير أوانه ، ومن غـير حضـور أسبابه ، على ما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ: يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللهِ** ﴾ [آل عمران :٣٧] ، وقريبٌ من قصة مريم قصـة أمِّ موسى عليه السـلام ، وما كان من إلهام الله تعالى إيَّاها حتى طابتْ نفسها بإلقاء ولدهـا في اليـمِّ .

والثالث : التمسُّك بقصة أصحاب الكهف ، فإنّ لبثهـم ثـلاث مائـة سنين وَأَزْيَد ، نياماً أحياء من غير آفة ، مع بقاء القوة العادية بلا غذاءٍ ولاشرابٍ، من جملة الخوارق ، ولم يكونوا أنبيـاء ، فلـم تكـن معجـزة ، فتعيَّـن كونهـا كرامة .

الرابع : التمسُّك بقصص شتَّى ، مثل قصة الَّذِي عنده علمٌ من الكتاب مع سليمان عليه السلام في حَمْل عرش بلقيس إليه قبل أن يرتدَّ إليه طَرْفُه . =

= وما صحَّ من كرامات الصَّحابة رضي الله عنهم ، وما تواتر عمَّن بعدهم من الصَّالحين ، خرج عن حدِّ الحصْر .

الخامس : ما أعطاه الله لعلماء هذه الأمَّة وأوليائها من العلوم ، حتى صنَّفوا كتباً كثيرة ، لايمكن غيرهم نسخها في مدَّة عمر مُصَنِّفيها ، مع التوفيق لدقائق تخرج عن حدِّ الحصْر ، واسْتِنْباطات تُطْرِب ذوي النُّهى ، واستخراجات لِمَعَانٍ شتّى من الكتاب والسنة ، وتحقيقٍ للحق ، وإبْطالٍ للباطل ، وماصَبَروا عليه من المجاهدات والرياضات ، والدعوى إلى الحق ، والصبر على أنواع الأذى ، وعزوف أنفسهم عن لـذَّات الدنيا ، مع نهايةِ عقولهم وذكائهم وَفِطْنتهم ، وماحُبِّبَ إليهم من الدأب في العلوم ، وكدِّ النَّفس في تحصيلها بحيث إذا تأمَّل المُتأمِّل ماأعطاهم الله منه عَرَف أنَّه أعظم من إعطائه بعض عبيده كِسْرة خبز في أرض مُنْقطعة وشَرْبة ماءٍ في مفازة، ونحوهما ممَّا يعدُّ كرامة " انتهى باختصار يسير.

وإذا شئتَ التوسُّع في ذكر البراهين الدالة على إثبات الكرامة ، وشُبَهِ المنكرين والردِّ عليهم ، وأنواع الكرامات فانظر "طبقات الشافعية الكبرى " للسبكي ٢:٣١٦-٣٤٤ .

يخرق الله لَهُمْ العادة إكراماً ، ولا إشـكالَ فيها ؛ لأنَّها فَرْعُ المعجزاتِ [١] ،

(١) ولكن الكرامة مع أنها فَرْع المعجزات ، وخارقةٌ للعادات ، لكنها لاترقى إلى درجة المعجزة التي يُؤيِّدُ الله بها أنبياءَهُ ورسلَهُ ، فكما أنَّ الأولياء لايبلغون إلى درجتهم في الفضل ، فكذلك لايصلون بكراماتهم إلى مستوى معجزاتهم صلوات الله وسلامه عليهم .

قال الأستاذ أبو القاسم القُشَيْري في "الرِّسَالة " ص٢٠٨ :" إنَّ كثيراً من المقْدُورات يعلم اليوم قطعاً أنّه لايجوز أن يظهر كرامة للأولياء ، لضرورة أوشبه ضرورة يعلم ذَلِكَ ، فمنها حصولُ إنسان لا مِنْ أبوين ، وقلبُ جمادٍ بهيمةً أو حيواناً ، وأمثال هذا يكثر "انتهى.

قال التاج السبكي بعد نقله كلام القشيري في " الطبقات " ٢:٣١٦ :"وهو حقٌ لارَيْبَ فيه ، وبه يَتَّضِحُ أنَّ قول مَنْ قال : ماجاز أن يكون معجزة لنبيٍّ جَازَ أن يكون كرامةً لولي ، ليس على عمومه ، وأنَّ قول من قال : لافارق بين المعجزة والكرامة إلاَّ التحدّي ، ليس على وجهه " .

وقال السبكي أيضاً ٢:٣٣٧ :" قلت : أمنع ولداً من غير أبوين ،وقلب جمادٍ بهيمة ، ونحو ذَلِكَ .. وأمَّا جمهور أئمَّتنا فعمَّموا التجويزَ ، وأَطْلَقوا القولَ إطْلاقاً".

وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في كتاب "النبوات" ص١٠٩ :" آياتُ الأنبياء ممَّا يعلم العقلاء أنَّها مُختصَّةٌ بهم ليست ممَّا تكون لغيرهم ، فيعلمون أنَّ الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء ، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة =

نالوها باتّباع الأنبياء وسرّ الاقتداء [1] ،

= قومهم ، وآياتهم التي فرّق الله بهَا بين أتباعهم وبين مُكَذّبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء .." .
وقال أيضاً ص١١٦ :" آياتُ الأنبياء التي دلّت على نبوّتهم هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم ، مثل الإتيان بالقرآن ، ومثل الإخبار بأحوال الأنبياء المتقدّمين وأممهم ، والإخبار بما يكون يوم القيامة ، ومثل إخراج الناقة من الأرض ، ومثل قَلْب العصا حيّةً وشق البحر ، ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفُخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وتسخير الجنّ لسليمان لم يكن مثله لغيره ".
وقال العلاّمة محمد بن يوسف الكافي المتوفى سنة ١٣٨٠ رحمه الله تعالى في "منحة ربّ العالمين" ص١٤ :" وتكون الكرامة للأولياء من أنواع شتّى إلاّ نحو ولد دون والد ، فلايكون كرامةً لغير مريم عليها السلام ، فَمَنْ أَتَتْ بِوَلَدٍ ولم يكن لها زوجٌ ولاسيِّد ، وادَّعَتْ أنّها كرامةٌ لاتُصَدَّق ، وتُحَدُّ شرعاً " انتهى.

(١) قال الحافظ ابن رجب في " فتح الباري " ١٦٧:٥ :" إثبات كرامات الأولياء وخَرْق العوائد لهم . وهو قول عامة أهل السنّة ، ووافق على ذَلِكَ المعتزلة في زمن الأنبياء خاصّةً ، وجعلوها من جملة معجزاتهم حينئذٍ . **والتحقيق** : أنّها من جملةِ معجزات الأنبياء على كلّ حال وفي كلّ زمان ؛ لأنّ ما يكرم الله بذلك أولياءَه فإنّما هو من بركة اتّباعهم للأنبياء ، =

ومع ذلك لا تتعلّق بها همّةُ وليٍّ [1] .

= وحُسْن اقْتدائهم بهم ، فدوام ذَلِكَ لأتباعهم وخواصّهم من جملة معجزاتهم وآياتهم " انتهى .
وقال الإمام الأصولي الشاطبي في " الموافقات " ٢:١٧٨ :" إنّ جميع ما أُعْطِيَتْهُ هذه الأمة من المزايا والكرامات والمكاشفات والتأييدات وغيرها من الفضائل إنما هي مُقْتَبَسةٌ من مشكاة نبيّنا محمدٍ ﷺ ، لكن على مقدار الاتّباع، فلا يظنُّ ظانٌّ أنه حصل على خير بدون وساطة نبوته ، كيف وهو السِّراج المنير الَّذِي يستضيء به الجميع ، والعَلَم الأعلى الَّذِي يُهتدى به في سلوك الطريق " . ثم قال ٢:١٨٠ :" ومن الفوائد في هذا الأصل أن ينظر إلى كلِّ خارقةٍ صدرت على يدَيْ أحد ، فإنْ كان لها أصلٌ في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته فهي صحيحة ، وإن لم يكن لها أصل فغير صحيحة ، وإن ظهر ببادئ الرأي أنّها كرامة " وانظر تتمة كلامه المهم النفيس عند شرح قول المؤلف ص٢٨٥ :"وشرط الكرامة : أن لاتخرق حكماً شرعياً ".

(١) قال الحافظ ابن رجب في " فتح الباري " ٣:٤٦٥ :" فإنّ جنس هذه الخوارق تُخشى منها الفتنة إلاّ لمن قويَ إيمانُهُ ، ورَسَخَ في العلم قدمُهُ ، وميَّز بين حقّها وباطلها ، والحقُّ منها فتنة أيضاً ، فإنّه شبيهٌ بالقدرة والسُّلطان الَّذِي يعجز عنه كثيرٌ من الناس ، فالوقوف معه والعُجْبُ به مُهلكٌ ، وقد اتّفق على ذَلِكَ المشايخ العارفين الصادقين ، كما ذكره عنهم أبو طالب المكي في كتابه " قوت القلوب " ، وأنّهم رأوا الزُّهد فيه كما آثروا =

= الزهد في الملك والسلطان والرِّياسة والشُّهرة ، فـإنَّ ذَلِـكَ كلَّـه فتنـةٌ ووبـالٌ على صاحبه إلاّ لِمَنْ شكر عليه وتواضع فيـه ، وخشـي مـن الافتتـان ، وقـد أخبر الله تعالى عن سليمان عليه السَّلام أنَّه لمَّا رأى عـرش ملكـة سبأ عنـده قال :﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل : ٤٠] انتهى .

فـالوليُّ صـاحبُ الكرامـة لايَسْتأنس بهـذه الكرامـة ، بـل يتضـاعف خوفُـهُ وخشيتُه من الله عزَّ وجل ، فيزداد له تذلُّلاً وخضوعاً وشكراً .

قال الكلاباذي في "التعرُّف لمذهب أهل التَّصوُّف" ص٨٩ :" وأمّـا الأوليـاء فإنَّهم إذا ظهر لهم من كرامات الله شيءٌ ازدادوا لله تذلُّلاً وخضوعاً وخشـيةً واستكانةً وإزْراءً لنفوسهم ، وإيجاباً لحقِّ الله عليهم ، فيكون ذَلِكَ زيادةً لهـم في أمورهم ، وقوّةً على مُجاهداتهم ، وشكراً لله تعالى علـى مـا أعطـاهم " انتهى .

ويُستَحبُّ سَتْر الكرامة إلاَّ إذا كانت لغرضٍ صحيح ، كنُصْرة ديـن الله ، أو تحقيق مصلحة ، أمّا إظهارها دون سـببٍ موجِـبٍ فهـو مذمـومٌ ، لأنَّ فيهـا شيئاً من حظِّ النَّفس والعُجْب والمفاخرة .

يقول الشَّعراني في "اليواقيت والجواهر" ١٠٤:٢ :" إنَّ الكرامة عنـد أكـابر الرجال معدودةٌ من جملة رعونات النَّفس إلاّ إن كانت لِنُصْرة دينٍ أو جَلْب مصلحة ؛ لأنَّ الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم ". =

وَشَرْطُ الكرامةِ: أن لا تَخْرِقَ حُكماً شرعياً [١] .

= وتبقى الكرامةُ أولاً وأخـيراً مِنْحـةً إلهيَّـةً وهِبَـةً رحمانيـةً ، لاتُكْتَسَـبُ بكـثرة الطاعات والاجتهاد في العبادات ، بل الفضل لله يؤتيه من يشاء.(من كتـاب "نظرية الاتصال" ، للدكتورة سَارَة بنت عبدالمحسن بن جلوي ص٢٠٥) .

(١) قال الإمام الشَّاطبيُّ في الموافقات " ١٨٣:٢-١٨٤ :" إنَّ هذه الأمور - أي الخوارق من الفِراسـة الصادقـة ، والإلهـام الصحيـح ، والكشـف الواضـح ، والرؤيا الصالحة - لا يصح أن تراعـى وتعتـبر إلاَّ بشـرط أن لاتخـرم حكمـاً شرعياً ، ولا قاعدةً دينيةً ، فإنَّ ما يخرم قاعدةً شرعيةً أو حكماً شرعياً ليـس بحقٍّ في نفسه ، بل هو إما خيال أو وهم ، وإما مـن إلقـاء الشـيطان ، وقـد يخالطه ماهو حقٌّ ، وقد لا يخالطه . وجميع ذَلِكَ لا يصحُّ اعتبـاره مـن جهـة معارضته لما هو ثابت مشروع . وذلك أنَّ التشريع الَّذِي أتى بـه رسـول الله ﷺ عامٌّ لا خاصٌّ ، وأصله لا ينخرم ، ولا ينكسر له اطِّراد ، ولا يحاشى من الدخول تحت حكمه مكلَّف .

وإذا كان كذلك فكلُّ ما جاء من هذا القَبيل الَّذِي نحن بصدده مضـادّاً لمـا تمهَّد في الشريعة فهو فاسد باطل .

ومن أمثلة ذَلِكَ : مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شـهد عنـده عـدلان مشهوران بالعدالة في أمر فرأى الحـاكم في منامـه أنَّ النَّبي ﷺ قـال لـه : لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل . فَمِثْلُ هذا من الرؤيـا لامُعتَـبَر بهَـا في أمـرٍ ولا نهيٍ ولا بشارةٍ ولا نِـذارة ؛ لأنهـا تخـرم قـاعدةً مـن قواعـد الشـريعة ، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع . =

= وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأنَّ هذا المعيَّن مغصوبٌ أو نجس ، أو أنَّ هذا الشاهد كاذبٌ ، أو أنَّ المال لزيْدٍ ، وقد تحصَّل بالحجة لعمرو أو ما أشبه ذَلِكَ ، فلا يصح له العمل على وفق ذَلِكَ ما لم يتعيَّن سببٌ ظاهر . فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم ، ولا ترك قبول الشاهد ، ولا الشهادة بالمال لزيدٍ على حال ، فإنَّ الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمرٌ آخر فلا يتركها اعتماداً على مجرَّد المكاشفة أو الفراسة ، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النوميَّة ، ولو جاز ذَلِكَ لجاز نقض الأحكام بهَا ، وإن ترتَّبت في الظاهر على موجباتها ، وهذا غير صحيح بحال ، فكذا ما نحن فيه .."

وقال رحمه الله في " الموافقات " ٢:١٨٨ :" ومن هنا لم يعبأ الناس من الأولياء وغيرهم بكل كشف أو خطاب خالف المشروع ، بل عدُّوا أنَّه من الشيطان ... إذ ليس القصد بالكرامات والخوارق أن تخرق أمراً شرعياً ، ولا أن تعود على شيءٍ منه بالنقض ، كيف وهي نتائج عن اتِّباعه ، فَمُحَالٌ أن ينتج المشروع ما ليس بمشروع ، أو أن يعود الفرع على أصله بالنقض ، هذا لا يكون ألبتة ".

ثم نبَّه إلى مسألة مهمة في " الموافقات " ٢:١٩٠-١٩١ وهي :" أنَّ الشريعة كما أنَّها عامة على جميع المكلفين ، وجارية على مختلفات أحوالهم، فهي عامة أيضاً بالنسبة إلى عالم الغيب وعالم الشهادة من جهة كلِّ مكلَّف، فإليها نردُّ كل ما جاءنا من جهة الباطن كما نردُّ إليها كل ما في الظاهر .

والثاني : أنَّ الشريعة حاكمةٌ لا محكومٌ عليها ، فلو كان ما يقع من الخوارق والأمور الغيبية حاكماً عليها بتخصيص عمومٍ أو تقييد إطلاقٍ، =

= أو تأويل ظاهرٍ ، أو ما أشبه ذَلِكَ لكان غيرها حاكماً عليها ، وصارت هي محكوماً عليها بغيرها ، وذلك باطل باتفاق ، فكذلك ما يلزم عنه .

والثالث : أنَّ مخالفة الخوارق للشريعة دليلٌ على بطلانها في نفسها ، وذلك أنَّها قد تكون في ظواهرها كالكرامات ، وليست كذلك ، بل أعمالاً من أعمال الشيطان . كما حكى عياضٌ عن الفقيه أبي مَيْسرة المالكي أنه كان ليلة بمحرابه يصلِّي ويدعو ويتضرَّع ، وقد وجد رِقَّةً ، فإذا المحراب قد انشقَّ، وخرج منه نورٌ عظيم ، ثمَّ بدا له وجهٌ كالقمر ، وقال له : تملَّى من وجهي يا أبا مَيْسرة ، فأنا ربُّك الأعلى ، فَبَصَقَ فيه ، وقال له : اذهب يالعين عليك لعنة الله .

وكما يُحكى عن عبدالقادر الجيلاني أنه عطش عطشاً شديداً ، فإذا سَحَابةٌ قد أقبلت وأمطرت عليه شبه الرذاذ حتى شرب ، ثمَّ نُودي من سحابة : يا فلان أنا ربُّك ، وقد أحلَلْتُ لك المحرَّمات . فقال : اذهب يا لعين فاضْمَحَلَّت السَّحابة . وقيل له : بِمَ عَرَفْتَ أنَّه إبليس ؟ قال : بقوله قد أحللتُ لك المحرَّمات . هذا وأشباهه لو لم يكن الشرع حَكَماً فيها لما عُرِف أنها شيطانية " .

ثم قال ٢:١٩٤ :" ومن هنا يُعلَم أن كلَّ خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة فلا يصح ردُّها ولا قبولها إلاَّ بعد عرضها على أحكام الشريعة ، فإنْ ساغَتْ هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها ، وإلا لم تُقْبَل . إلاَّ الخوارق الصادرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام ، فإنه لانظر فيها لأحد ؛ لأنها واقعة على الصحة قطعاً فلا يمكن فيها غير ذَلِكَ ، ولأجل هذا حكم =

= إبراهيم عليه السلام بذبح ولده بمقتضى رُؤْياه ، وقال لـه ابنـه : ﴿ **يَـا أَبَـتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَر** ﴾ [الصافات :١٠٢] .

وإنما النظر فيما انخرق من العادات على يد غير المعصوم ، وبيان عرضها : أن تفرض الخارقة واردة من مجاري العادات ، فإنْ ساغَ العمل بهَا عادةً وكسباً ساغَتْ في نفسها ، وإلا فلا . كالرجل يكاشف بامرأة أو عورة بحيث اطّلع منها على ما لايجوز له أن يطّلِعَ عليه ، وإن لم يكن مقصوداً له ، أو رأى أنه يدخل على فلان بيته وهو يجامع زوجته ويراه عليها ، أو يكاشف بمولود في بطن امرأة أجنبية بحيث يقع بصرُه على بَشَرتها أو شيءٍ من أعضائها التي لا يَسُوغ النظر إليها في الحس ، أو يسمع نداء يحسُّ فيه بالصوت والحرف وهو يقول : أنا ربك ، أو يرى ويسمع من يقول له : قد أحلَلْتُ لك المحرَّمات ، وما أشبه ذَلِكَ من الأمور التي لا يقبلها الحكم الشرعي على حال ، ويُقاس على هذا ما سواه ، وبالله التوفيق " . انتهى

وقد أوجز المؤلّف -رحمه الله تعالى - كلام الشاطبي بقوله : **وشرط الكرامة أن لاتخرق حكماً شرعياً** ، فما يُنقل في بعض كتب الطبقات من كرامات مُستنكرة شرعاً وعقلاً فلا تقبل ؟! كمن يخطب الجمعة عارياً ، أو يشربُ الخمرَ جهاراً نهاراً زاعماً أنّها تنقلب لبناً خالصاً ، أو يأتي الحيوانات في وضح النّهار أمام الأسماع والأبصار ؟!

وأعظم أنواع الكرامة : الاستقامة ، وحفظُ آداب الشريعة ، وإتيان مكارم الأخلاق، والمحافظة على أداء الواجبات ، والمسارعة في الخيرات . =

= قال القشيري في "الرسالة" ص١٦٠ :" واعلم أنَّ من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات ، والعصمة عن المعاصي والمخالفات". وقال سهل بن عبدالله حين سُئِل عن الكرامات :" وماالآيات وما الكرامات شيئ تنقضي لوقتها ، ولكنَّ أكبر الكرامات أن تبدِّل خُلُقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخُلُقٍ محمود "كما في"اللمع"للطُّوسي ص٤٠٠ .

قال ابن القيِّم في كتاب "الرُّوح" في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٥٨٦ : ولايَشْتَبه أولياءُ الرحمن بأولياء الشيطان إلاَّ على فاقد البصيرة والإيمان..فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاث مواطن : في صلاته ، ومحبته للسُّنة وأهلها ونفْرتِهِ عَنْهُم ، ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التَّوحيد والمتابعة وتحكيم السُّنة ، فَزِنْهُ بذلك لا تَزِنْهُ بحالٍ ولا بكشفٍ ولا خارقٍ ولو مَشَى على الماء وطَارَ في الهواء "انتهى .

وقال الحافظ في "الفتح" ٣٨٣:٧ :" إنّ الّذِي استقرَّ عند العامَّة أنَّ خرق العادة يدلُّ على أنَّ من وقع له ذَلِكَ من أولياء الله تعالى ، وهذا غَلَطٌ ممَّن يقولُه ، فإنَّ الخارق قد يظهر على يد المُبْطل من ساحرٍ وكاهنٍ وراهب ، فيحتاج من يستدلُّ بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق ، وَأَوْلى ماذكروه : أن يُختبر حالُ مَنْ وَقَعَ له ذَلِكَ ، فإن كان مُتَمَسِّكاً بالأوامر الشرعيَّة والنَّواهي ، كان ذَلِكَ علامة ولايته ، ومَنْ لا فلا ، وبالله التوفيق"انتهى. =

= ونقل الحافظ السخاوي في " الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر" ٢:٩٤١-٩٤٣ جواب الحافظ ابن حجر عما ذكره الشطنوفي في كتابه "البهجة " من كرامات الشيخ عبدالقادر الكيلاني رحمه الله تعالى ، فقال :" وقد ذكر أئمتنا لما يظهر من الخوارق ضابطاً يتميَّز به المقبول من المردود ، فقالوا : إن كان الواقع ذلك له أو منه على المنهاج المستقيم ، فهي كرامةٌ ، كالشيخ عبدالقادر ، وإن كانت الواقعة منه أو له على الوجه المباين للشريعة المطهَّرة ، فليست فيها دلالة على الولاية ولا كرامة ، فهذا هو الحدُّ الفارق بين الكرامة الدَّالَّة على الولاية ، والخارق الَّذي لايدلُّ عليها، بل ربما دلَّ على ضدِّها كما يظهر في كثيرٍ من أحوال المبتدعة المتمسِّكين بما يُباين الأمور الشرعية ، فإنَّها أحوالٌ شيطانية لا يغترُّ بها إلاَّ الجهلة .

وربَّما ظهرت على أُناس في حال غَيْبتهم وذهولهم ، وهو على قسمين : من كان قبل ذَلِكَ على المنهج القويم ، فتلك كرامة ، ولكن لا يُقتدَى بأقوال مَنْ هذا سبيلُه ولا بأفعاله ، بل يُعذَر على ما يصدر منه ، لكونه في حال غَيبةِ عقله الَّذي هو مناطُ التكليف . والأَوْلى منع جهلة العامَّة من ملازمة مثل هذا ، لئلا يظنُّوا أنَّ الَّذي يصدر منه في حال غَيْبَتِهِ هو الحق فيقتدوا به ، ومن هنا ضلَّ كثيرٌ منهم، وبالله التوفيق " انتهى .

وذكر السَّخاويُّ أيضاً في ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر في " الجواهر والدرر" ١٠٤٧:٣ أنَّه " كان يُنكر على كثيرٍ من مكشوفي العورات ، المُتضمِّخين في النَّجاسات ، الناهبين البضائع من الطرقات ، المُتلذِّذين بالشهوات ممَّن لم يُعلم صلاحُه قبل هذه الحالات " انتهى .

(فَصْل)

الموتُ بالأجَلِ المحدود ولو مَقْتولاً[١] ،

---

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿فإذا جَاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتأخِرونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ، و [النحل: ٦١] .
وقال سُبْحَانَهُ: ﴿مَا تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أجَلَها وَمَا يَسْتأخِرونَ﴾ [الحجر: ٥] و [المؤمنون: ٤٣] .
وقال عزَّ وَجَلَّ: ﴿وما كَانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥] .
فالله سُبْحَانَهُ قدَّرَ آجالَ الخلائق ، فالمقتولُ ميِّتٌ بأجَلِهِ ، وأجلُ الإنسان هو الوقت الَّذي يعلم الله أنّه يموت الحيُّ فيه ، فعَلِمَ الله تعالى وقدَّرَ وقضى أنَّ هذا يموتُ بسببِ المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدْم ، وهذا بالحَرْق ، وهذا بالغَرَق ، إلى غير ذَلِكَ من الأسباب ، والله سُبْحَانَهُ خَلَقَ الموتَ والحياةَ ، وخَلَقَ سببَ الموتِ والحياة.
وأمَّا وجوبُ القصاص ، والدِّية على القاتل ؛ فلارتكابه المنهيَّ عنه ، ومباشرتِهِ السببَ المحظور.
قال القرطبي في" تفسيره" ٢٠٢:٧ :" فإن قيل : فإن مات بأجله فلِمَ تقتلون ضاربَه وتَقْتَصُّون منه ؟ قيل له : نقتله لتعدِّيه وتصرُّفِهِ فيما ليسَ له أن يتصرَّف فيه ، لا لموته وخروج الرُّوح ؛ إذ ليس ذَلِكَ من فعله . ولو تُرِكَ النَّاس والتعدِّي من غير قِصَاص لأدَّى ذَلِكَ إلى الفساد ودمار العباد ، وهذا واضح ". انتهى .

وعزرائيلُ هو مَلَكُ الموتِ قَابضُ الأرواحِ بإذن الله[1] ، وله ملائكةٌ أعوان[2] .

---

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].
قال الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" ١ :٤٧ :" وأمَّا مَلَكُ الموت فليس بمصرَّحٍ باسمه في القرآن ولا في الأحاديثِ الصِّحَاح ، وقد جاءت تسميتُه في بعض الآثار بعزرائيل ، وله أعوانٌ يستخرجون روحَ العبد من جُثّته حتى تبلغ الحلقوم ، فيتناولها ملك الموت بيده ، فإذا أَخَذَها لم يدعوها طَرْفَةَ عينٍ حتّى يأخذوها منه ، فيلفُّوها بأكفان تَليقُ بهَا " . وانظر ما تقدم ص١٠٠ .
(٢) قال سبحانه: ﴿حَتَّى إذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام :٦١] .
ومِن هؤلاء الأعوان: ملائكة الرحمة ، قال تعالى :﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ :سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢] . ومنهم : ملائكة العذاب ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ يَتَوَفَّى الَّذين كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] .
والله تعالى هو الآمِرُ لذلك كله ، وهو الخالقُ لأفعالِ المخلوقات .
وهذا وَجْهُ الجمعِ بين هذه الآيات ، وآيةِ سورةِ السجدة: ﴿قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ﴾ ، وبين قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزُّمَر:٤٢] ، فالمتوفِّي على الحقيقةِ هو اللهُ تعالى.

س٣٢- ماذا يُفْعَلُ بالميِّت بعدَ دفنه؟

إمَّا في نعيمٍ وإمَّا في عذاب[1] ،

---

(١) وقد دلَّت الآيات في كتاب الله سبحانه والأحاديث الصحيحة على إثبات عذاب القبر ونعيمه .
منها قوله تعالى في قوم نوح عليه السلام : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَنْصَاراً ﴾ [نوح :٢٥] ، أي : بسبب ذنوبهم أُغرقوا بالطُّوفان ، ﴿ فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ ، قال الخازن ٤ :٣١٤ : "والفاء تقتضي التعقيب ، وهذا يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقب الإغراق ، ولا يمكن حمله على عذاب الآخرة لأنَّه يُبطل دلالة الفاء " .
وقال النسفي ٤ :٣١٤ :" والفاء في ﴿ فَأُدْخِلُوا ﴾ للإيذان بأنَّهم عُذِّبوا بالإحراق عقيب الإغراق فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر " انتهى.
ويلحق بقوم نوحٍ في عذاب القبر من كان في حكمهم من الكفَّار .
ومنها قوله تعالى في فرعون وقومه : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذابِ ﴾ [غافر :٤٦] أي: يُعرضون على النار ، وعرضُهُم عليها إحراقُهُم بها ، ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ أي: صباحاً ومساءً مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة جهنم : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ وفي قراءة ﴿ ادخُلوا ﴾ أي: يقال =

= لهم:ادخلوا يا آلَ فرعون أشَدَّ العذاب ، فهذه الآية دليلٌ على إثباتِ عَذَاب القبر ، أعاذنا الله منه بِمَنِّهِ وكرمه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ والمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِم أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ على اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنْتُم عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾[الأنعام :٩٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابَاً دُونَ ذَلِكَ** ﴾[الطور: ٤٧].

أخرج الطبري ٢٢:٤٨٧ بسندٍ حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : عذاب القبر قبل يوم القيامة . وكذلك روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **وَلَنُذِيْقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة :٢١] . وكذا قال قتادة والحسن كما في "تفسير الطبري" ١٢:٤٤٣ في قوله تعالى: ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْن**﴾ [التوبه :١٠١] أحدهما : في الدنيا والأخرى هي عذاب القبر .قال الطبري ١٢:٤٤٥ : "قوله جلَّ ثناؤه : ﴿ **ثُمَّ يُرَدُّون إلى عَذَابٍ عَظِيم**﴾ ، دلالة على أنَّ العذاب في المرَّتين كلتيهما قبل دخولهم النار ، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر ". وأمَّا نعيم القبر فقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا إنْ كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة :٨٩] .

وأمَّا الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرةٌ جداً بلغت حد التواتر فمنها : ما رواه البخاري (١٣٧٩) ومسلم ٤:٢١٩٩ (٢٨٦٦) =

= عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال : " **إنَّ أحدَكُم إذا ماتَ عُرِض عليه مَقْعَدُهُ بالغَداة والعَشيِّ ، إنْ كان من أهل الجنَّة فمن أهل الجنَّة ، وإنْ كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثَكَ الله يومَ القيامة** " .

وروى البخاري في كتاب الجنائز (١٣٧٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ قال :" **نعم عذاب القبر حق** " قالت عائشة : فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ صَلَّى صَلاةً بعد ذلك إلا تعوَّذَ من عذاب القبر .

وروى مسلم في صحيحه ١:٤١٣ (٥٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان يعلِّمهم هذا الدعاء كما كان يعلِّمهم السُّوَر من القرآن " **اللهم إنِّي أعوذُ بكَ من عَذَابِ جهنّم ، وأعوذُ بك من عذاب القبر، وأعوذُ بك من فتنه المسيحِ الدجال ، وأعوذُ بك من فتنةِ المحيا والممات** " . قال ابن رجب في "أهوال القبور" ص٤٣ : "وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذابِ القبر والتعوُّذ منه " .

والعذاب والنعيم على الروح والبدن معاً . قال الحافظ ابن رجب أيضاً في "أهوال القبور" ص ٨١ : "ومما يدل على وقوع العذاب على الأجساد:الأحاديث الكثيرة في تضييق القبر حتى تختلف أضلاعه ، ولأنَّه لو كان العذاب على الرُّوح خاصة لم يختصَّ العذاب بالقبر ولم يُنسب إليه ".

وَسُؤالُ المَلَكَين[1] حقٌّ بعد أن تَرجِعَ لهُ حياةٌ يفهَمُ بها الخطاب ، وَيَرُدُّ الجواب ، وَيَسْألانِهِ عن دينه[2] ؛ فأمَّا المؤمنُ

---

(١) وهما منكرٌ ونكيرٌ ، كما ثَبَتَ تسميتهما في حديث الترمذي الآتي بعد قليل، وقد أطْبَقَ أهل السنة على اعتباره ، ولم يخالف فيه إلاَّ المعتزلة ، فقالوا: لا يجوز أن نسمي الملائكة بمنكر ونكير ، ولم يلتفت أهل السنة إلى قولهم اعتماداً على ما جاء في بعضِ طرق الحديث (الحاوي ، للسيوطي ٢:١٩٣) .

(٢) وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنَّهما يسْألانه عن ربِّه ودينِهِ ونبيِّهِ .

روى أحمد في مسنده ٤:٢٨٧،وأبو داود في كتاب السنة ٥:٢٥٠(٤٧٢٠) مسألة في القبر من حديث البراء بن عازب مرفوعاً وفيه :" **ويأتيه مَلَكان فَيُجْلِسَانه ، فيقولان له : مَنْ ربُّك ؟ فيقول : ربيَ الله . فيقولان له : ما دينُك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : مَا هَذا الرجُلُ الَّذِي بُعِثَ فيكم ؟ فيقول : هو رَسُولُ الله ﷺ** " .

وروى الترمذي في كتاب التفسير ٥:٢٧٦ (٣١٢٠) من حديث البراء عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ قال :" **في القبر ، إذا قيل له : مَنْ ربُّك ؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟**" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . =

= وروى البخاري في كتاب الكسوف (١٠٠٥) ، ومسلم في الكسوف أيضاً ٢:٦٢٤ (٩٠٥) عن أسماء بنت أبي بكر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :" **إنَّه قد أُوحيَ إليَّ أنَّكم تُفتنون في القبور قريباً أو مثل فتنة المسيح الدجال ، فيُؤْتى أحدكم فيُقال له : ما عِلمُكَ بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن** - أو الموقن - **فيقول : هو محمَّدٌ رسولُ الله ، جاءنا بالبيِّنات والهدى فأجبنا وآمنا واتَّبعنا ، فيقال له : نَمْ صالحاً ، قد علمنا إنْ كنتَ لمؤمناً . وأما المنافق** - أو المرتاب - **فيقول : لا أدْري ، سمعت النَّاس يقولون شيئاً فقلته** " .

قال السيوطي في " طُلوع الثريا " ص ٨٦ : " هذا لفظ البخاري من غير زيادةٍ عليه، وهو أخْصَرُ حديثٍ وَرَدَ في السؤال ، وقد ورد سواهُ أحاديث مطوَّلة صحيحة فيها زياداتٌ كثيرةٌ اعتمدها النَّاس ، من ذَلِكَ أنه لم يذكر في هذا الحديث السؤال عن ربه ودينه ، وهو ثابتٌ في غيره ، وأنَّ المؤمن يقول في الجواب : ربي الله ، وديني الإسلام . وقال أيضاً : أطبق العلماء على أنَّ المراد بقوله : " **يفتنون** " وبفتنة القبر : سؤال الملكين الفتَّانَيْن .

قال ابن الأثير في " النهاية " ٣:٤١٠ وفي حديث الكسوف :" **وإنَّكم تُفتنون في القبور** " يريد مسألةَ منكر ونكير ، من الفتنة : الامتحان والاختبار، وقد كثُرت استعاذته ﷺ من فتنة القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات، وغيرذلك . ومنه الحديث : " **فبي تُفتَنون وعنّي تُسْأَلون** " أي : تمتحنون في قبوركم ويتعرف إيمانكم بنبوتي " . =

= وقال الإمام عَلَمُ الدين السَّخاوي في أرجوزته في " أصول الدين " :

وكلُّ مَا أتاكَ عن محمـــدِ   صَلَّى عَليهِ اللهُ خُـذْهُ تَرْشُـدِ

من فتنةِ العبادِ في القُبـــورِ   والعرضِ يومَ البعثِ والنشورِ

قال ابن عبدالبر في " التمهيد " ٢٢:٢٥٢ :" الآثار الثابتة في هذا الباب تدلُّ على أنَّ الفتنة في القبر لا تكون إلاَّ لمؤمنٍ أو منافق مِمَّن كان في الدنيا منسوباً إلى أهل القِبْلة ، ودينِ الإسلام ، مِمَّن حُقِن دمه بظاهر الشهادة ، وأما الكافر الجاحد المُبْطل، فليس مِمَّن يُسْأل عن ربِّه ودينه ونبيِّه ..أما ما جاء من الآثار: أنَّ اليهود تُعذَّب في قبورها ، فهذا -والله أعلم- عذابٌ غير الفتنة والابتلاء الَّذي يعرض للمؤمن ،وإنَّما هذا عذابٌ واصِبٌ للكفار إلى أن تقوم الساعة، فيصيرون إلى النار..وجائز أن يكون عذاب القبر غير فتنة القبر، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه كان يستعيذ من فتنة القبر ، وعذاب القبر ، وعذاب النار في حديث واحد ، وذلك دليلٌ على أنَّ عذاب القبر غير فتنة القبر " انتهى .

وتعقَّبه ابن القيم في كتاب " الروح " ص٢٢٨ وقال :" والقرآن والسنة تدلُّ على خلاف هذا القول ، وأنَّ السؤال للكافر والمسلم . قال الله تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، وفي حديث أنس في البخاري (١٣٧٤) : " **وأمَّا المنافقُ والكافر** " بواو العطف " انتهى . وينظر " فتح الباري " ٣:٢٣٨-٢٣٩.

فيجيب باعتقاده ، فيُنَعَّمُ ، ويقالُ له: نَمْ نومةَ عَرُوس ، فيكونُ في أحلى نَوْمةٍ نامَها أحدٌ حَتَّى يُبعث .

وأما غيرُ المؤمن فيقول: لا أَدْري . فيُعَذَّبُ ، فَذَلِكَ قولُه تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابتِ في الحَيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ ويُضِلُّ اللهُ الظَّالِمين**﴾[1] .

(١) من سورةِ إبراهيم ، الآية : ٢٧ ، **والقول الثابت:** هي الكلمةُ الطيبةُ ، وهي شهادةُ أن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وأَنَّ محمداً رسول الله .

وقوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمنُوا بِالقَوْلِ الثَّابتِ في الحَيَاةِ الدُّنيا**﴾ حتى إذا فُتنوا في دينهم لَمْ يزلُّوا ﴿**وَفي الآخِرَة**﴾ في القبر عند السؤال بتلقين الجواب وتمكين الصواب ، وفي القيامةِ عند البعث والحساب ﴿**وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمينَ**﴾ يعني: أنَّ الله لا يوفِّقُ المنافق والكافر في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ عند المُسَاءَلة في القبر ، لما هدى له المؤمنين من الإيمان بالله ورسوله ﷺ .

قال الحكيم الترمذي في " نوادر الأصول " ٢:٥٩٦ :" وقوله : ﴿ **وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء** ﴾ تأويله – والله أعلم – : أنَّ من مشيئته أن يرفع مرتبة أقوام عن السؤال ، وهم الصدِّيقون والشُّهداء ، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قيل له : ما بال الشهداء لا يفتنون في قبورهم ؟ فقال " : **كفى ببارقة السيوف عليهم فتنة** " أخرجه النسائي ٤:٩٩ ، فإذا كان الشهيد لا يُفتن ، فالصِّدِّيق أحْرى أن لا يُفتن " انتهى .

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: "**إذا قُبِرَ الميتُ -أو قال : أحدكم- أتاه مَلَكان أسْوَدان أزرَقان ، يُقالُ لأحدِهما: المنكر** ، =

= **وللآخر: النكير ، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمدٍ ﷺ؟ فهو قائلٌ ما كان يقول ، فإن كان مؤمناً قال: هو عبدُالله ورسولُه ، أشهدُ أن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وأشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، فيقولان له: إنْ كنا لنعلَمُ أنَّك لتَقولُ ذلك ، ثُمَّ يُفْسَحُ له في قبرِهِ سبعون ذِراعاً في سبعين ذِراعاً ، ويُنَوَّر له فيه ، فيقال له: نَمْ ، فيَنامُ كنومةِ العَروس الَّذِي لا يُوقِظُهُ إلاَّ أحبُّ أهلِهِ إليه حتى يبعثَهُ الله من مَضْجَعِهِ ذَلِكَ ، وإنْ كَان مُنافقاً ، قال : لا أدري ،كنتُ أسْمَعُ النَّاسَ يقولون شَيئاً ، فكنتُ أقولُه ، فيقولان لهُ : إنْ كُنّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تقولُ ذَلِكَ ، ثمَّ يُقَال للأرضِ : الْتَئِمِي عليه ، فَتَلْتَئِمُ عليه حتى تختلف فيها أضلاعُه ، فلا يَزالُ مُعذَّباً حَتى يَبْعثه الله من مَضْجَعِهِ ذَلِكَ** " . أخرجه الترمذي (١٠٧١) في الجنائز وقال: حديثٌ حسنٌ غريب ، وابن حبَّان في صحيحه (٣١١٧) ، ورجال إسناده على شرط مسلم.

وعن عثمان بن عفَّان ﷺ قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا فَرَغَ من دفنِ الميت وَقَفَ عليه فقال:" **استغفِروا لأخيكم ، وَسَلُوا له التثْبيتَ ، فإنَّه الآنَ يُسْأَل**" أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز ٤:٦٤ (٣٢١٣) .

قال الخازن في تفسيره ٣: ٧٩: "والمراد من التثْبيت بالقول الثابتِ: هو أنَّ الله تعالى إنَّما يثبِّتهم في القبر بسببِ كثرةِ مواظبتهم على شهادةِ الحقِّ في الحياةِ الدنيا ، وحبِّهم لها ، فَمَنْ كانت مواظبتُه على شهادةِ الإخلاص أكثر ، كان رسوخُها في قلبه أعظم ، فينبغي للعبدِ المسلم أن يُكْثِرَ من قول: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله محمدٌ رسول الله في جميع حالاتِهِ من قيامِهِ وقعودِهِ ونومِهِ =

لابدَّ من ذلك[١] ولو تفرَّق جسده في أماكنَ متباعدةٍ ، فالله قادرٌ أن يذيقَهُ ذلك كَيْفَمَا كان .

وقولُ الملاحدة: نفتحُ القبر فلا نجد ما يدلُّ على ذلك ، جهالةٌ، لأنَّ الله يسترها[٢] ،

= ويقظتِهِ وجميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، فلعلَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقَهُ ببركة مواظبَتِهِ على شهادةِ الإخلاص ، التثبيتَ في القبر ، ويسهِّل عليه جوابَ الملكين بما فيه خَلاصُهُ من عذابِ الآخرة ، نسألُ الله التثبيتَ في القبر ، وحُسْنَ الجواب وتسهيلَه بفضْلِهِ ومَنِّهِ وكرَمِهِ وإحسانِهِ ، إنَّه على كُلِّ شيءٍ قدير" ا. هـ.

(١) أي : من سؤال الملكين وعذاب القبر أو نعيمه ، ولا فرقَ بين مَن دُفِنَ في القبر ، أو صار في بطنِ السَّبُعِ ، أو في قَعْرِ البحر ، فالله على كُلِّ شيء قدير ، وبكلِّ شيءٍ عليمٌ خبير.

(٢) قال العلامة ابن القيم في كتابه "الرُّوح" في الردِّ على الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ، وعلى إخوانهم من أهل البدع والضلال القائلين : كل حديث يخالفُ مُقْتضَى المعقول والحسِّ نقطع بتخطئة قائله !! قال رحمه الله (ص ١٧٨-١٨٢) ماملخَّصه :" الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته ، بل إخبارهم قسمان : **أحدهما** : ماتشهد به العقول والفِطَر السليمة . **والثاني** : ما لا تدركه العقول بمجردها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر ، =

= فلايكون خبرهم مُحالاً في العقول أصلاً ، فتأتي الأنبياء بمجازات العقول لا بمحالاتها .

والله سبحانه جعل الدور ثلاثاً : **دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار** ، وجعل لِكُلِّ دارٍ أحكاماً تختصُّ بهَا ، وركّب هذا الإنسان من بدن وروح ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواحُ تَبَعاً لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدانُ تَبعاً لها ، فالأبدان هنا ظاهرةٌ والأرواح خفيَّة، والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة ، والأبدان خفيَّةٌ في قبورها ، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فَتَسْري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً ، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً .

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذَلِكَ أنموذجاً في الدنيا من حال النائم ، فإنَّ مايُنعَّم به أو مايُعذَّب في نومه يجري على روحه أصلاً ، والبدنُ تبعٌ له، وقد يقوى حتى يؤثّر في البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى النائم في نومه أنه ضُرِب فيصبح وآثار الضرب في جسمه ، ويرى أنّه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ . فإذا كانت الرُّوحُ تتألّم وَتَتَنَعَّم ، وَيَصِلُ ذَلِكَ إلى بدنها بطريق الاسْتِتْبَاع ، فهكذا في البرزخ ، بل أعظم ، فإنَّ تجرُّد الرُّوح هنالك أكمل وأقوى ، وهي متعلّقة ببدنها لم تنقطع عنه كلَّ الانقطاع.

ومتى أَعْطَيتَ هذا الموضع حقّه تبيَّن لك أنَّ ما أخبرَ به الرَّسولُ ﷺ من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسَعَتِهِ ، وضمِّه ، وكونه حفرةً من حفر =

ولو بَرَزَت أمورُ الآخرة للأحياء لَبَطَلَتْ حكمةُ الباري تعالى في سَعادةِ من يؤمنُ بالغيب ، وشقاوةِ من يكفُرُ به[1].

= النّار أو روضةً من رياض الجنّة مطابق للعقل ، وأنه حقٌ لا مِرْيَةَ فيه ، وأنَّ من أشكل عليه ذَلِكَ فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتي ، كما قيل :

وَكَمْ من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفَتُهُ من الفَهْمِ السَّقيمِ . انتهى .

(١) جعل الله سبحانه أمر الآخرة ومايتصل بهَا غيباً ، وحجبها عن إدراك المكلّفين ، وذلك من كمال حكمته ، ليتميَّز المؤمنون بالغيب من غيرهم ، ولو أَطْلَعَ الله سبحانه عباده على الغيب ، لزالت حكمةُ التكليف ، وَلَمَا تدافَنَ النّاسُ أيضاً ، كما في صحيحِ مسلم (٢٨٦٧) عنه ﷺ : **"لولا أن تدافَنوا ، لدَعَوتُ الله أن يُسمِعَكُمْ من عذابِ القبر ما أسمع"** ، ولَمَّا كانت هذه الحكمةُ منتفِيَةً في حقِّ البهائم سمعت ذَلِكَ وأدركته.

قال الحافظ في " الفتح" ٣:٢٣٥ :" وإنّما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد، وأحوال مابعد الموت على ماقبله ، والظاهرُ أنَّ الله تعالى صَرَفَ أَبْصَارَ العباد وأسماعَهم عن مشاهدة ذَلِكَ وسَتَره عنهم إبقاءً عليهم لئلاّ يتدافنوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرةٌ على إدراك أمور الملكوت إلاّ مَنْ شاء الله " انتهى.

س٣٣- ما البَرْزَخ؟

هو عالَمٌ بينَ الدُّنيا والآخرةِ موجودٌ الآنَ ، وفيه مُسْتَقَرُّ الأرواح وما شاء الله [1] .

---

(1) قال في "القاموس" :" البرزخ الحاجز بين الشيئين ، ومن وقت الموت إلى القيامة ، ومن مات دخله " انتهى . ووجه تسميته برزخاً لكونه يحجز بين الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

قال الإمام السيوطي في " طلوع الثريا " ص٥٥ ، وفي " الحاوي " ١٨٥:٢ : " قال الإمام عبدالجليل بن موسى القَصْري في " شُعَب الإيمان " ونقله عنه الإمام أبو زيد الجزولي في شرح رسالة ابن أبي زيد : البرزخ على ثلاثة أقسام : مكان ، وزمان ، وحال . **فالمكان** : من القبر إلى عليين تَعمرُهُ أرواح السُّعداء ، ومن القبر إلى سجِّين تعمُرُه أرواح الأشقياء . **وأمَّا الزمان**: فهو مُدَّة بقاء الخلق فيه ، من أوَّل من مات أو يموت من الجنِّ والإنس إلى يوم يُبعثون . **وأما الحال** : فإمَّا مُنعَّمةٌ ، وإمَّا مُعذَّبةٌ ، أو محبوسةٌ حتّى تتخلّص بالسؤال من الملكين الفتَّانَيْن " انتهى .

(فَصْل)

والسَّاعةُ حقٌّ[1] ، ولا يعلمُ وقتَها إلاَّ الله[2] .

---

(1) **السَّاعة** : قال الراغب في " المفردات " ص ٤٣٤ ، ونقله الحافظ في "الفتح" ٣٦٤:١١ :" الساعةُ : جزء من أجزاء الزمان ، ويعبَّر به عن القيامة ، قال تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ** ﴾ [القمر :١] سُمِّيت تشبيهاً بذلك لسرعة حسابه : ﴿ **وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِين** ﴾ [الأنعام :٦٢] .

وقيل : الساعات التي هي القيامة ثلاثة : الساعة الكبرى ، هي بعث الناس للمحاسبة . والساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد . والساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فساعةُ كلِّ إنسان موته ، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بلقاء الله حَتَّى إذَا جَاءَتهم السَّاعَةُ بَغْتَةً** ﴾ [الأنعام:٣١] ، ومعلوم أنَّ هذه الحسرة تنالُ الإنسان عند موته " انتهى .

(2) قَالَ تَعَالَى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا** -أي: إثباتُها واستقرارها- **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ** -أي: عظُمَتْ- **في السَّموَاتِ والأرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كأَنَّكَ حَفِيٌّ عنها** -أي : عالِمٌ بها- **قُل إِنَّمَا عِلْمُها عندَ اللهِ وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٧] .

وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تكون قريباً**﴾ [الأحزاب: ٦٣] .

وَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿**يَسْأَلونَكَ عن السَّاعةِ أَيَّانَ مُرْسَاها * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاها * إلى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤] .

والحشرُ وتفاصيلُه التي ذكرَها الشَّرعُ العزيزُ حقٌّ .

س٣٤- هل الحشر بالجسم أم بالرُّوح دونَ الجسم؟

تُحشرُ الأجسامُ بأعيانها التي كانت في الدنيا ، وهي التي تُحَاسَب (١) .

= وفي حديث جبريل الشهير : قال :" متى الساعة "؟ قال : " **ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل** ".

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في " الفوائد " ص٤٣ :" إنَّ الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الَّذي أطاع وعصى ، فينعِّمُهُ ويُعذِّبُهُ كما يُنعِّم الرُّوح التي آمنت بعينها ، ويُعذِّب التي كفرت بعينها ، لا أنَّه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعِّمُها ويعذِّبُها كما قاله من لم يعرف المعاد الَّذي أخبرت به الرُّسل ، حيث زَعَمَ أنَّ الله سبحانه يخلق بدناً غير هذا البدن من كلِّ وجه! عليه يقع النعيمُ والعذاب . والرُّوح عندهم عَرَضٌ من أعراض البدن ، فيخلُقُ روحاً غير هذه الرُّوح ، وبدناً غير هذا البدن ! وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودلَّ عليه القرآن والسنَّة ، وسائر كتب الله تعالى . وهذا في الحقيقة إنكارٌ للمعاد ، وموافقة لقول من أنكره من المكذِّبين ، فإنَّهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسامٍ أُخر غير هذه الأجسام يُعذِّبها ويُنعِّمها ؛ كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يُخلَقُ شيئاً بعد شيء ، فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التي فَنِيَتْ ؛ فكيف يتعجَّبون من شيءٍ يشاهدونه عياناً ؟! وإنَّما تعجَّبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزَّقَهُمُ البلى ، وصاروا عظاماً ورُفاتاً، فتعجَّبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : =

س٣٥- هل يُسْمَع طلبُ الدليل فنِّياً على عذابِ القبر ونعيمِهِ وما بَعْدَهُ من أمورِ الآخرةِ كالحشْرِ بالأجْسامِ وغيره؟

لا يُسمع فهو طلبٌ لا يتوجَّهُ أصلاً ، ولا يقوله عاقل ذو إدراكٍ سليم ؛ لأنَّ الغيبيَّات هِيَ مما وراء الطبيعة ، وقواعد الفن مُنْحصِرةٌ في الطبيعيات (١) .

= ﴿ **ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُون** ﴾ [الصافات : ١٦] ، وقالوا : ﴿ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد** ﴾ [ق :٣] . ولو كان الجزاء إنَّما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذَلِكَ بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداءً ، ولم يكن لقوله : ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرضُ مِنْهُم** ﴾ [ق : ٤] كبير معنى ؛ فإنَّه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤالٍ مقدَّر ، وهو أنَّه يُميِّز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض ، واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميَّز ، فأخبر سبحانه أنه قد عَلِم ما تنقصُهُ الأرضُ من لحومهم وعظامهم وأشْعارهم ، وأنَّه كما هو عالمٌ بتلك الأجزاء؛ فهو قادرٌ على تحصيلها وجمعها بعد تفرُّقها ، وتأليفها خلقاً جديداً " انتهى .

(١) قال ابن عبدالبر في " التمهيد " ٢٥٤:٢٢ في شرح حديث فتنة القبر وسؤاله :" أحكام الآخرة لا مَدْخَل فيها للقياس والاجتهاد ، ولا للنظر والاحتجاج ، والله تعالى يفعل ما يشاء ، لا شريك له " انتهى. =

والعوالم الأُخرَويَّة من أحوال الموتِ فما بعده إلى الجنَّةِ والنار ليست متولِّدَةً من الدنيا تولُّداً طبيعياً بانقلاب الأطوار المتناسبة ، فيدركه العقل بالقواعدِ والقياساتِ والتنظيرِ بما يراه من المكتشفات .

وكذا يُقال في سائر الغيبيات التي أثبتَها الشَّرع كالملائكة والجنِّ وما في السماوات وغيرها ليست متولِّدةً من الأشياء التي للقواعد بها ارتباطٌ، وللعقل فيها مجال .

= وقال القرطبي في " التذكرة " ص ١٧١ :" هذا الباب ليس فيه مدخل للقياس ، ولا مجال للنظر فيه ، وإنَّما فيه التسليم والانقياد لقولِ الصَّادق المُرسل إلى العباد " انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب في " جامع العلوم والحكم " ٢:١٧٢ :" وَمِمَّا يدخل في النَّهي عن التعمُّق والبحث عنه : أمور الغيب الخبرية التي أُمرنا بالإيمان بِهَا ، ولم يبيِّن كيفيتها ، وبعضها قد لا يكون له شاهد في هذا العالم المحسوس ، فالبحث عن كيفية ذَلِكَ هو مما لايعني ، وهو مما يُنهى عنه، وقد يُوجِبُ الحَيْرَةَ والشَّك ويرتقي إلى التكذيب " انتهى .

ثُمَّ إنَّ الساعةَ تأتي دَفْعةً واحدةً ، قال تعالى: **﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾**[1] ، وقال: **﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾**[2].

والعقلُ لا يمنع شيئاً من ذلك ؛ لأنَّه ليس داخلاً في دائرةِ ما يُثبِتُه أو يَنفيه ، ولا يعرفُهُ إلاَّ من طريق القرآن والخبر النبويِّ كما قدَّمناه[3] ، فظَهَرَ أنَّ التصديقَ بتلكَ الأمور لا يتوقَّفُ فيه على إثباتها فنِّيّاً إلاَّ مَن لا يَرى للهِ قُدْرَةً تامَّةً عامَّةً ، ولا للأنبياء صِدْقاً ، وهو صريحُ الكفر؛ فالعاقلُ يقولُ: **آمَنْتُ باللهِ وَبِرُسُلِهِ**[4] .

---

(١) من سورةِ النحل ، الآية: ٧٧.

(٢) من سورةِ الأنبياء ، الآية: ٤٠. وقوله سبحانه: **﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾** أي :بل تأتيهم السَّاعة الموعود بِهَا وبعذابهم فيها مفاجأة من غير شعورٍ بمجيئها **﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾** أي:تدهشهم وتحيِّرُهُمْ.

(٣) عند كلامه عن وظيفة العقل في هذا العلم ص١٤٨-١٥٣ .

(٤) قال العلامة الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله تعالى في رسالته " ثبوت القَدَمَيْن في سؤال الملكَيْن " ص١٩ :" واعلم -يا أخي- أنَّ اليوم الآخر وجميع ما فيه من الموت إلى أن يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، مما وردت به الأخبار الصحيحة ، حقٌ لا شبهة فيه ، يفترض الإيمان به من =

= غير تصوُّرٍ ولا تخيُّلٍ لشيء منه ، ولأنَّ ذَلِكَ خارجٌ من معقولنا الدنيوي ومحسوسنا.

وقد ورد في السمع عن الصادق ﷺ أمور تُوصَف بهَا الآخرة على خلاف أمور الدنيا ، كخبر الصِّراط ومرور الناس عليه ، وخبر الميزان وتجسيم الأعمال ووزنها ، ووصف أحوال أهل الجنة والنار . وقد قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرى** ﴾ [النجم :٤٧] ، أي : خِلْقة غير هذه النشأة الدنيوية..

والحاصلُ : أنه لابد من الإيمان بالغيب في أحوال الآخرة ، والآن ربما استَبْعَد العبد شيئاً من ذَلِكَ حيث لم يدركه بعقله ، فحوَّل يقينه إلى الظن ، وربما وَصَل الأمر به إلى جحود شيءٍ من ذَلِكَ فيكفر ، والعياذ بالله تعالى ؛ فإنَّ سبب كفر الفلاسفة والدهريين وسائر الفرق الضالة والزائغين ، لتحكمهم بالتفهُّم العقلي على ما لايمكن أن يدرك بالعقل ، كإنسانٍ بيده الميزان الصغير الَّذِي يوزن به الذهب ، فالتزم أنَّه لا يُصدِّق بثقل شيئ إلا بوزنه له به ، فإذا عُرِضت عليه صخرةٌ من الصخور ، أو جبل من الجبال ، وأُخبر بثقل ذَلِكَ حاول أن يُدخل ذَلِكَ في ميزانه ، فلم يمكنه لِعِظَم ما أُخبر به ، واحتقار ميزانه فعند ذَلِكَ تتميَّز السعادة من الشَّقاوة ، فأما السعيد فينسب العجزَ عن ذَلِكَ لميزانه ، ويؤمن بما أُخبر به إيماناً بالغيب ، فيدخل تحت قوله تعالى : ﴿ **هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنونَ بالغَيبِ** ﴾ [البقرة :٢-٣] . وأما الشقيُّ فينسب الَّذِي أخبر بذلك إلى الكذب ، ويسيئ ظنَّه بربه ، وينتصر لميزانه ، =

س٣٦- ما هِيَ علاماتُ السَّاعَةِ التي تَدُلُّ على قُربِها؟

لها عَلَامَاتٌ عديدة ، وقد فوَّضْنَا بيانَهَا إلى المعلِّمين(١) .

= ويوثِّقه ، ويعتمد عليه ، فيلتحق بالأخسرين أعمالاً الَّذِينَ ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنَّهم يُحْسِنون صُنْعا ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم" انتهى .

(١) تنقسمُ عَلامَاتُ الساعةِ إلى قسمين:

١- علاماتٌ صُغرى: وهي الَّتِي تتقدَّم السَّاعة بأزمانٍ متطاولةٍ ، وتكونُ من نوعِ المعتاد ، كقبضِ العلم ، وظهورِ الجهل ، وشربِ الخمر ، والتطاول في البنْيان.. ونحوها ، وقد يظهر بعضها مصاحِباً للأشراط الكبرى.

٢- وعلاماتٌ كُبرى: وهي الأمورُ العِظام الَّتِي تظهر قربَ قيامِ الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام من السماء ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج دابَّة من الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها.

روى مسلمٌ (٢٩٠١) عن حذيفةَ بن أُسَيْدٍ قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ ، فقال: "**ماتذاكرون**"؟ قالوا: نذكر الساعة ، فقال: "**إنها لن تقوم حتّى ترَوا قبلها عشر آياتٍ: الدُّخانُ ، والدَّجالُ ، والدابَّةُ ، وطلوعُ الشمس من مغرِبها ، ونزولُ عيسى ابن مريم ، ويأجوجُ ومأجوجُ ، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرةِ العرب ، وآخرُ ذَلِكَ نارٌ تخرجٌ من اليَمن تطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشرِهِم**". =

وفي آخرِ الدنيا ينفُخُ إسرافيلُ في الصُّورِ(١) نَفْخَـةَ الصَّعْقِ فيموتُ جميعُ الأحياءِ(٢)، ثُمَّ نفخةَ البعثِ فَيَحْيَا جميعُ الأمواتِ، فإذا هُم قيامٌ ينظرون(٣).

= قال العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في " التصريح " ص١٣٢ :" وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفاً بينها بالواو ، والواو لِمُطْلق الجمع ، فلا تفيد أنّها ستقع بالترتيب المذكور هنا .
وهذه الآيات كما قال الطِّيبي رحمه الله تعالى ونقله عنه الحافظ ابن حجر في " الفتح " ١١: ٣٠٣ :" أماراتٌ وعلامات للساعة إما على قُربها ، وإما على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدَّابة ، والنار التي تحشر النَّاس " .

(١) **الصُّور**: قرنٌ يَنفُخُ فيه إسرافيل ، أخرجَ الإمام أحمد ١: ٣٢٦ عن ابن عباس في قول الله تعالى: **﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾** [المدثر: ٨] قال: قَالَ رسول الله ﷺ: **"كيف أَنْعَمُ ، وصاحبُ القرنِ قد التقمَ القرن ، وحَنَى جَبْهَتَهُ يستمع متى يُؤْمرُ فيَنفُخ ؟! "**.

(٢) قَالَ تَعَالَى: **﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾** [الزمر:٦٨] .والمراد بالصَّعق : غَشْيٌ يلحق مَنْ سمع صوتاً أو رأى شيئاً يفزع منه ، كما قال الحافظ في "الفتح" ٦: ٤٤٤ .

(٣) قَالَ تَعَالَى: **﴿ثمَّ نُفِخَ فيه أُخرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنظُرونَ﴾** [الزمر: ٦٨] . =

س٣٧- ما القولُ في سدِّ ذي القرنين؟

هو ثابتٌ(١)، وإنكاره ردٌّ للقرآن ،

= وقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إلى ربِّهم يَنْسِلونَ﴾** [يس: ٥٠] .

(١) قال الله جلَّ ثناؤه : **﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ : سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ..﴾** إلى قوله سبحانه : **﴿ وماَاسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾** [سورة الكهف :٨٣-٩٧] .
قال القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني :" فَوَصَف في هذه الجملة من أحواله في تقلُّبه وانتقاله ، ومُنتهى مسيره في الشرق طاعناً ، وغاية مبلغه من الغرب واغلاً ، ودلَّ على عِظَمِ مُلكِهِ ، وشِدَّة وَطْأته ، وعلوِّ كلمته ، وانْبساط قدرته ، بما عَدَّ من آثاره ، وقَصَّ علينا من أخباره ، وأكَّد ذَلِكَ وحقَّقه بقوله تعالى : **﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ سَبَباً ﴾** [الكهف :٨٤] . وحسبُك بمن شهد الله له بالتمكين والاقتدار ، وناهيك بمن آتاه الله جوامع الأسباب ، ووطَّأ له أباعد الأقطار" انتهى (ثمار القلوب ، للثعالبي ١: ٤٤١) .
وقد اختلف المفسِّرون في اسم ذِي القَرْنين ونسبه وزمان وجوده ، وسبب تلقيبه بذي القرنين ، وأرجحُ الأقوال في تحديد شخصيته : أنّه (قُورش الإخميني) ، لإجماع المؤرِّخين على عدالته وحُسْن سيرته في الممالك والشعوب التي استولى عليها . وهو مارجَّحه العلاّمة أبو الكلام آزاد في بحثه عن "ذي القرنين" ، وأمَّا ماذهب إليه كثيرٌ من المفسِّرين في كون ذي =

= القرنين أبا كرب شمر بن عمرو الحميري : فبعيد ؛ لأنَّهُ لم يُذكر في سيرته أنّه بنى سدّاً تنطبق عليه أوصاف سدِّ ذي القرنين ، وماذكره بعضهم بأنّه الإسكندر المقْدوني فهو بعيدٌ جداً ، لأنَّهُ كان وثنياً سفّاكاً للدماء .

قال الشيخ ابن تيمية في " الرد على المنطقيين " ص٢٨ :" فإنَّ أرسطو كان وزيراً للإسكندر بن فيلبس المقدوني ، وليس هذا ذا القرنين المذكور في القرآن كما يظنُّ كثير منهم ، بل هذا كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ".

وقال أيضاً ص١٨٦ :" وهذا إنّما ذهب إلى أرض الفرس ، و لم يصل إلى السدِّ عند من يعرف أخباره ، وكان مشركاً يعبد الأصنام ، وذو القرنين كان موحِّداً مؤمناً بالله ، وكان مُتقدِّماً على هذا ، ومن يسميه الإسكندر يقول : هو الإسكندر بن دارا " .

وقال في " تفسيره سورة الإخلاص " كما في " مجموع الفتاوى " ٣٣٢:١٧ :" وهذا المقدوني ذهب إلى بلاد فارس ، و لم يصل إلى بلاد الصين فضلاً عن السدِّ ".

وقال ابن القيِّم في "إغاثة اللهفان " ٢٦٣:٢ :" إنَّ الإسكندر المقدوني هو ابن فيلبس ، وليس بالإسكندر ذي القرنين الّذِي قصَّ الله تعالى نَبأه في القرآن ، بل بينهما قرونٌ كثيرة ، وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحِّداً لله تعالى يؤمنُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكان يغزو عُبَّاد الأصنام ، وبَلَغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وبنى السدَّ بين يأجوج ومأجوج. وأمَّا هذا المقْدوني فكان مُشرِكاً يعبدُ =

وموقعُه في جهةِ القُطْبِ الشمالي [1] كما يدلُّ له سياق الواقعة وتفاسيرها العتيقة . والمنكِرون لوجوده استناداً على عدم

= الأصنام هو وأهل مملكته ، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وسُتمائة سنة" انتهى .

أمّا الأوصاف التي ذكرت في سيرة (قورش) كما وردت في كتب المؤرِّخين فتدلُّ على حكمته وعدالته ، كما أنَّ فتوحاتِهِ في المشرق والمغرب لحماية أطراف دولته من المغيرين الطامعين ، وبناء السدِّ في شمال مملكته لحفظ سكان الشمال من هجمات القبائل المتوحِّشَة ، كلُّ ذَلِكَ يُرَجِّحُ أن يكون ذا القرنين . (انظر :ذو القرنين ، بحث للشيخ أحمد حسن الباقوري في مجلة "الوعي الإسلامي" ، السنة السابعة ١٣٩١ العدد ٨١ ص ٢٥-٣١ و "خواطر دينية " للشيخ عبدالله بن الصِّدِّيق ، الجزء الثاني ، (بحث للدكتور عز الدين عبدالقادر ص٨٥-١١٦) .

(١) لايمكن الجزم بتحديد مكان السدِّ الّذِي بناه ذو القرنين ، لسكوت المصادر اليقينية الصحيحة -وهي الكتاب والسنّة- عن تلك التفصيلات . وكلام العلماء في تحديد شخصية ذي القرنين ومكان السدِّ من باب الظن والاحتمال والترجيح وليس من باب الجزم واليقين ، وقد اختلف المفسِّرون في موقع السدِّ الّذِي بناه ذو القرنين كاختلافهم في شخصه ، فذهب بعضهم إلى أنّه سدُّ مأرب ، وآخرون إلى أنّه سور الصِّين ، وهو مارجَّحه شيخ شيوخنا العلاّمة المؤرِّخ محمد راغب الطَّبَّاخ المتوفى سنة (١٣٧٠) رحمه الله تعالى في كتابه : "ذو القرنين وسدُّ الصين ". =

= ولو تأمّلنا المعالم التي ذكرها القرآن الكريم لأمكننا التعرُّف على السدِّ ، ومن هذه المعالم : أنّه سدٌ أُقيم بين جبلين مُتقابلين ، وأنَّ تكوينه من الحديد المطعَّم بالنحاس المذاب ، وأنَّ الغَاية من إقامته حماية مَنْ دونه من هجمات الأعداء .

وهذا مافعله أبو الكلام آزاد حينما خطّأ القائلين بأنّه سدُّ مأرب لأنّهُ حجارة وتراب ، والهدف منه زراعي لحجْز مياه السُّيول خلفه وتنظيم توزيعه لريِّ الأرض . وكذلك خطّأَ من قال إنّه سور الصين الّذِي يمتدُّ (٢٤٠٠) كم فوق السُّهول والوديان والتلال .

والذي وصل إليه أنّه السدُّ المقَام على مَضيق (دَارْيال) في جِبَال القُوقاز ، فإنَّ سِلسلة جبال القوقاز تمتدُّ من بحر قَزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً بطول (١٢٠٠) كم ، ولايوجد ممرٌّ بين السِّلسلة الشاهقة سوى ممر ضيِّق يُسمّى مضيق (داريال) ولايزيد عرض هذا المضيق عن مائة متر تقريباً ، وفي هذا المضيق حاجزٌ حديدي تنطبق عليه جميع أوصاف سدِّ ذي القَرْنين ، وهو يقع الآن في جمهورية جورجيا السوفيتية - سابقاً- .

وقد كان الموقع التقريبي لسدِّ ذي القرنين معلوماً لدى بعض المفسِّرين ، فالإمام القرطبي يقول في "تفسيره" ١١:٥٥ في تفسير قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ** ﴾ :"وهما جبلان من قِبل أرمينية وأذربيجان " كما أشار ابن كثير في تفسيره ٢١٩٤:٥ إلى بعثة الواثق العباسي لاكتشاف حال السدِّ . =

= وما ذهب إليه أبو الكلام آزاد وبعض المفسِّرين السابقين رجَّحَة الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر في دراسته الموسَّعة الموثّقة عن ذي القرنين في كتابه " مفاهيم جغرافية في القصص القرآني " حيث يقول ص٣١٢ : "وكانت القبائل المغولية تنقضُّ على مناطق آسيا الغربية خلال القرن السادس قبل الميلاد .. وكلُّ صفحات التاريخ تذكر أنّ ثَمّة توقُّفاً مُفاجئاً حدث في عملية تدفُّق القبائل البدائية المتوحِّشة .. وتُشير حقائق التاريخ نحو الحقبة التي ظهر فيها (قورش) ذي القرنين ..وذلك بإنشاء السدِّ في مضيق داريال من كتلٍ هائلة من الحديد المخلوط بالنُّحاس ..وتلك هي الثغرة التي كان هؤلاء المتوحشون يغيرون منها . ويُشار إلى هذا السدِّ في الأطالس الجغرافية الحديثة ، كما أنَّ سكان جورجيا يعرفونه في بلادهم باسم (الباب الحديدي) ، وهو مشهور إلى الآن عندهم " انتهى .

وقال الدكتور عز الدين عبدالقادر كما نقله العلامة المفسِّر الشيخ عبدالله ابن الصدِّيق الغُمَاري في " خواطر دينية " ١١٢:٢ :" ومن الثابت تاريخياً : أنَّ السدَّ الّذِي بناه (قورش) في شمال إيران بأرض أرمينية ، موجود حتى اليوم ، وينطبق عليه وصف القرآن الكريم ، في ذَلِكَ المَمَر بين جبلين من سلسلة جبال القوقاز ، بين بحر قزوين والجبل الأسود ، وهذ السد يسمى هناك حتى اليوم " سد غورائي " نسبة إلى غوروس ، وهو الملك (قورش) الفارسي ، لا الإسكندر المقدوني " انتهى .

وقال السيِّد رشيد رضا في "مجلة المنار " في المجلد١١ ج٤ص٢٧٥ :" وفي روسيا مَوْضِعٌ يُسمَّى (دمرقيو) أي : باب الحديد ، وهو أثر سدٍّ قديم بين =

العثورِ عليه مع كثرةِ السياحات ، **فأولاً**: لم يقطعوا تلك الجهةِ باعترافهم ، **وثانياً**: قبل الأوان يُحتمـل أن يَحجـبَ اللهُ الأعـينَ عنه وعَمَّا وَرَاءَه ، هُوَ القَادِرُ جلَّ جلاله [1] .

= جبلين يُقال إنه من صنع بعض ملـوك الفـرس ، ويُحتمـل أن يكـون موضع السدّ . وقـد ذكـره ملطـبرون في جغرافيتـه ممـا يـدل علـى ذَلِـكَ (راجـع ص١٥و١٦ ج٣) . وأخبرني مختار باشا الغازي بأنـه رأى خريطـةً جغرافيـةً قديمةً لتلك الجهات ، وفيها رسم ذَلِكَ المكان وبيـان أنَّ وراءه قبيلتـين اسـم إحداهما (آقوق) واسم الثانية (ماقوق) وتعريـب هذيـن اللفظـين بيـأجوج ومأجوج ظاهرٌ جليٌّ" انتهى.

(١) قال العلاّمة محمد الأمـين الشـنقيطي في " أضـواء البيـان " ٤:١٨٦ في الردِّ علـى مـن ادَّعـى مـن الملحديـن أنَّ يـأجوج ومـأجوج لاوجـود لهـم الآن ، بدعـوى أنّهـم لوكـانوا وراءَ السَّدِّ لاطلَّـع النَّـاسُ عليهـم لتطـوُّر طـرق المواصلات!! قال رحمه الله :" فقولكم : لوكانوا موجوديـن وراء السدِّ إلى الآن لاطلّع عليهم الناس غـير صحيـح؛ لإمكـان أن يكونـوا موجوديـن والله يخفي مكانهم على عامَّة الناس حتـى يـأتي الوقـت المحـدَّد لإخراجهـم على الناس . وَمِمَّا يؤيِّد إمكان هذا مـاذكره الله تعـالى في سـورة المـائدة من أنـه جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة ، وذلـك في قولـه تعـالى : **﴿قَـالَ فَإِنّهـا مُحرَّمَـةٌ عَلَيهِـم أَرْبَعِـينَ سـنَةً يَتِيهُـون في الأَرْضِ﴾**. وهـم في فراسخَ قليلةٍ من الأرض ، ولم يطَّلع عليهم الناس حتى انتهى أَمَدُ التيه ؛ =

س٣٨- بعد البعث من القبور ماذا؟

الحشـر[1] في عَرَصَـاتِ القيامـة: **﴿يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الأَرْضُ غَـيرَ الأَرْضِ والسَّمَاوات﴾** [2] .

= لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبيَّنوا لهم الطريق . وعلى كلِّ حالٍ ، فربُّـك فعَّالٌ لما يريد ، وأخبارُ رسوله ﷺ الثابتةِ عنه صادقةٌ " انتهى .

(١) **الحشر** : الجمع ، وهو حشر الأموات من قبورهم وغيرها بعد البعث جميعـاً إلى الموقف ، قال الله عز وجل : **﴿ وَحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغَـادِرْ مِنْهُـم أحَـداً ﴾** [الكهف:٤٧] .

(٢) مـن سـورةِ إبراهيـم: ٤٨ ، ومعنـى تبديلهـا: تغيـيرُ ذاتِهـا وصفاتهـا ، روى البخـاري (٦٥٢١) ، ومسـلم (٢٧٩٠) قَـالَ ﷺ :" **يُحشَـرُ النّـاس يـومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاء عفراء كقُرْصَـة نقـيّ** " قـال سـهل - أوغـيره -: "**ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد**" ، والعفر : بياضٌ ليس بالنَّاصع ، وقرصـة النقـي : أي الدقيق النقي من النُّخالة ، وقوله :" ليس فيها مَعْلَـمٌ لأحـدٍ " أي : أنّهـا مستويةٌ ليس فيهـا علامـةُ سكنٍ ولا بنـاء ، ولا شـيء مـن العلامـات الـتي يُهتدى بِهَا .

قـال الحـافظ في " الفتـح " ٣٧٥:١ :" فهـي إشـارة إلى أنَّ أرض الدنيـا اضمحلّت وأُعدِمَتْ ، فـإنَّ أرض الموقـف تجـدَّدت ، وقـد وقـع للسـلف في ذَلِكَ خلاف في المراد بقوله تعالى : **﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ** =

ثُمَّ **الشَّفاعةُ الكبرى المحمَّديَّة العُمُوميَّة** [1] لفَصْلِ الناس

= **والسَّمَوَاتُ﴾** هل تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها ، أو تغيير صفاتها فقط ، وحديث الباب يُؤيِّدُ الأول . ونقل الحافظ أيضاً في " الفتح " ١١:٣٧٥ في شرح هذا الحديث عن الإمام أبي محمد بن أبي جمرة :" والحكمة في الصفة المذكورة أنَّ ذَلِكَ اليوم يوم عدل وظهور حق ، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الَّذِي يقع فيه ذَلِكَ طاهراً عن عمل المعصية والظلم ، وليكون تجلّيه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليقُ بعظمته ؛ ولأنَّ الحكم فيه إنّما يكون لله وحده ، فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده " انتهى .

(١) **الشفاعة** : هي انْضِمَام الأدْنى -أي : لجوؤه وقَصْده -إلى الأعلى ، ليستعين به على مايرومُه -أي : في جَلْب منفعةٍ أو دفع مضرَّةٍ عن المشفوع به - . وقال الإمام أبو منصور الأزهري في " الزاهر " ص٢١٦ :" أصل الشَّفْع : الزيادة ، قال الله عز وجل : ﴿ **مَنْ يَشْفَع شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا** ﴾ [النساء:٨٥] ، أي : يزيد عملاً إلى عمل . قال النبي ﷺ :" **شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي** " رواه أبو داود (٤٧٣٩) والترمذي (٢٤٣٧) ، وهي للموحِّدين الَّذِينَ ارتكبوا الكبائر يشفع لهم النبي ﷺ أن يغفر لهم عن ذنوبهم ، ويزدادوا كرامةً على ما استوجبوا بتوحيدهم خالقهم عزَّ وجل " انتهى .

والشفاعةُ عند اللهِ تعالى لايتقدَّم إليها أحدٌ إلاّ بإذنه سبحانه . قال تعالى : ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإذْنِهِ**﴾ [سورة البقرة :٢٥٥] ، فهو =

= سبحانه يَأْذن لمن يشاء ، ويشفّعه بمن يشاء ، قال تعالى : ﴿ **وَلاَيَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

وأما قوله تعالى : ﴿ **واتّقُوا يَوْمَاً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئَاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَة** ﴾ [البقرة :٤٨] ، وقوله تعالى :﴿ **يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَومٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ** ﴾ [البقرة :٢٥٤] ، وغيرها من الآيات التي يستدلُّ بهَا بعض المبتدعة في إنكار الشفاعة، فالجواب عن ذَلِكَ ما قاله الإمام المفسِّر ابن جُزَيٍّ في "التسهيل" ١:٨٩ :" ..أي : ليس في يوم القيامة شفاعة إلاّ بإذن الله ، فهي في الحقيقة رحمةٌ من الله للمشفوع فيه ، وكرامةٌ للشافع ، ليس فيها تحكُّم على الله ، وعلى هذا يُحمَل ما وَرَدَ من نفي الشفاعة في القرآن . أعني : أنه لا تقع إلاّ بإذن الله ، فلا تعارضَ بينه وبين إثباتها ، وحيث ما كان الكلام في سياق أهوال يوم القيامة ، والتخويف بهَا نُفيَت الشفاعة على الإطْلاق مبالغة في التهويل ، وحيث ما كان سياق الكلام تعظيم الله نُفِيَت الشفاعة إلاّ بإذنه". ويقول ابن جزي في " التسهيل " أيضاً ١:٤٧ في تفسير قوله تعالى :﴿ **وَلا يُقْبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ :" ليس نفي الشفاعة مطلقاً، فإنَّ مذهب أهل الحق ثبوت الشفاعة لسيدنا محمد ﷺ ، وشفاعة الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين ، وإنّما المراد أنّه لا يشفع أحدٌ إلاّ بعد أن يأذَنَ الله له ، لقوله تعالى:﴿ **مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ** ﴾ [يونس :٣] ، ولقوله:﴿ **وَلاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاّ لِمَنْ أذِنَ لَه** ﴾ [سبأ :٢٣] ، وانظر ما ورد أنَّ رسول الله ﷺ يستأذن في الشفاعة فيقال له :" **اشفَعْ تُشَفَّعْ** ".فكلُّ ما ورد في القرآن من نفي =

بعد طول وقوفهم حفاةً عراةً(١)، وهي المقام المحمودُ الموعودُ بِهِ في القرآن(٢).

= للشفاعة مطلقاً يُحمل على هذا ؛ لأنَّ المطلق يحمل على المقيَّد ، فليس في هذه الآيات المطلقة دليل للمعتزلة على نفي الشفاعة " انتهى .

والشَّفاعة يوم القيامة على أنواع متعددة : أوَّلها وأعظمُها وأعمُّها : **الشفاعة الكبرى** ، وتُسمَّى الشَّفاعة العُظْمى ، وهي الشَّفاعة العامَّة التي تعمُّ جميع أهلِ الموقف على مُختلَف أديانهم ، وبها يتخلَّصون من أهوال الموقف وكرباته بعد اشتدادها وطولها ، والشفاعة العظمى هي من خصائص سيدنا محمد ﷺ ، وهي أوَّل الشَّفاعات ، وهي باب الشَّفاعات كُلِّهَا . "الإيمان بعوالم الآخرة" ، للشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله تعالى، ص١٨٠ .

وانظر أنواع الشفاعة التي اختُصَّ بهَا سيِّدُنا رسول الله ﷺ دون الأنبياء في "فتح الباري " لابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ٢ :٢١٤-٢١٧.

(١) روى البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :" **تُحْشَرون حُفاةً عراةً غُرْلاً** " قالت عائشة :فقلت : يارسول الله ، الرجال والنساء ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : **الأمرُ أشدُّ من أن يهمَّهم ذاك** " . والأغرل : الَّذِي لم يختتن .

(٢) قَالَ الله سُبْحَانَهُ مخاطِباً نَبِيَّهُ ﷺ : ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] . وإنَّما سُمِّي مقامُ شَفَاعته ﷺ العظمى -سمي مقاماً محموداً- ؛ لأنَّ أهلَ الموقف كلهم : برَّهم =

= وفاجرهم،وسعيدَهم وشقيَّهم يحمَدون الرَّسولَ ﷺ ، ويُثْنون عليه بشفاعته بهم ، وإنقاذهم من أهوال الموقف وشدائده .

قال الإمام ابن رشد الجد في " الفتاوى" ٢ :٧٧٥-٧٧١ :" وأجمع أهل العلم على أنَّ المقام المحمود الَّذِي وعده الله به في كتابه هو شفاعتُهُ لأمَّته ، بل هي الشفاعة العامَّة لجميع الأمم بعد تطوافهم على أولي العزم من الرُّسل في أن يشفعوا لهم إلى الربِّ جلَّ جلاله ليريحهم من طول المقام بالموقف ، فيحاسبهم ، فيعظم ذَلِكَ على كلٍّ واحدٍ منهم ، ويحيلُ بعضهم على بعض، حتى يأتوا النَّبيَّ ﷺ وعليهم أجمعين ، فيشفِّعهم على ما جاء في الحديث الصحيح " انتهى .

قال ابن القيم في " الفوائد " ص٣٤٨ :" لما كَمُلَ للرسول ﷺ مقام الافتقار إلى الله سبحانه ، أحوَجَ الخلائقَ كلَّهم إليه في الدنيا والآخرة . أما حاجتهم إليه في الدنيا : فأشدُّ من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنَّفَس الَّذِي به حياة أبدانهم ، وأما حاجتهم إليه في الآخرة : فإنهم يستشفعون بالرُّسل إلى الله حتى يريحوهم من ضيق مقامهم ، فكلُّهم يتأخَّر عن الشفاعة ، فيشفع لهم ، وهو الَّذِي يستفتح لهم باب الجنة " انتهى .

وقال العلاَّمة محمد بن أحمد السفَّاريني في "نتائج الأفكار"ص١٦٨:"وأما قوله ﷺ :"**أنا سيِّدُ النَّاسِ يَومَ القيامة**" مع أنَّه سيِّدُهم في الدنيا ويوم القيامة، فإنَّه أشار إلى انفراده بالسُّؤْدد والشفاعة العظمى دون غيره؛ إذا لجأ الناس إليه في حوائجهم ومهماتهم، فكان ﷺ حينئذٍ سيِّداً منفرداً من بين البشر ، لم يزاحمه أحدٌ في ذَلِكَ ولا ادَّعاه ،فهو كقوله تعالى:﴿ **مَالِكِ يَوْمِ** =

ثُمَّ الحسابُ[1] ، والميزانُ[2] .

= الدِّين﴾ مع أنه مالك الدنيا ويوم الدين ، وقولـه : ﴿ لِمَـنْ المُلْـكُ اليَـوْم للهِ الوَاحِدِ القَهَّار ﴾ [غافر : ١٦] مع أنَّ المُلْك له في الدنيا والآخرة ، ولكن لما انقطعت في الآخرة دعوى المدَّعين للمُلك في الدنيا ، وكذلك لجـأ النـاس إلى سيِّدنا محمد في العُقْبى ، حتى تدافع أولو العزم للشفاعة من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى ، حتّى انتهت إلى سيِّد المرسلين ، وحبيـبِ ربِّ العالمين ، فَصَلُح تخصيصُهُ بالسيادةِ في ذَلِكَ اليوم ، وإن كـان هـو سيد العالم دنيا وحَشْراً وعُقبى " انتهى .

(١) **الحساب:** معناه لغة العَدُّ ، واصْطلاحـاً : إيقـاف الله عبـادَه في المحشـر على أعمالهم خيرها وشرِّها ، فعلاً وقولاً واعتقاداً . وكيفيته مختلفة فمنـه اليسير ومنه العسير ، ومنه السرُّ ومنه الجهر ، ومنـه مـايكون معـه الفَضْـل ، ومنـه مايكون معه العدل ، وذلـك على حسـب اختـلاف الأعمـال ، وهـو عـامٌّ للخلق كافَّة من الإنْس والجنِّ . قَالَ تعالى: ﴿إنَّ إلينا إيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إنَّ عَلينا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] ، وقـال سُبْحَانَهُ: ﴿فَوَرَبِّـكَ لَنسْـألَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عمَّا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾ [الحجر:٩٢- ٩٣] ، وقـال: ﴿أَلاَ لَـهُ الحُكْمُ وهُوَ أَسْرعُ الحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] ؛ فالله سبحانه يحاسـبهم على أعمالهم ويجازيهم بها إنْ خيراً فخير ، وإنْ شَرّاً فشَر .

(٢) تُوزَنُ فيه أعمالُ العِباد من الحسناتِ والسيئات ، له كفّتان ولسان ، قَالَ الله تعالى: ﴿والوَزْنُ يَوْمَئِذِ الحقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُون =

= ومَنْ خَفَّـتْ مَوَازِينُـهُ فَـأُولَئِكَ الَّذيـنَ خَسِـرُوا أنْفُسَـهُمْ بِمَـا كَـانوا بآياتِنَـا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩] .

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَمَّـا مَنْ ثقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُـوَ فِي عِيشَـةٍ رَاضِيـةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩].أي : مَأْواه الَّذِي يُؤْويه هو الهاوية ، أي: النار ، وسمِّيت بذلك لأنَّها مَهْواةٌ عميقةُ القَعْر يهوُون فيها على رؤوسهم ، والعياذ بالله .

قال الإمام الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في " منهاج السـلامة في ميزان القيامة " ص١٣٠ :" وإثباتُ ميزان الآخرة ، مذهب الفرقة الناجية القاهرة، ومَنْ خَالفهم رُميَ بمخالفة الشريعة ، ونُبذ بالبدعة الشَّنيعة " انتهى .

وقال العلامة الطُّوفي في " التعيـين " في شـرح قولـه ﷺ :" والحمـدُ للهِ تمـلأ الميزان " ص١٧٥ :" وهذا الحديثُ ظاهرٌ في ثبوت الميزان في المعاد حقيقة، خلافاً للمعتزلـة وبعضهـم ؛ إذ قـالوا : إنَّ الميزان الـوارد ذكـره في الكتـاب والسنة كناية عن إقامة العدل في الحساب ، لا أنَّهُ مـيزان حقيقـة ذو كفتـين ولسان ، كما يقال : يدُ فلان ميزان ، والظواهر في إثبات كونه حقيقـة مـع أهل السنة . وقد قيل للنبيِّ ﷺ : "أين نجدك يا رسول الله في يـوم القيامـة ؟ قال : " عند الحوض ، أو الصراط ، أو الميزان " - رواه الترمذي (٦٢٢:٤) وقال : حسن غريب - وهو كما تراه ظاهرٌ فيما ذكرناه " انتهى .

وقال العلاَّمَة المفسِّر جمال الدين القـاسميُّ في "محاسـن التـأويل" ١٤:٧ نقـلاً عن "اللباب" : إنْ قلتَ : أليس الله عزَّوجل يعلمُ مقاديرَ أعمال العباد؟ فمـا الحكمة في وزنها ؟ =

وتطايُرُ الصُّحُـف المحتويـةِ على الحسـنات والسَّـيِّئات ، فـلا تُخطِئ صحيفةٌ صاحبَها ، فالسعيدُ يُعطاها بيمينِـهِ ، والشَّـقِيُّ يُعطاها بشماله(١) .

= قلت : فيه حِكَمٌ منها : إظهارُ العدل ، وأنَّ الله عزَّ وجل لايظلم عِبَاده .
ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العُقْبى.
ومنها : تعريف العباد مالهم من خيرٍ ومن شرٍ ، وحسنةٍ وسيئةٍ .
ومنها : إظهار علامة السعادة والشقاوة ، ونظيره : أنّه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ، ثمَّ في صحائف الحَفَظَة الموكّلين ببني آدم ، من غير جَواز النسيان عليه سبحانه وتعالى" انتهى .

(١) **الصُّحُف** : هي التي تكتب فيها الملائكة أعمال المكلّفين من الاعتقادات والأقوال وأعمال الجوارح . قال تعالى: **﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَت ﴾** [التكوير :١٠] ، وقَالَ تَعَالَى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ** – أي: تعالو– **اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ۞ إنّي ظَنَنْتُ** –أي: أيقنتُ– **أَنّي مُلاَق حِسَابِيَهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُها دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۞ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَالَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ﴾** [الحاقة: ١٩-٢٩] .
وقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿فَأَمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۞ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞** =

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَهُ﴾(١).

= **فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورا ۞ وَيَصْلَى سَعِيراً﴾** [الانشقاق: ٧-١٢] ، والذي يأخذ كتابه بشِماله تُلوَى يَدُهُ خلف ظهره .
قال العلاّمة الطُّوفي في " التعيين " ص١٩١ في شرح قوله تعالى في الحديث القدسي :" **ياعبادي ؛ إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثمَّ أُوفّيكم إياها**" قوله :" أحصيها لكم ؛ أي : تضبطها الحفظة . فإن قيل : ما الحاجة إلى الحفظة مع علمه ؟ قيل : ليكونوا شهوداً بين الخالق وخلقه ، ولهذا يقال لبعض الناس يوم القيامة : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً " انتهى .
وقال العلاّمة السفّاريني في "لوائح الأنوار السنية " ٢:٢٠٦ :"حِكْمَةُ ذَلِكَ: إلزامُ العباد ، وقَطْعُ مَعَاذيرهم ، ورفع الجدال مع إعادة الذكر ، وإحصاء مافي الصحف وتعدادها على العبد ، وليعلم أنّه مافرَّط في الكتاب مِنْ شيء فيقولون : **﴿ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذا الكِتَابِ لاَيُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَكَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً وَلاَيَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾**[الكهف:٤٩] .

(١) من سورةِ الزلزلة ، الآيتان: ٧-٨.وقوله سبحانه : **﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾** يعني : وَزْن أَصْغَر النَّمْلِ **﴿ خَيْراً يَرَهُ ﴾** يعني في كتابه ، فالله سبحانه رغّبنا في القليل من الخير أن نعمله ، فإنّه يُوشك أن يكثُر ، وحذّرنا من الشرِّ أن نعمله ، فإنّه يوشك أن يكثر . =

ومن أنكر ذنوبَهُ يومئذٍ تنطق أعضاؤُهُ شاهدةً عليه[1] .

= روى الإمام أحمد في مسنده ٥٩:٥ عن صَعْصَعَة بن معاوية ، عمِّ الفرزدق ، أنّه أتى النّبي ﷺ فقرأ عليه : **﴿ فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرّاً يَرَه ﴾** قال : حسبي ! لا أبالي ألا أسمع غيرها . وفي صحيح البخاري ٢٨٣:٣ :" **اتَّقُوا النّار وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَة ، وَلَوْ بكَلِمَةٍ طيِّبَة** " . وفي صحيح مسلم (٢٠٢٦) : " **لاتحقرنَّ من المعروف شيئاً** .." ، وفي الموطأ في كتاب الصدقة ٩٩٧:٢ أنَّ عَائشة تصدَّقت بِعِنَبَةٍ وقالت : "كم فيها من مثقال ذرَّة " .

وروى أحمد ١٥١:٦ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعائشة :" **يا عائشة ، إيَّاك ومُحقَّرات الذنوب ، فإنَّ لها من الله طالباً** " .

(١) قالَ تَعالَى: **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتهمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المبينُ﴾** [النور: ٢٤-٢٥] ، وقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿اليومَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبونَ﴾** [يس: ٦٥] ، فالألسنةُ والأيدي والأرْجُل تشهد على الإنسان ، كما يشهد عليه سمعُه وبصرُه وجلْدُه ، قَالَ تَعَالَى: **﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِم سمعُهُم وأَبْصَارُهُم وَجُلودُهُم بِمَا كَانوا يَعْمَلون ۝ وَقَالُوا لِجُلودِهِم لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنا اللهُ الَّذِي أَنْطقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإليه تُرجَعون ۝ وَمَا كُنتُم تَسْتَتِرون أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُمْ ولا أَبْصارُكُم وَلا جُلودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [فصلت: ٢٠-٢٢] . =

﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَاً﴾[1].

وهناك **الحوضُ المحمَّدِيُّ** مَن شرِبَ منه لا يَظْمَأُ أبداً[2].

= قال ابن القيم في " الفوائد " ص٥١ :" إنَّ الله سبحانه يستشهد على العباد الحَفَظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر ، والجلود التي عصَوه بهَا ، ولا يحكم بينهم بمجرَّد علمه ؛ وهو أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين " انتهى .

(١) من سورةِ الكهف ، الآية: ٤٩ .قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : **﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾** ٢١٦٩:٥ : " أي : فيحكمُ بين عبادهِ في أعمالهم جميعاً، ولا يظلمُ أحداً مِنْ خلقه ، بل يعفو ويصفحُ ويغفرُ ويرحمُ ، ويُعَذِّبُ من يشاءُ بقدرتهِ وحكمتهِ وعدلهِ ، ويملأُ النَّار مِنَ الكفَّار وأصحاب المعاصي، ثمَّ ينجِّي أصحاب المعاصي ويخلِّدُ فيها الكافرين ، وهو الحاكم الَّذي لايجور ولا يظلم ، قال تعالى : **﴿ إنَّ اللهَ لايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْرَاً عَظِيماً ﴾** [النساء :٤٠] . وقال : **﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَة فَلا تُظْلَمُ نَفسٌ شَيئاً وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾** [الأنبياء :٤٧] ، والآيات فيها كثيرة " انتهى .

(٢) **الحوض**: مَجْمَعُ الماء ، وهو الحوضُ الَّذي خصَّ اللهُ بهِ نبيَّنا محمداً ﷺ ، تَرِدُ عليه أمَّتُهُ يَوْمَ القيامة ، وهو حَوْضٌ عَظيم ، ومَوْرِدٌ كريم ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأشدُّ برداً من الثلج ، وأطْيَبُ ريحاً من المِسْك ، من يشرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً ، وهو في غايةِ الاتّساع،=

والصِّراط: وهو جِسْرٌ رقيقٌ على جهنم[1] ،

= وفيه أباريقُ كعددِ نجومِ السَّماء ، آنيتُه من ذهبٍ وفِضَّة ، لا يَظْمأُ من شَرِبَ منه مـن المؤمِنين ، ويُمنع منه مَن انحرفَ عـن الديـن ، وخـالَفَ السَّبيلَ المستقيم ،كما صَحَّتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ .

قال العلامة محمد بن أحمد السفَّاريني الحنبلي (ت١١٨٨) رحمه الله تعـالى في "لوائح الأنوار السَّنيَّة " ١٧٤:٢ :"خَالَفَتْ المُعتزلة فلم تُقِر بإثبـات الحَوْض مع ثبوتِهِ بالسُّنة الصَّحيحة الصَّريحـة ، بَـل وبظـاهر القـرآن " أي : في قولـه تعالى : ﴿ **إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر** ﴾ [الكوثر :١] . ثم قال :" إذا علمت هذا مع ماقدَّمناه مـن الأحـاديث الصحيحـة بالألفـاظ الصريحـة فمـن خـالف في الحـوض و لم يقـرَّ بإثباتـه فهـو مبتـدعٌ و لم نكفِّـره ؛ لأنَّ ثبوتـه بـالقرآن فيـه احتمال وليس بصريح . وأمَّا قوله تعـالى: ﴿ **إنَّـا أَعْطَيْنَـاكَ الكَوْثَـر** ﴾ ففيـه اختلافٌ : هل هو الحوض ، أو الخير الكثير ، أو النهر الَّذِي في الجنَّة ؟ نعم، الحوض ثابتٌ بالسُّنة المتواترة وظاهر الكتاب وإجمـا ع أهـل الحـق ، فَمُنْكِره زائغٌ عن الصواب ، مُسْتَحِقٌّ للطَّرد عَنه ، وكفى بذلك خِزْياً وعَذاباً " .

(١) **الصِّراط** : لغة : الطريق الواضح . وشرعاً : جسْر ممدودٌ علـى مَتْـن جهنَّـم بين الموقف والجنَّة ، يَرِدُهُ جميعُ الخلائق من المؤمنينَ والكافرين للمرور عليـه، وهو أدقُّ من الشَّعرة وأحدُّ من السَّيف .

وقال تعالى :﴿ **وَإنْ مِنْكُم إلا وَارِدُهَا كَـانَ عَلَـى رَبِّـكَ حَتْمـاً مَقْضِيّـاً ثُـمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِين فِيهَا جِثِيّـاً** ﴾ [مريـم :٧١] أي : ننجِّـي الَّذِينَ اتقوا على حسب تفاوت درجاتهم في التقوى التي أدناها اتِّقـاء =

= الشِّرك بالله تعالى ، ونترك الظالمين الَّذِينَ لم يتَّقوا أصلاً ، وهـم الَّذِيـنَ مـاتوا على الكفر جثيّاً ، أي : جالسين على الرُّكب .

وقد ثبتَ ذِكرُ الصِّراط في السنَّةِ النبويَّـة في عـدَّةِ أحـاديث ، منهـا الحديـث الَّذِي رواه البخاري (٦٥٧٣) عـن أبـي هريـرةَ ﷺ قـال : قَـالَ رسـول الله ﷺ: "**ويُضْـرَبُ جسْـرُ جهنَّـم ، فـأكونُ أوَّلَ مـن يُجيـزُ ، وَدُعـاءُ الرُّسُـلِ يومئذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، وبه كلاليبُ مثـلُ شَـوْكِ السَّعدان ، أمَا رأيتم شوكَ السَّعدان**"؟ قالوا: بلى يا رسول الله ".

والكلاليـب جمـع كلُّـوب - بفتـح الكـاف وضـم الـلام المشـدَّدة - : هـي الحديدة المعوَجَّة الرأس ، يختطف بهَا الشيء .

والسَّعدان : شوكة صلبة معروفة تكـون بنجـد . قـال القـاضي أبوبكـر بـن العربي : هذه الكلاليب هي الشـهوات المشـار إليهـا في حديـث : " **حُفَّـت النار بالشهوات** " فالشهواتُ موضوعة على جوانبهـا فمـن اقتحـم الشـهوة سقط في النار ؛ لأنها خطاطيفها .انتهى

وروى مسلمٌ في صحيحه (٢٧٩١) عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّهـا سـألت النبـيَّ ﷺ عـن قـول الله: ﴿**يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الأرضُ غـيرَ الأرضِ والسَّـمَواتُ**﴾ [إبراهيم: ٤٨] فأين يكونُ الناسُ يومئذ؟ قال: "**على الصِّراط**".

وروى مسلم في صحيحه (١٨٣) في كتاب الإيمان عن أبي سـعيد الخـدري ﷺ أنه قال : **بلغني أنَّ الجسرَ أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف** .

قال السخاوي في " الأجوبة المرضية " ٩٠٥:٣ :" وأمـا قـول أبـي سـعيد : "بلغني " فالصحابي ﷺ إذا قال شيئاً مما لا مجال للرأي فيه كوصـف =

= الصِّراط بما تقدَّم ، حكمُهُ الرفع على الصحيح ، بل ألحق بعضهم التابعيَّ بالصحابيِّ في ذَلِكَ ، لكن مع الحكم فيه بالإرسال ..

وعلى كل حال ، فنقل أبي سعيد المشار إليه قد ورد تصريح الرفع عن غيره من طرق متعدِّدة ، يقوِّي بعضها بعضاً ، بل أورد الحاكم في مستدركه على الصحيحين بعضها ، فأخرج البيهقي وابن المبارك وابن أبي الدنيا وغيرهم جميعاً من حديث عبيد بن عمير رفعه مرسلاً :" **الصِّراط على جهنَّم مثل حرف السيف** " .

وكذا أخرجه البيهقي وشيخه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً :" **والصِّراطُ كحدِّ السَّيف**" ، والبيهقي وحده من حديث زياد النميري عن أنس مرفوعاً: "**الصِّراط كحدِّ الشعرة أو حدِّ السيف** " .

ومن حديث يزيد الرُّقاشي عن أنس رفعه أيضاً : "**إنَّه أدقُّ من الشعرة ، أحدُّ من السَّيف** " .

ولأبي يعلى وابن منيع في مسنديهما عن أبي هريرة مرفوعاً : " **الصِّراط كحدِّ السيف**".

ولأحمد بن حنبل في مسنده ٦:١١٠ من حديث القاسم عن عائشة في حديث مرفوع أصله عند أبي داود من حديث الحسن البصري عنها : "**ولجهنَّم جِسْرٌ أدقُّ من الشعر ، وأحدُّ من السيف** " انتهى .

والمرورُ عليه مُخْتَلِفٌ"[١]، فمِن ناجٍ ومِن عاطِبٍ ، ثُمَّ إلى الجنَّة أو إلى النَّار .

(١) من جهة البطء والإسراع ، فمنهم - كما ثبت - مَنْ يَمرُّ كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكالفرس المجري ، وسعياً ، ومشياً ، وحبواً ، وزحفاً ؛ وإنَّما تفاوتوا في سُرعة المرور وبُطْئِهِ على قَدْر تفاوتهم في الأعمال الصالحة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في " المحجة في سَيْر الدُّلجة" ص٨٠ :"الصِّراطُ المستقيم في الدنيا يشتمل على ثلاث درجات :درجة الإسلام ، ودرجة الإيمان ، ودرجة الإحسان .

فمن سَلَك درجة **الإسلام** إلى أن يموت عليها مَنَعَتْهُ من الخلودِ في النار ، ولم يكن له بدٌّ من دخول الجنَّة ، وإن أصابه قبل ذَلِكَ ماأصابه .

ومن سَلَك على درجة **الإيمان** إلى أن يموت عليها مَنَعَتْهُ من دخول النار بالكليَّة ، فإنَّ نور الإيمان يُطْفِئ لهبَ نار جهنَّم حتى تقول : " **يامُؤْمِن جُزْ ، فقد أطفأ نورُكَ لهبي** " .

وفي المسند ٣:٢٣٨ عن جابر ﷺ مرفوعاً: " **لايبقى بَرٌّ ولافاجرٌ إلاَّ دَخَلَها، فتكونُ على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم حتى إنَّ للنار ضَجيجاً من بَرْدِهِم** " . =

س٣٩- ما الأعراف؟

الأعراف سُورٌ بينَ الجنَّةِ والنار[1] ،

= ومن سَلَكَ درجة **الإحسان** إلى أن يموت عليها وصل بعد الموت إلى الله ﴿**لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس :٢٦] انتهى.

وقال ابن القيم في " الداء والدواء " ص١٦٠: " فإذا كان يوم القيامة نَصَبَ لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنّته ، ثم صرف عنه من صُرِف عنه في الدنيا ، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وَبِمَا جاء به الّذِي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً ، يسعى بين أيديهم وبأَيْمَانهم في ظُلمة الجسر ، وحفظ عليهم نورَهُم حتى قطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان حتى لَقَوْه ، وأطفأ نورَ المنافقينَ أَحْوَجَ ما كانوا إليه ، كما أطفأه في قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجَنْبَتَيْ الصِّراط كلاليبَ وحَسَكَاً تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل قوَّة سَيْرهم وسرعتهم عليه على قدر قوَّة سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا " .

(١) قَالَ الله تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**﴾ أي : بين الجنَّةِ والنارِ ، وهو السُّورُ الّذِي يُضرب بين أهل الجنة والنار ، له باب باطنه الّذِي يلي المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهرة الّذِي يلي الكفار من جهتهم العذاب ، قَالَ الله فيه: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهم بِسُورٍ له بَابٌ بَاطِنُهُ فيه الرَّحمةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ**﴾ [الحديد:١٣] . =

وأصحابُه مُطِلُّونَ على الجميع[1].

= والأعراف : جمع عرف وهو المكان المرتفع ، وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الأعراف .

(١) أي على أهل الجنة وأهل النار ، قال تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُم** ﴾ يعني يعرفون الفريقين بعلاماتهم ، فإذا نظروا أهل الجنة نادَوا : ﴿ **أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُم** ﴾ ، وإذا صَرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا : ﴿ **رَبَّنَا لاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين**﴾ .

قال ابن القيم في "طريق الهجرتين" ص٥٣٠ :" هذه الآية دليلٌ على أنّهم بمكان مرتفع بين الجنة والنار ، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام ، وطمعوا في الدخول إليها ، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لايجعلهم منهم .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيْمَاهُم** ﴾ يعني من الكفار الّذِينَ في النار ، فقالوا لهم : ﴿ **مَا أَغْنَى عَنْكُم جَمْعُكُم وَمَا كُنْتُم تَسْتَكْبِرُون** ﴾ [الأعراف : ٤٨] يعني : ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إمَّا نفي ، وإمَّا استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم .

ثمَّ نظروا إلى الجنّة فرأوا من الضعفاء الّذِينَ كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا ،ويزعمون أنَّ الله لا يختَصَّهم دونهم بفضله كما لم يختصَّهم دونهم=

وعاقبتُهم دخولُ الجنة[1].

= في الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف : ﴿ أَهَؤلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُم ﴾ أيُّها المشركون أنّه تعالى لا ينالهم برحمة !! فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون ، وفي رياضها يُحْبَرون ، ثمَّ يقال لأهل الأعراف : ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاخَوْفٌ عَلَيْكُم وَلا أَنْتُم تَحْزَنُون ﴾ .

وقيل : إنَّ أصحاب الأعراف إذا عيَّروا الكفّار وأخبروهم أنّه لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم ، عيَّرهم الكفار بتخلُّفهم عن الجنّة ، وأقسموا أنَّ الله لاينالهم برحمة، لما رأوا من تخلُّفهم عن الجنّة ، وأنّهم يصيرون إلى النار ، فتقول لهم الملائكة حينئذٍ: ﴿ أهَؤلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُم لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجنّة لا خَوْفٌ عَلَيْكُم ولا أنْتُم تَحْزَنُون ﴾ [الأعراف :٤٨] ، والقولان قويان مُحتملان ، والله أعلم " انتهى .

(١) اختلف العلماء في تعيين أصحاب الأعراف اختلافاً كثيراً ، وتعدَّدت أقوالُهم ، والذي ذَهَبَ إليه أكثر العلماء بأنهم قومٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهم وسيِّئاتهم ، فيقومون مُدَّةً على الأعراف ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بهم إلى الجنة.
قَالَ تَعَالَى في مناداةِ رجال الأعراف أصحابَ الجنة حين رأوهم وعرفوهم: ﴿وَنَادَوْا أصْحَابَ الجَنَّةِ أن سَلاَمٌ عليكُم لَمْ يَدْخُلوهَا وَهُمْ يَطْمَعُون﴾ [الأعراف:٤٦] .وقد تلا الحسَنُ البصري هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُون﴾ فقال: واللهِ ما جعل الله تعالى ذَلِكَ الطَّمع في قلوبهم إلاّ لكرامةٍ يريدها بهم سبحانه" . =

س٤٠- هل الجنّةُ والنّارُ مخلوقتان الآن؟

نعم مخلوقَتان الآن[1]، وفيهما ما قاله الله ورسوله.

= وروى الإمام أحمد في "الزهد" عن قتادة أنَّ سالِماً مولى أبي حذيفةَ رضي الله عنه كَانَ يقول: "وَدَدْتُ أَنّي بمنزلةِ أصحابِ الأعراف" أي : من الذين لم تغلب سيِّئاتُهم حَسَنَاتِهم ، بل استوَتْ حسناتُهم وسيِّئاتُهم حَتّى تشمله مغفرةُ الله تعالى ورحمته ، ويحقِّق الله تعالى له ما يَطْمع فيه وهو دُخولُ الجنة.(الإيمان بعوالم الآخرة ، للشيخ عبدالله سراج الدين ٤١٦-٤١٩) .

(١) ذهب جمهور المسلمين إلى أنَّ الجنّة والنّار مخلوقتان الآن ، واستدلُّوا بدليلين: **الأوّل:** قصة أبينا آدم عليه السلام مع زوجه حوَّاء وإسكانهما الجنّة وإخراجُهما منها بسبب الأكل من الشجرة ، وهذه القصة ذُكِرت في عدّة آيات من كتاب الله، وفيه التصريح بلفظ الجنّة ، والمُتبادَرُ من ذَلِكَ اللفظ إنّما هو دار الثواب فينصرف إليه ، حيث لاضرورة إلى العدول عنه . وقد قال سبحانه في وصف جنّة آدم: ﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوْعَ فِيْهَا وَلاَتَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لاتَظْمَأُ فِيْهَا وَلاتَضْحَى ﴾ [طه :١١٨-١١٩] . وجاء في وصف الجنة التي هي دار الثواب : ﴿لاَيَرَوْنَ فِيْهَا شَمْسَاً وَلاَزَمْهَرِيْرَاً ﴾ [الإنسان:١٣]. فإذا نظرنا إلى مجموع هذه الأوصاف ترجَّح لنا أنَّ جَنّة آدم هي دار الثواب، وإذا ثَبَتَ أنَّ الجنّة مخلوقةٌ ، فالنّار أيضاً مخلوقة ، لأنَّ القائل بخلق الجنّة قائلٌ بخلق النّار ، والمنكر لخلق الجنّة منكرٌ لخلق النّار ، ولاقائل بالفَصْل بينهما . (مذكرات في التوحيد لأبي دقيقة ، ص٢٢٣) . =

والنَّعيم والعذابُ محسوسان حقيقةً لا مجازاً(١) .

= الدليل الثاني : قَالَ الله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِـدَّتْ لِلمُتَّقِـينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ للذينَ آمنُوا باللهِ وَرُسُلِه﴾ [الحديد: ٢١] .
وَقَالَ سُبْحَانَهُ عن النار: ﴿أُعِـدَّتْ لِلْكَـافِرينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ، والشيءُ المَعَدُّ لا يكونُ إلاَّ موجوداً مفروغاً منه ، وقد رأى النبيُّ ﷺ في معراجهِ سِدْرَةَ المنتهى ، ورأى عندها جَنَّةَ المأوى ، وَمَا أعدَّ الله للمؤمنين من ألوان النعيم ، ورأى النَّارَ ، وَمَا أُعِدَّ للكافِرين من أنواعِ العذابِ الأليم.

(١) وكلُّ مَا أخبر الله من نعيمِ أهل الجنةِ وأهل النار حقائق ، وليست من باب التهويل والإيهام ، بل من بابِ الإعلام عن حقائق واقعية ، فإنَّ الله تعالى يقول في الحق ، وقوله الحق ، وقوله الصِّدق : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء :١٢٢] ، والصِّدق : هو الكلام المطابق للواقع ، والحق : هو بيانُ ما عليه حقيقةُ الشيءِ المُخْبَرُ عنه ، وكلامُه سُبْحَانَه هو الفَصْل ليس فيه هزل : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بالهَزْلِ ﴾ [الطارق :١٣-١٤] .
قال القاضي عياض في كتابه " الشفا " في بيان ماهو من المقالات كفر ١٠٧٧:٢ :" وكذلك من أنكر الجنَّة أو النار أو البعث أو الحساب أو القيامة ، فهو كافرٌ بإجماع ، للنَّصِّ عليه ، وإجماع الأمَّة على صحة نقله متواتراً ، وكذلك من اعترف بذلك ، ولكنه قال : إنَّ المراد بالجنَّة والنَّار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنىً غير ظاهره ، وأنَّها لذَّات روحانيَّة، ومعانٍ باطنةٌ ، كقول النَّصارى والفلاسفة والباطنيَّة وبعض المتصوِّفة ، =

ففي النَّار: نَارٌ مُوقَدَةٌ ، وسَلاسِلُ وأغلالٌ وغيرها على صورةِ المُسَمَّيات بتلك الأسماء في الدنيا ، وإنْ كانتِ الأُخرى أكبرَ وأفظعَ وأشدَّ وَأَخْزَى (١) .

= وزعم أنَّ معنى القيامة : الموت ، أو فناءٌ محض ، وانتفاض هيئة الأفلاك ، وتحليل العالم كقول بعض الفلاسفة " .
وقال أيضاً في الفصل المذكور ١٠٦٨:٢ :" وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النُّبوة ، ونبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ ، ولكن جوَّز على الأنبياء الكذب فيما أَتوا به ، ادَّعى في ذَلِكَ المصلحة بزعمه أو لم يدَّعها ، فهو كافرٌ بإجماعٍ ، كالمتفلسفين وبعض الباطنيَّة والروافض وغلاة المتصوِّفة وأصحاب الإباحة ؛ فإنَّ هؤلاء زعموا أنَّ ظواهر الشرع ، وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عمَّا كان ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار ، ليس منها شيء على مُقْتضى لفظها ومفهوم خطابها ، وإنَّما خاطبوا بهَا الخلق على جهة المصلحة لهم ، إذ لم يمكِّنهم التصريح لقصور أفهامهم ، فمُضمَّن مقالاتهم : إبطالُ الشرائع ، وتعطيل الأوامر والنواهي ، وتكذيبُ الرسل والارتياب فيما أَتَوْا بِهِ " انتهى .

(١) وقد جاء في كثير من الآياتِ القرآنية بيانُ شدَّةِ عذابِ جهنَّم وهولها ، وهو عذابٌ حقيقيٌّ وَصَفَهُ الله سُبْحَانَهُ بأنه عذابٌ شديدٌ ، وعذابٌ أليم ، وعذابٌ عظيم ، وعذابٌ مقيم ، وعذابٌ غليظٌ ، وعذابٌ كبير ، وعذابٌ مهينٌ ، وعذابُ الحريق ، وعذابُ السَّعير ، وعذابُ الجحيم ، وعذابُ السَّموم ، وليس ذَلِكَ من باب التوهيم أو التخييل ، فإنَّ القرآن يُخبِرُ عن =

وفي الجنَّة: اللباسُ والطِّيبُ ومُباشَرةُ النِّساء والأكْلُ والشُّربُ ، ونحو ذلك ، مثل صورةِ الَّذي في الدنيا(1) ،

= الحق والحقيقةِ الواقعةِ قطْعاً ، قال الله تعالى: ﴿**وَبِالحَقِّ أنزَلْناهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ**﴾ [الإسراء: ١٠٥] .
وكما جاءت الآيات القرآنية تُخبِرُ عن شدَّةِ عذابِ جهنم ، كذلك جاء في الأحاديث النبوية ، ففي الحديث عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **"نارُكُمْ هذه مما يوقِدُ ابنُ آدم جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءاً من نار جهنّم ، قالوا: والله إن كانت لكافية ، فقال ﷺ: "إنها فُضِّلَتْ عليها** - أي على نار الدنيا- **بتسعةٍ وستين جزءاً ، كلهنَّ مِثْلُ حَرِّها"** رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) .

(١) قال تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ** ﴾ في الدنيا ﴿**وَأُتُوا بِهِ**﴾ أي: بالرزق ﴿ **مُتَشَابِهاً**﴾ يشبه ثمار الدنيا في الاسم لا في المَطْعَم . قال الإمام النَّسفي في "تفسيره" ١:٣٥ : "وإنّما كان ثمارُ الجنّة مثل ثمار الدنيا ولم تكن أجناساً أُخَر ؛ لأنَّ الإنسان بالمألوف آنس ، وعلى المعهود أَمْيَل ، وإذا رأى ما لم يألفه نَفَر عنه طبعُهُ ، وعَافَتْهُ نفسُهُ ، ولأنَّه إذا شاهد ماسَلَفَ له به عهدٌ ، ورأى فيه مَزِيَّةً ظاهرةً، وتفاوتاً بيِّناً ، كان استعجابُه به أكثر واستغرابُه أَوْفَر ، وتكريرهم هذا القول عند كلِّ ثمرة يُرْزقونها دليلٌ على تَناهي الأمر ، وتمادي الحال في ظهور =

لكن هناك أجمل وأنقى وأكمل وأبقى (1) .

= المزيَّة، وعلى أنَّ ذَلِكَ التفاوت العظيم هو الَّذي يَسْتملي تعجبهم في كلِّ أوان " انتهى .

(١) وقد أخبر الله سبحانه عن الجنّة أنّه لا فراغَ لها ولا انقضاءَ ولا زوالَ ولا انتهاءَ ، فقال سبحانه : ﴿ **إنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَاد** ﴾ [ص:٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** ﴾ [الرعد :٣٥] أي : فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع ولا فناء ، وكذلك ظلُّها لا يزول ولا يَقْلِصُ ، وقد قال تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةٍ كثيرةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ** ﴾ [الواقعة : ٣٢-٣٣] ، والآيات في ذَلِكَ كثيرة جداً ، كقوله تعالى : ﴿ **مَا عِنْدَكُم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله بَاقٍ** ﴾ [النحل :٩٦] ، وكقوله تعالى : ﴿ **عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ [هود ١٠٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ **لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [الانشقاق:٢٥] ، أي : غير مقطوع .

قال الحافظ ابن رجب في " فتح الباري " ٦:٤٤١ ؛ في شرح قوله ﷺ : **"إنّي رأيت الجنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ منها عنقوداً ، لو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا** " :" وقوله :" **لأَكَلْتُم منه ما بقيت الدنيا** " إشارة إلى أنَّ ما في الجنّة لا ينفد ، فإنّه كلما أكل منه استخلف في الحال مثلاه ، وفي رواية أخرى : **"لأكل منه من بين السَّماء والأرض لا ينقصونه شيئاً** " ولهذا يروى =

فَبَيْن أشياءِ الدنيا وأشياءِ الآخرة فرقٌ كبيرٌ لا يُحصى مِقْدَارُه(١) .

= أنَّ الطير يمرُّ بأهل الجنّة ، فيشتهونه فيخرُّ بين أيديهم ، فيأكلون منه ما يشاؤون، ثمَّ يطير ، والكأس يشربون مافيه ثمَّ يعود ممتلئاً في الحال ، لاحَرَمَنا اللهُ ما عنده بشرِّ ما عندنا بمنِّهِ ورحمتِهِ " انتهى .

(١) قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما :" **ليس مافي الدنيا مِمَّا في الآخِرَةِ إلاّ الأسماء** " . قال المنذري في "الترغيب والترهيب" ٤:٥٦٠ : " رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد " . فلاخمر الآخرة كخمر الدنيا ، ولاحورها كنسائها، ولانار جهنّم كنارها ، والعقل يعجز عن إدراكها والإحاطة بهَا ، والخيالُ البشريُّ يعجزُ عن تمثُّل حقيقتها .

ويقول الراغب الأصفهاني في " تفصيل النشأتين " ص١٣٢:" واللذات الأخرويَّة لاتُدْرك بالعقل في هذه الدنيا ؛ لأنّه يقصُرُ عن معرفتها ، ولذا قرَّبَ الله سبحانه وتعالى تلك اللذات إلى الأذهان ، فشبَّهها لهم بأنواع ماتدركه حواسُّهم ، فقال سبحانه :**﴿مَثَلُ الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقونَ فيها أنهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسنٍ ، وَأَنهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبين ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِم﴾** [محمد :١٥].

وأعلى نعيم الجنة: رؤيةُ العبد ربَّهُ بالبصر(١).

(١) قَالَ تَعَالَى: **﴿وُجُوهٌ يومَئذٍ نَاضِرةٌ إلى ربِّها نَاظِرَةٌ﴾** [القيامة: ٢٢-٢٣] ، قال ابن عبدالبر في " الانتقاء " ص٧٣ عن ابن القاسم قال : سأل أبو السَّمْح مالكاً فقال : يا أبا عبدالله ، أيُرى الله يوم القيامة ؟ قال نعم ، يقول الله عز وجل : **﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾** .
وقال لقوم آخرين : **﴿ كَلاَّ إنَّهُم عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون ﴾** [المطففين:١٥] . وقال في " الانتقاء " في ترجمة الشافعي ص١٣٢ : " قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول في قول الله عز وجل : **﴿ كَلاَّ إنَّهُم عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون ﴾** ، أعلمنا بذلك أنَّ قوماً غيرُ محجوبين ينظرون إليه ، لا يضامون في رؤيته ، وهم المؤمنون " انتهى .
وَقَالَ تعالى: **﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُون فيهَا وَلَدَيْنا مَزِيد﴾** [ق: ٣٥] ، والمزيد: هو النظر إلى وَجْهِ الله عَزَّ وجَلَّ ، وقال: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾** [يونس: ٢٦] ، فالحُسْنى: الجنة ، والزيادة: هي النظر إلى وجْهه الكريم كما جاءَ مفسَّراً عن النبيِّ ﷺ وعن غير واحدٍ من الصحابة والتابعين.
روى مسلمٌ (٣٩٧) في كتابِ الإيمان من صحيحه عن صُهَيبٍ الرُّوميِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: "**إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قال: يقول الله تباركَ وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألَمْ تبيِّضْ وجوهَنا؟ ألَمْ تُدخِلنا الجنة ، وتُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم عَزَّ وجَلّ**". =

= وروى البخاري (٧٤٣٦) في كتاب التوحيد عن جرير بن عبدالله ﵁ عن النبي ﷺ قال:"**إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لا تُضَامون في رؤيته**".

والأحاديثُ الدَّالّة على الرؤية متواترةٌ ، رواهـا أصحاب الصِّحاح والسنن والمسانيد عن نحوِ ثلاثين صحابياً.

قال الحافظ ابن رجب في " فتح الباري " في شرحه لحديث جرير ﵁ ٣١٩:٤ : " هذا الحديث نصٌّ في ثبوت رؤية المؤمنين لربِّهم في الآخرة كما دلَّ على ذَلِكَ قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] ومفهوم قوله في حقِّ الكفّار : ﴿ **كلاَّ إنَّهَمْ عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون** ﴾ [المطففين :١٥] . قال الشافعي وغيره : لما حجب أعداءه في السخط دلَّ على أنَّ أولياءه يرونه في الرضا ، والأحاديث في ذَلِكَ كثيرة جداً، وقد ذكر البخاري بعضها في أواخر الصحيح في كتاب "التوحيد" . وقد أجمع على ذَلِكَ السَّلَفُ الصالح من الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان من الأئمة وأتباعهم ، وإنّما خالف في ذَلِكَ طوائف أهل البدع من الجهميَّة والمعتزلة ، ونحوهم ممن يردُّ النصوص الصحيحة لخيالات فاسدة، وشبهاتٍ باطلة يخيِّلها لهم الشيطان فيسرعون إلى قبولها منه " انتهى.

قال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١٦٧:٢ :" وأمَّا رؤية الله عياناً في الآخرة فأمر مُتيَقَّنٌ تواترت به النصوص ، جَمَعَ أحاديثَها الدار قطنيُّ والبيهقي ". وقال أيضاً ١١٤:١٠ :" بلى نعنِّف ونبدِّع من أنكر الرؤية في الآخرة ؛ إذ رؤية الله في الآخرة ثبتت بنصوصٍ متوافرة ". =

والمؤمنُ العاصي إذا مَاتَ بلا توبةٍ فأمرهُ مفوَّضٌ إلى الله[1] .

= وقال أيضاً ١١:٥٤ :" نعم ، ورؤية الله تعالى في الآخرة منقولة عن النبيِّ ﷺ نَقْلَ تواتر، فنعوذ بالله من الهوى ، وردِّ النَّص بالرأي ".

(١) إن شاء غَفَرَ له وعَفا عنه بفضله ، وإن شاءَ أخذه بذنوبه ، وعذَّبَهُ في النار بعَدْلِهِ ، ثُمَّ يُخْرِجُه منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهلِ طاعته ، ثُمَّ يبعثه إلى جنّته.

فأهلُ الكبائر لا يخلَّدونَ في النار إذا ماتوا وهم موحِّدون ؛ لأنَّ أصل الإيمان من التصديق بالله والمعرفة والإذْعان موجودٌ ، وفي حديثِ الشفاعة: "**أخرجوا من النَّار مَن في قلبه مثقالُ حبَّةٍ من خَرْدلٍ من إيمان**" وفيه يقول الله عَزَّ وجَلّ:"**وعِزَّتِي وجَلاَلِي لأُخرِجَنَّ من النَّارِ مَن قال: لا إله إلاَّ الله**".

وقال ﷺ: "**شَفَاعَتِي لأهلِ الكبائرِ من أُمَّتِي**" رواه أبو داود (٤٧٣٩) ، والترمذي (٢٤٣٧) ، وقال ﷺ: "**أسعدُ النَّاسِ بشَفاعَتِي يومَ القيامة مَن قال: لاَ إلَهَ إلاَّ الله خَالِصاً من قلبه**" رواه البخاري (٩٩) و (٦٥٧٠) .

قال الإمام أبو عمرو الداني في "الرسالة الوافية" ص٩٤: "ومن قولهم -أي أهلُ السنَّةِ والجماعة-: إنَّ الله سبحانه لا يغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذَلِكَ لِمُجْتَنِبِي الكفر ، وهو الّذِي أراد بقوله تعالى: ﴿**إن تَجْتَنِبوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عنه نُكَفِّرْ عنكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**﴾ [النساء: ٣١] أي: إن اجْتَنبتم أكبر ما نُهيتم عنه ، وهو الكفر بالله تعالى" انتهى.

فالتوحيدُ أعظمُ أسبابِ المغفرة ، فمن فَقَدَه فَقَدَ المغفرةَ ، ومن جاء به فقد أتى بأعظمِ أسبابِ المغفرة ، إلاَّ أنَّ العُصاةَ ومُرتَكِبِي الكبائر يستحِقُّون =

﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَّشاءُ﴾[1].

وأهلُ الجنَّة مُخلَّدونَ فيها[2]، وأهلُ النَّار مُخلَّدونَ فيها إذا ماتوا كُفَّاراً[3] ، فإن كانوا من عُصاةِ المؤْمِنِينَ يخرجون من النَّار ولو بعد حين

= الوَعيدَ المرتَّبَ على ذنوبهمْ ، كما جاءت بذلك النصوص الصَّريحة ، لا كما يقول المرجئةُ: "لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ" !!.

(1) من سورةِ النساء ، الآية: ٤٨ ، والآية: ١١٦.

(2) قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الذينَ آمنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّةِ جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيهَا أَبَدَاً﴾ [البيِّنة: ٨] ، وقد أكَّدَ الله خلودَ أهلِ الجنةِ بالتأبيد في ثمانيةِ مواضع من القرآن الكريم.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّها﴾ [الرعد: ٣٥] ، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

(3) للأدلة القطعيَّة من الكتاب والسنةِ على بقاء النار أبدَ الآباد ، وبقاء أهلِها فيها ، مثل قوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا هُم بخَارِجينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِين مِنْها وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] ، والمقيم: الدائم الثابت الَّذي لا ينتقل ولا يزول ، وقال: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِها﴾ [فاطر: ٣٦] ، وقال سبحانه :﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّمَاءِ =

= ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ودخول الجمل في إبرة الخياطة محال ، فدخول الكفار للجنة محال ، فهم مؤبَّدون في النار . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ [العنكبوت : ٢٣] أي : جنَّتي ، فيأسُهُم من دخول الجنة تأبيدٌ لهم في النَّار .

وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج :٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠] ، وقال عزَّ وجل : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ [الإسراء :٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] . فهذه الصيغة تدل على التأبيد ؛ لأنَّ ﴿ كُلَّمَا ﴾ تدلُّ على الدوام والتكرار ، وهو معنى التأبيد.

وقد أكَّدَ الله سُبْحَانَهُ خلودَ الكفَّار بلفظ التأبيدِ في النار في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، في قوله تعالى في سورة النساء :﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُم ولا لِيَهْدِيَهُم طَرِيقَاً ، إلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيْهَا أَبَدَاً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرَاً﴾ [الآية :١٦٩] ، وفي سورةِ الأحزاب: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فيهَا أَبَداً لا يَجدونَ وَلِيَّاً ولا نَصيراً﴾ [الآية: ٦٥] ، وفي سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها أبداً﴾ [الآية: ٢٣]. =

= قال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١٢٦:١٨ في ترجمة ابن بَرْهَان العكبري:"وكان يميل إلى مذهب مُرجئة المعتزلة ، ويعتقد أنَّ الكفّار لا يُخلَّدون في النار . قلت : حجَّته في خروج الكفّار هو مفهوم العدد من قوله:﴿ **لابِثِينَ فِيْهَا أَحْقَابَاً** ﴾ [النبأ : ٢٣] ، ولا ينفعه ذَلِكَ لعموم قوله تعالى:﴿ **وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾ [البقرة :١٦٧] ، ولقوله : ﴿**خَالِدِينَ فِيْهَا أَبَدَاً** ﴾ إلى غير ذَلِكَ ، وفي المسألة بحثٌ عندي أفردتُها في جزء " .

وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" ٤٢١:١١-٤٢٢ بعد أن ذكر سبعة أقوال في هذه المسألة ، ونقل الإجماع على خلود أهل النار فيها وإقامتهم على الدوام بلا موت : " قلت : وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول السابع – والمراد به : زوال عذابها وخروج أهلها منها – ونَصَرَهُ بعدَّةِ أوجهٍ من جهة النظر ، وهو مذهبٌ رديءٌ مردودٌ على قائلِهِ ، وقد أطْنَبَ السُّبْكيُّ الكبير في بيان وَهائِهِ فأجاد " انتهى .

وأمَّا قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد ، وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ [هود : ١٠٦-١٠٧] ، فقد اختُلف في الاستثناء من الخلود في الموضعَيْن ، قال العلامة الخازن في "لباب التأويل " ٣٤٥:٣ :" اختلف العلماء في معنى هذين الاسْتِثْناءين ، فقال ابن عبَّاس والضحَّاك : الاستثناء الأول المذكور في أهل الشقاء يرجع إلى قومٍ من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوبٍ اقْترفوها ، ثمَّ يخرجهم =

= منها ، فيكون استثناءً من غير الجنس ، لأنَّ الَّذِينَ أُخرجوا من النَّار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء . ويدل على صحَّة هذا التأويل ما رواه البخاري (٦١٩٨) عن عِمران بن حُصَيْن أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : " **يَخْرُجُ قومٌ من النَّار بشفاعةِ محمدٍ فيدخلون الجنَّة يُسَمَّوْن الجهنَّمِيِّين**" .

وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدةِ لَبْثِ هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنَّة ، وحاصل هذا القول أنَّ الاستثناءين يرجع كلُّ واحدٍ منهما إلى قومٍ مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوباً استَوْجَبُوا بهَا عقوبةً يسيرةً في النار ، ثم يخرجون منها فيدخلون الجنَّة ؛ لأنَّ إجماع الأمة على أنَّ من دخل الجنَّة لا يخرج منها أبداً .

وقيل : إنَّ الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء ، وهو مُدَّة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ، وهو ما بين الموت إلى البعث ، ومدَّة وقوفهم للحساب ، ثمَّ يدخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ ، فيكون المعنى : خالدين في الجنة والنار إلاَّ هذا المقدار .

وذكر الخازن أقوالاً أخرى في المراد من الاستثناء ، ثم قال :" والصحيح هو القول الأول ، ويدلُّ عليه قوله سبحانه وتعالى :﴿ **إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد**﴾ يعني : مِنْ إخراج مَنْ أراد من النار وإدخالهم الجنة " انتهى .

وقال العلامة المحدِّث المفسِّر الأصولي الشيخ عبدالله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى في كتابه " خواطر دينية " ص٢٣-٢٤ : " ويظهر لي وجهٌ لعله يكون صواباً إن شاء الله تعالى ، وهو : أنَّ الاستثناء في الموضعَيْن ليس المراد به نفي تأبيد الخلود ، بل نفي وجوبه ، وأنَّ عدمه تتعلق به القدرة =

ويدخلون الجنة[1] .

= لإمكانه ، ويرشح هذا قوله تعالى : ﴿ **إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** ﴾ ، فهو مثل قوله تعالى : ﴿ **إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** ﴾ [النساء:١٣٣] لكنه لم يَشَأْ . والمعنى : إلاَّ ما شاء ربُّك من عدم الخلود ، فله ذَلِكَ، لكنه لم يشأ ، والآية بهذا التقرير تردُّ على قولِ من زَعَمَ من المعتزلة ومَن يرى رأيهم : أنَّ خلودَ النوعين واجبٌ عقلاً ، وأنَّ عدمه لا تتعلّق به القدرة ؛ لاستحالته .

ولك أن تقول : على فرض أنَّ الاستثناء مرادٌ به نفي الخلود ، تكون الآية دالة عليه بطريق المفهوم ، لأنَّ الاستثناء من مفاهيم المخالفة كما تقرَّر في علم الأصول ، ودلالة المفهوم مُؤَخَّرةٌ عن دلالة المنطوق حسبما هو مقرَّر في مَحلِّهِ ، وعليه فدلالة الاستثناء غيرُ معمولٍ بِهَا إلاَّ من حيث التبرُّك ، لتصريح آياتٍ أخرى بتأبيد خلودِ أهل النار فيها ، وتأبيد خلودِ أهلِ الجنة فيها " انتهى .

(١) فالخلود في النار لايكون إلاَّ للكافرينَ الّذِينَ جَحَدوا وحدانية الله ، وكذبوا بماجاءت به الرُّسل من عنده ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ** ﴾ [المائدة :٨٦] .

قال العلامة الخازن في "لباب التأويل " ١:٤٣٨ :" هذه الآيةُ نصٌّ قاطعٌ في أنَّ الخلود في النَّار ليس إلاَّ للكفَّار ؛ لأنَّ المُصَاحَبَة تقْتضي المُلازَمَة كما يُقَال فلانٌ صاحب فلان يعني الملازم له " انتهى . =

= فلا يُديمُ تبارك وتعالى عذابه إلاَّ على الكافرين ، ولا يخلِّد في ناره إلاَّ الجاحدين ، كما أخبر الله تعالى: ﴿**إنَّه لا يَيْأَسُ من رَوْحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافِرون**﴾ [يوسف: ٨٧] وقال: ﴿**وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرينَ**﴾ [التوبة: ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿**رُبَمَا يَوَدُّ الّذِينَ كفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلمينَ**﴾ [الحجر: ٢] يعني إذا أذِنَ في الشفاعةِ وأخرجَ العُصاةَ من المؤمِنين من النار ، وقال في الكافرين: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافعينَ**﴾ [المدّثر: ٤٨] ، وقال فيهم: ﴿**مَا لِلظَّالِمينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ [غافر: ١٨] .

وقد دلَّتِ السنة المستفيضة أنه يخرجُ من النارِ مَن قال: لاَ إلَهَ إلاَّ الله ، وأحاديث الشفاعةِ صريحةٌ في خروجِ عُصاةِ الموحِّدين من النار .

قال الحافظ في " الفتح" ١:٢٠٢ :" الأدلة القطعيَّة قامت على أنَّ خلود التأبيد مُختصٌّ بالكافرين " انتهى .

روى البخاري في كتاب " الدعوات "(٥٩٤٥) ومسلم في الإيمان (٣٣٤) عن أبي هريرة ؓ أنَّ رسول الله ﷺ قال :" **لِكُلِّ نبيٍّ دَعْوةٌ مُسْتَجَابَةٌ يدْعُو بهَا ، وأُريد أنْ أختَبئَ دعوتي شفاعةً لأمَّتي في الآخرة** "،وفي رواية : " **فهي نَائِلَةٌ إنْ شاءَ الله من مَاتَ ولايشرك باللهِ شيئاً** ".قال الحافظ في "الفتح" ١١:٩٧ :"وأمَّا قوله :"**فهي نَائِلةٌ** " ففيه دليلٌ لأهل السنة والجماعة أنَّ من مات غير مشرك لا يخلّد في النار ولو مات مُصِراًّ على الكبائر " .

وروى البخاري أيضاً في كتاب الإيمان (٢٢) والرقاق (٦٥٦٠) ، ومسلمٌ (٣٠٤) عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ؓ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "**إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، يقولُ الله: مَن كان في قلبِه مثقالُ حبةٍ من** =

س٤١- ما القول في الدُّعَاء .. هل ينفع؟

نعم ينفع ، والبلاءَ يدفع[1]،

= **خردلٍ من إيمانٍ فأخرجوهُ ، فيُخرَجونَ قد امتُحِشُوا** -أي : احترقوا بالنار حتى انكشفَ العظم- **وعادوا حُمَماً** -أي : صاروا فحماً- ، **فيُلقونَ في نهر الحياة ، فينْبتون كما تنبُتُ الحبةُ** -أي : بذور البقلِ البرِّي- **في حميل السَّيل ، أو قال: حميَّة السيل** -أي: معظم جريه واشتداده-، وفي روايةٍ لمسلم: "**حمئة**" وهي الطينُ الأسود المنتن.

وقال الحافظ الذهبي في " سير أعلام النبلاء " ١١:٣٦٣ عند كلامه عن شُعَب الإيمان وتفاوت المؤمنين :" ودونهم عصاة المسلمين ، ففيهم إيمانٌ ينجون به من خلود عذاب الله تعالى وبالشفاعة . ألا تسمع إلى الحديث المتواتر :" **أنّه يخرجُ من النّار من في قلبه وَزْنُ ذرَّة من إيمان** " انتهى .

(١) فَإنَّ الله تعالى يقدِّرُ المقادير ، ويقدِّرُ ما يدفع بعضَها قبل وقوعِهِ ، ومن ذلك: الدعاء ، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: "**إنَّ البلاءَ والدُّعاءَ يلتقيان بين السَّماءِ والأرضِ ، فيعتلجان** -أي : يَتَصارعان ويتدافَعان- **إلى يومِ القيامة** "رواه البزار والحاكم ١:٤٩٢ ، وقال: صحيحُ الإسناد ، والطبراني في "الدعاء" (٣٣) .

فالدعاء ينفع مما نَزَل وَمِمَّا ينزل ،ولايردُّ القضاء إلاّ الدعاء .

روى الترمذي (٣٥٤٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :قال رسول ﷺ:"**إنّ الدعاء ينفعُ مِمَّا نَزَل وَمِمَّا لم ينزل ، فعليكم عِبَادَ الله بالدُّعاء**".=

= فالدعاء ينفع في الأمور النازلة بالمكاره والشدائد فيرفعها ، وينفع في الأمور التي سوف تنزل بالمكاره والشدائد فيدفعها .

وخرج الترمذي (٢١٤٠) من حديث سَلمان مرفوعا: "**لا يردُّ القضاءَ إلاّ الدعاءُ ، ولا يزيدُ في العُمُر إلاّ البرّ**" ، وَقَالَ الترمذي: حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلاّ من حديث يحيى ، ورواه ابن حِبَّان في " صحيحه " (٨٧٢) ، والحاكم في " المستدرك " ١:٤٩٣ من حديث ثوبان وصححه ووافقه الذهبي .

وَقَالَ ابن عباس: " لا ينفع الحذَرُ من القدَر ، ولكنَّ الله يمحو بالدعاء ما يشاءُ من القدر " ، وعنه قال: "الدعاءُ يدفع القدر ، وهو إذا دفعَ القدر فهو من القَدَر".

وَقَالَ الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في "الإحياء" ٤: ٢٠٢: "فإن قلتَ: فما فائدةُ الدعاء ، والقضاءُ لا مَردَّ له؟ فاعلم أنَّ من القضاء ردَّ البلاء بالدعاء ، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاء ، واستِجْلاب الرحمة ، كما أنَّ التُّرسَ سببٌ لردِّ السَّهْم ، والماءَ سببٌ لخروجِ النبات من الأرض ، وكما أنَّ التُّرسَ يدفعُ السَّهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان.. والذي قدَّر الخير قدَّره بسبب ، وكذلك الشَّرُّ قدَّر لرفعه سبباً ، فلا تناقضَ بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرتُه".

وقال العلامة سلطان العلماء العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى في " الفتاوى الموصلية " ص١٠٢-١٠٣ في جواب من يقول :" لا حاجة بنا إلى الدعاء ، لأنّهُ لا يردُّ ما قدَّر وقضى " فأجاب :" مَنْ زعم أنّا لا نحتاج إلى الدعاء =

= فقد كَذَبَ وعصى ، ويلزمه أن يقول : لا حاجة بنا إلى الطاعة والإيمان؛ لأنَّ ما قضاه الله تعالى من الثواب والعقاب لابدَّ منه ، ولا يدري هذا الأخْرَق الأحمق أنَّ الله تعالى قد رتَّب مَصَالح الدنيا والآخرة على الأسباب ، وَمَنْ تَرَكَ الأسباب بناءً على أنَّ ما سبق به القضاء لا يغيِّره لزمه أن لا يأكل إذا جاع ، ولا يشربَ إذا عطِشَ ، ولا يلبس إذا برد ، ولا يتداوى إذا مرض ، وأن يلقى الكفَّار بغير سلاح ، ويقول في ذَلِكَ كلّه : ما قضاه الله تعالى ، فإنه لا يُردُّ ، وهذا ما لا يقوله مسلمٌ ولا عاقل ، وما أَجْرئَ هذا الجنس على الجرأة على الله تعالى بإنكار الشَّرع ، وما ركَّبه الله تعالى في الطبع ، ولقد قال بعض مشايخ الضلال منهم : لا يجوز التداوي ؛ لأَنَّهُ شركٌ واعتمادٌ على الأسباب ، فكان جوابه أن لايأكل ، ولا يشرب ، ولا يلبس، ولا يركب ، ولا يدفع عن نفسِهِ مَنْ أراد قتله ، ولا عن أهله من قَصَدهم بالزنا والفواحش ؛ فبُهت الَّذِي فجَرَ ؛ والله لا يهديه وأمثاله إلى الحقِّ والصَّواب ، لجرأتهم عليه " انتهى .

وقال العلاَّمة الشيخ عبدالله سراج الدين في "الدعاء" ص٢٧-٢٨ : " إنَّ الله تعالى الَّذِي قدَّر المقدورات قدَّر لها أسباباً ، فهو سبحانه قدَّر المسبَّبات وقدَّر الأسباب ، فهو تعالى قدَّر الشِّبَعَ بسبب تناول الأكل ، وقدَّر الرِّيَّ بسبب الشُّرب،وقدَّر الولد بسبب الوَطْءِ ، وقدَّر حصول الزروع بسبب البَذْر ، وقدَّر ثمرات الشجر بسبب الغَرْس ، وقدَّر الحياة بسبب الهواء والماء والغذاء ، وهكذا دَوَالَيْكَ . فالدعاءُ هو من أعظمِ الأسباب في النفع أو الدفع أو الرفع ، والكلُّ بقضاءٍ من الله تعالى وقَدَرٍ ، فمن أنكر تأثير =

= الدعاء في جَلْب المنافع ودفع الشرور ، يلزمه إنكار جميع الأسباب وارتباط المسبَّبات بهَا ، وهذا باطلٌ شرعاً وعقلاً .

فالأسبابُ والمسبَّباتُ كُلُّهَا مقدَّرةٌ ، وبالقدر يُدفع القَدَر ، ويفرُّ من القدر إلى القدر .

فكما يدفع قدرُ الجوع بقدر الطعام ، ويدفع قدرُ الظمأ بقدر الشرب ، وقَدر المرض بقدر الدواء ، والكلُّ بإذن الله وقدره ؛ كذلك يدفع قدر البلاء بقدر الدعاء ، والكلُّ بقضاءٍ وقَدَر " انتهى.

على أنَّ نفع الدعاء لايخصُّ بإجابة عين ما دعى به ، بل الدعاء عبادةٌ تنكشفُ بهَا نقمة أو تنزل بهَا نعمة ..والإجابة تتنوَّع فتارةً يقع المطلوب بعينه على الفور ، وتارةً يتأخَّر لحكمة ، وتارةً تقع الإجابة بغير المطلوب حيث كانت الحكمة والمصلحة في غير المدعو ، كما جاء في الحديث :" **ما على الأرضِ مسلمٌ يدعو الله بدعوةٍ إلاَّ آتاه الله إيَّاها ، أوْ صَرَف عنه من السُّوء مثلَها ، مالم يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رَحِم** " فقال رجل : إذاً نكثر ، قال: " **الله أكثر** " رواه الترمذي (٣٥٦٨) من حديث عبادة بن الصامت وقال : حسن صحيح غريب ، والحاكم في المستدرك ١:٤٩٧ وصححه ووافقه الذهبي .

وفي رواية للترمذي (٣٢٦٠٢) من حديث أبي هريرة :" **فإمَّا أن يُعجَّلَ له في الدنيا، وإمَّا أن يُدَّخر له في الآخرة ، وإمَّا أن يكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا** " فظهر أن النَّفع ووصول الخير متحقِّق ، سواءٌ كان من جنس المدعوِّ به أم لا .

والاستعاذةُ باللهِ وأسْمَائِهِ وصفاتِهِ نافعةٌ نفعاً واضحاً[1]، ومع ذلك لا يُتْرَكُ تعاطي أسبابِ المنافع وتجنُّب أسباب المضارِّ ،

(١) قال ابن القيم في " الداء والدواء " ص١٠-١١ :" ولكن ها هنا أمرٌ ينبغي التفطُّن له ، وهو أنَّ الأذكار والآيات والأدعية التي يُسْتَشْفَى بهَا ويُرقى بهَا، هي في نفسها نافعةٌ شافيةٌ ، ولكن تستدعي قَبولَ المحلِّ ، وقوَّة هِمَّةِ الفاعل وتأثيره ، فمتى تخلّف الشِّفاء كان لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المحلِّ المنفعل ، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنع أن يَنْجَعَ فيه الدواء ...وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المَطْلوب ، ولكن قد يتخلّف أثرُهُ عنه ، إمَّا لضعفِهِ في نفسه ؛ بأن يكون دعاءً لا يحبُّه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيَّتِهِ عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القَوْس الرِّخْو جدًّا ، فإنَّ السَّهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً ، وإمَّا لحصولِ المانع من الإجابة : مِنْ أَكْلِ الحرام ، ورَيْن الذنوب على القلوب ، واستيلاءِ الغفْلَةِ والشَّهوة واللهو وغلبتها عليها " .
وقال أيضاً ص٢٢ :" والأدعية والتَّعوُّذات بمنزلة السلاح ، والسلاحُ بضاربه لا بحدِّه فقط ، فمتى كان السلاحُ سلاحاً تامًّا لا آفةَ فيه ، والسَّاعدُ ساعدٌ قويٌّ ، والمانع مفقود ، حصَلت به النِّكاية في العدو ، ومتى تخلّف واحدٌ من هؤلاء الثلاثة تخلّف التأثير ، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثَمَّ مانعٌ من الإجابة لم يحصل الأثر " انتهى .

وإعداد القوةِ لدفع البلاء بقَدْر الاستطاعة[1]،

(١) والله سُبْحَانَهُ أمَرَنا برعايةِ الأسباب المستطاعة فقال: **﴿يا أيُّها الّذينَ آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾** [النساء: ٧١] ، وقال تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيْلِ تُرهِبونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدوَّكُمْ﴾** [الأنفال:٦٠]. وقال: **﴿فَإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانْتَشِروا في الأرضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله﴾** [الجمعة:١٠].وقال الله تعالى: **﴿ فَامْشُوا في مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإليهِ النُّشُورُ ﴾** [الملك :١٥] . وقد جاء في الحديث عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنّ النبيَّ ﷺ قال :"**لوأنّكم تتوكّلونَ على الله حَقَّ توَكُّلِهِ لرَزَقَكُمْ كما يرزقُ الطَّير، تغدو خِمَاصاً** -أي : جياعاً- **وتروح بطاناً** " رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) ، وقال :حسن صحيح . أي : تَرْجِعُ وقد شَبِعَت وامتلأت بطونها ، فأثبتَ التوكلَ لها ، وأثبت لها السعيَ والعمل وهو الغدوُّ لرزقها . ولذلك وبَّخ عمر رضي الله عنه جماعةً من أهل اليمن كانوا يحجُّون بلا زاد، قال معاوية بن قُرَّة : لقي عمرُ بن الخطاب ناساً من أهلِ اليمن ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكّلون ، قال : بل أنتم المُتَأكّلون ، إنّما المتوكّل الّذِي يلقي حَبَّهُ في الأرض ، ثمَّ يتوكّل على الله عزَّ وجل ." رواه ابن أبي الدنيا في "التوكل" (١٠) .
قال الإمام ابن القيم في " طريق الهجرتين " ص٣٦٦ :" إنَّ رفض الأسباب جملة ممتنع عقلاً وحسًّا ، فهو محرَّمٌ شرعاً وديناً ، فإنَّ رفض الأسباب بالكليَّة انسلاخٌ من العقل والدين ، وأمَّا رفض الوقوف معها ، والوثوق بهَا ، وأنّه يقوم بهَا قيام ناظر إلى مسبِّبها فهذا حقٌّ .
=

= فمنعُ الأسباب أن تكون أسباباً قدحٌ في العقل والشَّرع ، وإثباتُها والوقوف معها وقطع النَّظر عن مسبِّبها قدْحٌ في التوحيد والتوكُّل ، والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر إلى مسبِّبها وتعلُّق القيام به : جمع بين الأمر والتوحيد، وبين الشَّرع والقدر ، وهو الكمال " .

ثمَّ قال ص ٣٦٧ :" بل حقيقة التوكُّل وكماله : مقارنته للطلب ومصاحبته للسبب ، وأمَّا توكل مجرَّد عن الطلب والسبب فعجزٌ وأمانيّ ، فتوكل الحرَّاث إنَّما هو بعد شقِّ الأرض وَبَذْرها ، وحينئذٍ يَصِحُّ منه التوكل في طلوع الزرع ، وأمَّا توكله من غير حَرْث ولا بَذْر فعجز وبطالة " انتهى .

وقال ابن القيم أيضاً في كتاب "الرُّوح" ص٥٦٥ :" والفرق بين التوَكُّل والعَجْز : أنَّ التوكُّل عملُ القلب وعبوديَّتُهُ اعتماداً على الله ، وَثِقَةً به ، والتجاءً إليه ، وتفويضاً إليه ، وَرِضاً بما يَقْضيه له ؛ لعلمِهِ بكِفَايَتِهِ سبحانه ، وحُسْنِ اختيارِهِ لعبده إذا فوَّض إليه ، مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها ، فقد كان رسولُ الله ﷺ أعظمَ المتوكِّلين، وكان يلبس لأْمَتَهُ ودرْعه ، بل ظَاهَرَ يوم أحد بين دِرْعَيْن ، واختفى في الغار ثلاثاً، فكان متوكِّلاً في السبب لا على السبب .

وأمَّا العَجْزُ : فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإمَّا أن يعطِّل السبب عَجْزاً مِنْهُ ، ويَزْعَم أنَّ ذَلِكَ توكُّل ، وَلَعَمْرُ الله إنّه لَعَجْزٌ وتَفريطٌ .

وإمَّا أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه ، غافلاً عن المُسَبِّب ، مُعْرِضاً عنه ، فإنْ خَطَر ببالِهِ لم يثْبُتْ معه ذلك الخاطر ، ولم يعلِّق قلبه به تعلُّقاً =

والقلبُ مستعينٌ بالله ؛ فاليدُ تعمل ، والقلبُ على الله يتوكَّل [١]،

= تامًّا، بحيث يكون قلبه مع الله ، وبدنه مع السبب، فهذا توكُّله عجزٌ ، وعجْزهُ توكلٌ !! .

وهذا موضعٌ انقسم فيه النَّاس طرفين ووَسطاً ، فأحد الطرفين : عطَّل الأسباب محافظةً على التوكُّل ، والثاني : عطَّل التوكُّل محافظةً على السبب. والوسط : علم أنَّ حقيقة التوكل لايتم إلاَّ بالقيام بالسبب فتوكَّل على الله في نفس السبب " انتهى .

(١) قال ابن القيم في " طريق الهجرتين " ص ٣٦٤ :" التوكل يجمع أصلين : **علم القلب وعمله : أمَّا علمه** : فيقينُه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكَّله إليه ، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذَلِكَ . **وأمَّا عمله** : فسكونُه إلى وكيله ، وطمأنينتُه إليه ، وتفويضُه وتسليمُه أمره إليه ، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه . فبهذين الأصلين يتحقَّق التوكُّل ، وهما جمَاعُه ، وإن كان التوكُّل أدخل في عمل القلب من علمه . كما قال الإمام أحمد :" التوكُّل عمل القلب " ولكن لابدَّ فيه من العلم ، وهو إمَّا شرط فيه ، وإمَّا جزءٌ من ماهيَّته ".

وقال في " الفوائد" ص٢١٣ :" وسرُّ التوكُّل وحقيقته هو : اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضرُّه مباشرةُ الأسباب ، مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعُهُ قولُهُ : توَّكلت على الله ، مع اعتماده على غيره وركونِهِ إليه ، وثقتِهِ به . فتوكُّل اللسان شيءٌ ، وتوكُّل القلب =

واللسانُ يدعو اللهَ في أوقاته ، فالشُّغْلُ الواحدُ يَخدِمُهُ الأعضاءُ الثلاثة[1] ، ولا تنافي بين وظائفها الثلاث ، هَذَا هو الشَّرع الكاملُ وبه يتمُّ المأمولُ للآملِ .

= شيء ، كما أنَّ توبة اللسان شيء مع إصرار القلب شيءٌ ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيءٌ . فقول العبد : توكّلت على الله ، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله : تُبْتُ إلى الله ، وهو مُصِرٌّ على معصيتِهِ مرتكبٌ لها " انتهى .

وقال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ٢:٤٩٧ :" وحقيقة التوكل : هو صِدْقُ اعتماد القلب على الله عزَّ وجل في اسْتِجْلاب المَصَالح ، ودفع المضارِّ من أمور الدنيا والآخرة كلِّها ، وَكِلَةُ الأمور كُلِّهَا إليه ، وتحقيق الإيمان بأنّه لايعطي ولايمنع ولايضرُّ ولاينفع سواه " . ثمّ قال ٢:٥٠٨ : "واعلم أنّ ثمرة التوكُّل : الرِّضا بالقدر ،فمن وكَّل أمورَهُ إلى الله ورضيَ بمايقْضيه له ويختاره ، فقد حقَّق التوكُّلَ عليه " .

(١) أي: القلب المتوكّل على الله ، واليد العاملة ، واللسان الذاكر.

انتهيت من خدمة هذه الرسالة وشرحها بعون الله وفضله في عِدَّة مجالس ، كان آخرها صباح يوم السبت غرة شهر الله المحرم من سنة ١٤٢٠، جعله الله عام يُمْنٍ وإيمان ، وسلامة وإسلام ، وعزٍ ونصرٍ وتمكين للمسلمين .

ثم أعدتُ النظرَ فيها وصحَّحتها وأضفتُ إليها إضافاتٍ كثيرة غُرَّة جمادى الآخرة من سنة ١٤٢٠، والحمد لله الَّذِي بنعمته تتمُّ الصالحات .

وصلى الله وسلم وبارك على سيِّدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

تقريظ العلامة الشيخ إسماعيل الصفايحي [1]

وقد قرَّظها الأستاذ الكامل ، والعلم الحلاحل ، ذو الفضيلة والشِّيَم الجليلة الشيخ إسماعيل الصفائحي القاضي الحنفي بتونس سابقاً والمدرِّس الآن بجامع السلطان بايزيد في الآستانة العليَّة ، فكتب :

الحمدُ لله الواحد ، الَّذِي ليس له والدةٌ ولا والد ، الفردُ الَّذِي يَصْمُد إليه كلُّ راكعٍ وساجد ، العزيزُ الَّذِي ليس له على أفعاله معاون ولا مُعَاضِد ، أرسل الرُّسُلَ لهدايةِ الخلقِ وإيضاحِ السُّبُلِ ، وخَتَمَهُم بسيِّدنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وعمَّم بعثته ، وأبان حجَّته ، فتمَّ بذلك المِنَّة له تعالى على العباد لهدايتهم لسبيل الرشاد ، وبعد :

فقد اتَّصلتْ صحبة مكتوبكم بتأليف حافل ، وحُبَابٍ سائل ، صغير الحجم ، غزير العلم ، ألا وهو المسمى بـ " عقيدة الإسلام " فألفيْتُها المرشدة للأنام ، والحافظة لعقائد السلف العِظَام ، كيف لا وهي نتيجة

(١) هو العلامة الشيخ إسماعيل بن محمد حمدة بن حسن الصَّفايحي ، وُلِد بتونس سنة ١٢٦٩، وانتسب إلى جامع الزيتونة سنة ١٢٨٥ ، وأحرز شهادة التطويع ١٢٩٧ ، ودرَّس في جامع الزيتونة ، وتولَّى القضاء الحنفي سنة ١٣١٥، وسافر إلى الحج ١٣٢٤ ، وقَصَدَ الشام ، ثمَّ توَّجه إلى الآستانة وأقام فيها ، وعُيِّن مدرِّساً بمدرسة الخطباء ، ومدرِّساً للحديث الشريف بجامع السلطان بايزيد ، من مؤلفاته : " ايقاظ الإخوان لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان " طُبع سنة ١٣٣٣ ، و توفي باستانبول في ربيع الأول ١٣٣٧ رحمه الله تعالى . " تراجم المؤلفين التونسيين" : ٢٣٣-٢٣٥.

فكر الأخ النصوح ، وحبيب كلٍّ من الجسد والروح الأستاذ السيد الكامل ، والعالم الفاضل الشيخ سيِّدي محمد المكّي بن عزُّوز الشريف أدام الله تعالى به النفع ، وقد اشتملت على شرح مسائل نفيسة ، منها مسألة وظيفة العقل، وأنه له حدٌّ محدود لا يتجاوزه كما قال الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض خُطبه :" لم يُطلع -أي الله تعالى- العقولَ على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته " .

وآياتُ القرآن شاهِدةٌ بذلك ، فالعقول لو تداخلت في كُنْهِ ذاته وصفاته لكانت خائضةً فيما ليس لها به علم ، ولو حُجِبَتْ عمَّا عَدَا ذلك لما أمكن الرد على النصارى القائلين بالحلول والاتحاد ، فإنَّهم متى أُلزموا بما يخالف العقول يقولون : الدين فوق العقل .

وكذلك فإنَّ القرآن الكريم مُشْتَمِلٌ على المحكم والمتشابه بالنص ، وكل أهل مذهب يستدلون ببعضه ، ويزعمون أنَّ ما أخذوا به هو المحكم، وما أخذ به خصمُهم هو المتشابه ، فالفاصلُ إنَّما يكون بالأدلة العقلية القطعية ، فلله درُّك من نحرير ، والله يديم كمالكم . والسلام من إسماعيل الصفائحي وفقه الله آمين . حُرِّر في رجب سنة ١٣٢٧.

تقريظ الشيخ محمد بن إسماعيل الصفايحي [1]

وقرَّظها نظماً نَجْل المقرِّظ السابق ، وهو الشاب الأديب والبارع الأريب المسابق لِنَيْل المعالي والمحرزُ أزمَّة التحصيل بذكائه المتلالي السيد محمد الصفايحي التونسي فقال :

الحمدلله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه:

بُشْراكُمُ يامعْشَرَ النُّجباء … برسالةٍ كالرَّوْضةِ الغنَّاءِ

فاقَتْ على الرَّوْضِ النَّضيرِ وَمَنْ به … من غادةٍ كالظَّبْيَةِ الحسناءِ

شتَّان ما بين المُضَلِّ ومَنْ هُدي … فالبَوْنُ أضْحَى بيِّنَ الآلاءِ

فَالْزَمْ أخا العِرْفانِ رَوْضَ مَعَارف … أزهارُهُ تزهُو على الزَّهراءِ

وبهِ اقتدي في كلِّ أمرٍ تهتدي … لعقيدةِ الإسلام دُون مِراءِ

واشرَبْ بهِ عَذْباً قُراحاً لم يُشَب … بِمُكدِّرٍ مِنْ عَالَمِ الأهواءِ

وإليه فارجع إنْ أتاكَ مُضَلِّل … قد ضَلَّ في جَنْحٍ من الدَّهماءِ

لم يَدْرِ صُبْحاً أشْرَقَتْ أنوارُه … مِنْ ليلةٍ كالشَّعرةِ السَّوداءِ

لم يَدْرِ ديناً أشرقَتْ أنوارُه … بالبعثةِ الميمونةِ الغرَّاءِ

لم يَدْرِ ما قدْ أنزلَ المولى على … قلبِ النبيِّ الصَّادقِ الأنباءِ

(1) هو الشيخ محمد بن إسماعيل الصفايحي ، من مؤلفاته : " الفصول المستطابة في أصول الخطابة " ألّفه بطلب من والده عندما عُيِّن مدرساً بمدرسة الخطباء، وولي بعد أبيه التدريس بمدرسة الخطباء ، وتدريس الحديث الشريف في جامع السلطان بايزيد .

السيِّدِ السَّنَدِ الَّذِي هو مُنقِذ ... من ظلمةٍ كالليلةِ الليلاءِ

فافْهَم هَدَاكَ اللهُ ما قد أُسِّسَت ... عنه الرسالةُ فهمَ ذي آراءِ

واعلم بأنَّ حَصيفَها ومُسيفَها ... هو مَرجِعُ العلماءِ والفُضَلاءِ

نِحْريرُ أهلِ زمانِهِ ومريحُهُم ... من كلِّ أمرٍ مُفْزِعِ الأكْفَاءِ

يأتي بأفهامٍ لقد عَزَّت على ... مَنْ قَدْ مَضَى من عُمدةِ العُلماءِ

ويجولُ في ميدانِ كلِّ عويصة ... فَيُرى مُبَرِّز حَلْبَةِ الهَيْجَاءِ

من غير تقييدٍ بنقل مسائل ... لم يُرْوَ فيها مُسْتَدَلُّ الرائي

للهِ ما أحلى الأُلى قد أَنْصَفُوا ... وتنصَّلوا من عُصْبةٍ عَمْياءِ

وَتَوسَّطوا في أمرِهم وَتَبصَّرُوا ... للهِ في الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ

وتبوؤا للنُّصْحِ مقصَدَ ناصح ... عَمَّت بِهِ الخَيْراتُ في الأنحاءِ

ياأيُّها العَلَم الَّذِي أهدى إلى الإ ... سلام عِقْداً عَزَّ عن نُظَراءِ

لا زلتَ حَلاَّلاً لِكُلِّ عَوِيْصَة ... وحليفَ هدىٍ لا خَليقَ هَواءِ

وإليكَ مني غادةً ترجوكُم ... عَفْواً عن التقصير في الإيفَاءِ

تدعو إليكم بالبقاءِ نشيدُها ... بُشْرَاكُمُ يَا مَعْشَرَ النُّجَباءِ

مولاي أرجو عَفْوَك عن تقصيري فإنَّها -والله يعلم- لم تتجاوز ساعتها ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

من راجي دعواتكم الصالحة : ابنكم محمد بن إسماعيل الصفائحي

حُرِّرَت بالشام ٢٦ رجب سنة ١٣٢٧ .

المحتوى

١–فهرس الآيات حسب ترتيب المصحف الشريف



٢- فهرس أطراف الأحاديث النبوية



٣- الأشعار مرتبةً على رعاية القافية

٤– الكتب ومؤلّفوها

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

❁ ❁ ❁

٥- فهرس الأعلام

❁ ❁ ❁

٦- المصادر والمراجع

١- ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ، لعبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٦.

٢- أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم ، لمحمد عوامة ، دار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الرابعة ١٤١٨.

٣- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ، لمحمد فوزي فيض الله ، مكتبة دار التراث ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤١٤.

٤- الأجوبة المرضيَّة فيما سُئِل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية ، للسخاوي ، تحقيق محمد إسحاق إبراهيم ، دار الراية بالرياض الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٥- الأجوبة المكيَّة عن الأسئلة الحجازية ، لمحمد المكي بن عزوز ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٤.

٦- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، للأمير علي بن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى١٤١٢.

٧- أحكام القرآن ، لأبي بكر ابن العربي ، تحقيق علي البجاوي ، تصوير دار المعرفة ببيروت .

٨- إحياء علوم الدين ، للغزالي ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

٩- اختيار الأَوْلى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق جاسم الفهيد الدوسري ، دار الأقصى بالكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦.

١٠- الأدب المفرد ، للبخاري ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩.

١١- الأسماء والصفات ، للبيهقي ، تصوير دار الكتاب العربي ١٤٠٥.

١٢- أصول الدين ، لجمال الدين الغزنوي ، تحقيق عمر الداعوق ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩ .

١٣– **أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن** ، لمحمد الأمين الشنقيطي، طباعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية بالرياض ١٤٠٣ .

١٤– **الأعلام** ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٤ .

١٥– **أعلام الحديث شرح صحيح البخاري** ، للخطابي ، تحقيق محمد بن سعود بن عبد الرحمن ، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ .

١٦– **إعلام الموقعين عن رب العالمين** ، لابن القيم ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ببيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٧ .

١٧– **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** ، لابن القيم ، طبعة محمد حامد الفقي ، تصوير دار المعرفة ببيروت .

١٨– **أقوال الحافظ الذهبي النقدية في علوم الحديث من كتابه "سير أعلام النبلاء"** لـمَجْد أحمد مكي ، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤١٠ .

١٩– **الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء** ، لابن عبد البر ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ، الطبعة الأولى ١٤١٧ .

٢٠– **الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحِجْر** ، لعبد الحميد طهماز ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ .

٢١– **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ، للبيضاوي ، دار الفكر ببيروت .

٢٢– **الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة** ، للحسن بن عبد الرحمن العلوي ، دار الوطن بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٢٣– **أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور** ، لابن رجب ، طبعة محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، ببيروت ١٤٠٥ .

٢٤– **الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها** ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة دار الفلاح بحلب، الطبعة الأولى ١٣٩٧ .

٢٥– **الإيمان بالملائكة عليهم السلام** ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة دار الفلاح بحلب، الطبعة الرابعة ١٤١٠ .

٢٦– **بدائع الفوائد** ، لابن القيم مكتبة القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٢ .

٢٧– **البداية والنهاية** ، لابن كثير ، مكتبة المعارف ببيروت ، الطبعة السادسة ١٤٠٥ .

٢٨– **البيان في أركان الإيمان** ، لِمَجْد مكي ، دار نور المكتبات بِجُدة، ودار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩ .

٢٩– **تسهيل الوصول إلى الثلاثة الأصول** ، للأنصاري ، شرح مجد مكي ، دار نور المكتبات بجدة ، ودار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

٣٠– **تراجم المؤلفين التونسيين** ، لمحمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي .

٣١– **الترغيب والترهيب للمنذري** ، ضبطه مصطفى عمارة ، مصورة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٦ .

٣٢– **التسهيل لعلوم التنزيل** ، لابن جُزي الكلبي ، دار الكتاب العربي ببيروت ١٣٩٣ .

٣٣– **التصريح بما تواتر في نزول المسيح** ، لمحمد أنور الكشميري ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ١٤١٢ .

٣٤– **تعريف عام بدين الإسلام** ، لعلي الطنطاوي ، دار المنارة بجدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ .

٣٥– **التعيين في شرح الأربعين** ، لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطُّوفي ، تحقيق أحمد الحاج محمد عثمان ، المكتبة المكية ، الطبعة الأولى ١٤١٩ .

* **تفسير الآلوسي** = روح المعاني .
* **تفسير ابن جزي** = التسهيل .
* **تفسير ابن عطية** = المحرر الوجيز .
* **تفسير البيضاوي** = أنوار التنزيل .

* **تفسير الخازن** = لباب التأويل .

* **تفسير الرازي** = مفاتيح الغيب .

* **تفسير الطبري** = جامع البيان .

* **تفسير القاسمي** = محاسن التأويل .

* **تفسير القرطبي** = الجامع لأحكام القرآن .

٣٦- **تفسير القرآن العظيم** ، لابن كثير ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار القبلة بجدة ، ودار ابن حزم ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

٣٧- **تفسير النسائي** ، للنسائي ، تحقيق سيد الجليمي وصبري الشافعي ، مكتبة السنة بالقاهرة ١٤١٠ .

٣٨- **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق الدكتور عبد المجيد النجار ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٨.

٣٩- **تلبيس إبليس** ، لابن الجوزي ، المطبعة المنيرية بالقاهرة .

٤٠- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ، لابن عبد البر ، طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب .

٤١- **تنــزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء** ، لأبي الحسن علي بن أحمد السبتي ، تحقيق محمد رضوان داية ، دار الفكر المعاصر ، الطبعة الأولى ١٤١٨.

٤٢- **تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبـــار** ، لابن جرير الطبري ، تحقيق ناصر الرشيد و عبد القيوم عبد رب النبي ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ١٤٠٢ .

٤٣- **التوحيد** ، لحسين والي ، مطبعة الواعظ بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٧ .

٤٤- **التوكل** ، لابن أبي الدنيا ، تحقيق جاسم الفهيد الدوسري ، دار البشائر الإسلامية ببيروت .

٤٥- **تيسير علم أصول الفقه** ، لعبد الله الجديع ، مركز البحوث الإسلامية، مؤسسة الريان ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٤٦- **ثبوت القَدَمَيْنْ في سؤال الملَكَيْنْ** ، لعبد الغني النابلسي ، صححه ونشره محمود سكر ، مطبعة الأنوار بمصر ، الطبعة الأولى .

٤٧- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ، لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٤.

٤٨- **جامع الأصول عن أحاديث الرسول** ،لابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الملاح بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ .

٤٩- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، تحقيق محمود شاكر ، دار التربية والتراث بمكة المكرمة .

٥٠- **جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثا من جوامع الكلـــم** ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١ .

٥١- **الجامع لأحكام القرآن** ، للقرطبي ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٣٨٧ .

٥٢- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رســول الله ﷺ وســـنته وأيامــه**، للبخاري ، طبعة مصطفى البغا ، دار ابن كثير ، ومكتبة اليمامة ، الطبعة الخامسة ١٤١٤.

٥٣- **جزيل المواهب في اختلاف المذاهب** ، للسيوطي ، تحقيق إبراهيم باجس، المكتب الإسلامي ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢.

* **الجواب الكافي** = الداء والدواء .

٥٤- **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر** ، للسخاوي ، تحقيق إبراهيم باجس ، دار ابن حزم ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

٥٥ - **الجوهرة الوسطى** ، لطاهر الجزائري ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٢٠.

٥٦- حاشية الصَّاوي على تفسير الجلالين ، لأحمد الصَّاوي المالكي ، مصوَّرة دار الجيل ببيروت .

٥٧- الحاوي للفتاوي ، للسيوطي ، عني بنشره جماعة من طلاب العلم، سنة ١٣٥٢ تصوير دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٢.

٥٨- حركة الأرض ودورانها ، لمحمد علي الصابوني ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١١ .

٥٩- حول تفسير سورة الفاتحة ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة الفلاح بحلب ، الطبعة الأولى ١٤١٢ .

٦٠- حول تفسير سورة الملك ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة الفلاح بحلب، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٦١- خواطر الحياة ، لمحمد الخضر حسين ، الدار الحسينية للكتاب بدمشق ، الطبعة الرابعة ١٤١٠ .

٦٢- خواطر دينية ، لأبي الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الإدريسي ، مكتبة القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ .

٦٣- الداء والدواء ، لابن القيم ، مكتبة نزار الباز ، الطبعة الثانية بمكة المكرمة ١٤١٨.

٦٤- دراسات في الشريعة الإسلامية ، لمحمد الخضر حسين ، الطبعة الأولى بدمشق ١٣٩٥ .

٦٥- الدعاء للطبراني ، تحقيق محمد سعيد البخاري ، دار البشائر الإسلامية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧.

٦٦- الدعاء ، لعبد الله سراج الدين ، دار الفلاح بحلب ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ .

٦٧- الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، للسيوطي .

٦٨- الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق أبي اليزيد العجمي ، دار الوفاء ودار الصحوة بمصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٥.

٦٩- ذو القرنين وسد الصين ، لمحمد راغب الطباخ ، المكتبة العلمية بحلب .

٧٠- الرَّحَلات ، لمحمد الخضر حسين ، جمع علي الرضا الحسيني ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ .

٧١- رسائل ابن عزُّوز ، جمع علي الرضا الحسيني ، الدار الحسينية بدمشق .

٧٢- رسائل الإصلاح ، لمحمد الخضر حسين ، دار الإصلاح بالدمام .

٧٣- رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ، لابن قيِّم الجوزية ، تحقيق عبد الله المديفر ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ .

٧٤- رسالة إلى أهل الثغر ، لأبي الحسن الأشعري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩.

٧٥- رسالة المسترشدين ، للحارث المحاسبي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثامنة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ١٤١٦ .

٧٦- الرسالة الوافية لمذاهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات،لأبي عمرو الداني ، تحقيق محمد سعيد القحطاني ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ .

٧٧- رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، لابن تيمية ، طبع مؤسسة مكة ، الطبعة الخامسة ١٣٩٦.

٧٨- الروح ،لابن القيم ، تحقيق يوسف البديوي ، دار ابن كثير بدمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٩ .

٧٩- روح المعاني ، للآلوسي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ١٤١٥.

٨٠- الروض الباسم في الذبِّ عن سنّة أبي القاسم ، لمحمد بن إبراهيم الوزير ، تحقيق علي العمران ، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

٨١- روضة الطالبين ، للنووي ، المكتب الإسلامي ببيروت ، ١٤٠٥ .

٨٢- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن قيِّم الجوزية ، تحقيق شعيب وعبد القادر أرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧.

٨٣- **الزاهر في غريب ألفاظ الإمـــام الشـــافعي** ، لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد المنعم بشناتي ، دار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩ .

٨٤- **زهر الربى** ، للسيوطي ، بحاشية سنن النسائي ، الطبعة الأولى المفهرسة، دار البشائر الإسلامية ببيروت ١٤٠٦ .

٨٥- **سلاح المؤمن في الدعاء والذكر** ، لابن الإمام ، تحقيق محيي الدين مستو ، دار ابن كثير بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٤ .

٨٦- **سنن ابن ماجه** ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٢ .

٨٧- **سنن أبي داود** ، تحقيق محمد عوامة ، الدار المكية ودار القبلة ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٨٨- **سنن الترمذي** ، ابتدأ تحقيقها أحمد شاكر ، تصوير دار الكتب العلمية ببيروت .

٨٩- **سنن الدارمي** ، مطبعة الاعتدال بدمشق ، ١٣٤٩ .

٩٠- **سنن النسائي** ، الطبعة المفهرسة بعناية عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ، الطبعة الأولى ١٤٠٦.

٩١- **سير أعلام النبلاء** ، للذهبي ، تحقيق شعيب أرناؤوط مع آخرين ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ .

٩٢- **شأن الدعاء** ، للخطابي ، تحقيق أحمد يوسف الدقاق ، دار المأمون بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ .

٩٣- **شجرة المعارف و الأحوال وصالح الأعمال والأقوال** ،للعز بن عبد السلام ، تحقيق إياد الطباع ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

٩٤- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي** ، تحقيق أحمد سعد حمدان ، دار طيبة بالرياض ، الطبعة الأولى

٩٥- **شرح صحيح مسلم** ، للنووي ، المطبعة المصرية ، القاهرة ١٣٤٧ .

٩٦- **شرح العقيدة الطحاوية** ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد الله التركي، مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ .

٩٧- **شرح المواهب اللدنية** ، للزرقاني ، المطبعة الأزهرية ١٣٢٥ .

٩٨- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، للقاضي عياض ، تحقيق علي البجاوي ، دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠١ .

٩٩- **شهادة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ** ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة دار الفلاح بحلب ، الطبعة الأولى .

١٠٠- **الصارم المسلول على شاتـم الرسـول** ، لابن تيمية ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية بيروت .

١٠١- **الصحاح** ، للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ .

* **صحيح البخاري** = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه .

* **صحيح مسلم** = المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ .

١٠٢- **صفوة البيان لمعاني القرآن** ، لحسنين محمد مخلوف ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان ١٤١٨.

١٠٣- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** ، لابن القيم ، تحقيق علي الدخيل الله، دار العاصمة بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ .

١٠٤- **طبقات الشافعية الكبرى** ، للتاج السبكي ، تحقيق محمود الطناحي ، وعبد الفتاح الحلو ، دار هجر ، الطبعة الثانية ،١٤١٣ .

١٠٥- **طريق الهجرتين وباب السعادتين** ، لابن قيم الجوزية ، تقريب صالح الشامي ، المكتب الإسلامي ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤ .

١٠٦– طلوع الثريا بإظهار ما كان خفيا ، للسيوطي ، تحقيق عصام الدين بن غلام حسين ، دار الثقافة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٤ .

١٠٧– عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ .

١٠٨– العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق رضا المباركفوري ، دار العاصمة بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ .

١٠٩– العقل والعلم في القرآن الكريم ، ليوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤١٦.

١١٠– عنوان الأريب عما نشأ في البلاد التونسية من عالم أديب ، للشيخ محمد النيفر، وتذييل واستدراك ابن المؤلف الشيخ علي النيفر ، دار الغرب الإسلامي ببيروت .

١١١– الفتاوى ، للتقي السبكي ، مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٦ .

١١٢– فتاوى ابن رشد ، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ا لمالكي ، تحقيق المختار التليلي ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٤٠٧ .

١١٣– الفتاوى الموصلية ، لعز الدين بن عبد السلام السلمي ، تحقيق إياد الطباع ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٩ .

١١٤– فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن رجب الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية ، الطبعة الأولى ١٤١٧.

١١٥– فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر ، المكتبة السلفية ، تصوير دار المعرفة ببيروت .

١١٦– فتح القدير ، للشوكاني ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، دار الوفاء بالمنصورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ .

١١٧– فضل علم السلف على علم الخلف ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق محمد بن ناصر العجمي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ١٤١٦.

١١٨– في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة السابعة عشرة ١٤١٢ .

١١٩– فهرس الفهارس ، لعبد الحي الكتاني ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٦.

١٢٠– الفوائد ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق عامر ياسين ، دار ابن خزيمة بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .

١٢١– القاموس المحيط ، للفيروزبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧.

١٢٢– قصور العقل البشري ، لقيس القرطاس ، دار الفيصل بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

١٢٣– كبرى اليقينيات الكونية ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة التاسعة ١٤١١.

١٢٤– كمال العناية بتوجيه ما في ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ من الكناية ، لأحمد رافع الطهطاوي ، مطبعة محمد أفندي مصطفى١٣١٣ .

١٢٥– الكوكب الدري المنير في أحكام الذهب والفضة والحرير ، لمحمد سعيد الباني، مطبعة المفيد بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٤٩.

١٢٦– كيف نتعامل مع القرآن الكريم ، ليوسف القرضاوي ، طبعة جامعة قطر ، مركز بحوث السنة والسيرة ، الطبعة الأولى ١٤١٧.

١٢٧– لباب التأويل في معاني التنزيل ، لعلاء الدين الخازن ، مصورة دار الفكر ببيروت ، عن طبعة المطبعة العامرة سنة ١٣٢١ .

١٢٨– لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، لابن رجب ، تحقيق محمد ياسين السواس ، دار ابن كثير بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٣.

١٢٩– لوائح الأنوار السنية شرح قصيدة ابن أبي داود الحائية ، للسفاريني، تحقيق عبد الله البصيري ، مكتبة الرشد بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٥.

١٣٠– لوامع الأنوار البهية شرح الدرة المضية ، للسفاريني ، المكتب الإسلامي ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١١.

١٣١- مجلة الأمة القطرية .

١٣٢- مجلة السعادة العظمى ، مقالات الشيخ محمد الخضر حسين ، الشركة التونسية ١٤٠٥ .

١٣٣- مجلة الكويت ، مقالات المؤرخ عبد العزيز الرشيد البداح .

١٣٤- مجلة المنار ، المجلد الحادي عشر ، سنة ١٣٢٦.

١٣٥- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية ، السنة الثالثة والسابعة .

١٣٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيثمي ، دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠٢ .

١٣٧- مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، جمع عبد الرحمن القاسم وابنه محمد ،مطابع الرياض ، الطبعة الأولى ١٣٨١ .

١٣٨- محاسن التأويل ، لجمال الدين القاسمي ، دار الفكر ببيروت ، ١٣٩٨ .

١٣٩- المحجة في سير الدلجة ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق يحي غزاوي، دار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦.

١٤٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، من مطبوعات وزارة الأوقاف بالمغرب ، وطبعة قطر.

١٤١- محمد المكي بن عزوز (حياته وآثاره) ، لعلي الرضا الحسيني ، الدار الحسينية للكتاب بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧.

١٤٢- مدارج السالكين ، لابن القيم ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥ .

١٤٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، للنسفي ، مطبوع بحاشية تفسير الخازن .

١٤٤- مذكرات في التوحيد ، لمحمود أبو دقيقة ، الجامع الأزهر ، كلية أصول الدين ، الطبعة الأولى ١٣٥٣.

١٤٥- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ، مصورة دار الفكر ببيروت ، ١٤٠٥ .

١٤٦- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن رسول الله ﷺ ، للإمام مسلم ، طبعة ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية بمصر .

١٤٧- المسند ، للإمام أحمد ، المطبعة الميمنية ، تصوير المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٥. وطبعة بيت الأفكار الدولية ، بالرياض ١٤١٩ .

١٤٨- معجم أسماء العرب ، موسوعة السُّلطان قابوس ، إشراف محمد الزبير، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١.

١٤٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لفؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ببيروت .

١٥٠- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم ، إعداد محمد بسام الزين ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٦ .

١٥١- معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي .

١٥٢- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، للذهبي ، تحقيق الأرناؤوط وبشار معروف وصالح عباس ، مؤسسة الرسالة .

١٥٣- مفاتيح الغيب ، لفخر الدين الرازي ، مؤسسة المطبوعات الإسلامية، القاهرة .

١٥٤- مفاهيم جغرافية في القصص القرآني ، لعبد العليم خضر ، دار الشروق بجدة .

١٥٥- مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داودي، دار القلم بدمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٨.

١٥٦- مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي ، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، ١٤٠٢ .

١٥٧- مِلْحة الاعتقاد ، للعز بن عبد السلام ، ضمن مجموعة متون العقائد ، دار البشائر الإسلامية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤.

١٥٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥.

١٥٩- المنتقى من منهاج الاعتدال ، للذهبي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار الفتح بالقاهرة ١٣٧٤ .

١٦٠- منحة رب العالمين على عقيدة الإمام السيوطي جلال الدين ، لمحمد بن يوسف الكافي ، مطبعة الأمة بمصر ، سنة ١٣٢٩ .

١٦١- مِنْ صِحَاحِ الأحاديث القُدسيَّة ، لمحمد عوّامة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ، الطبعة الأولى ١٤١٤ .

١٦٢- المنهاج السديد شرح جوهرة التوحيد ، لمحمد الحنيفي الحلبي ، المكتبة العلمية بحلب ، الطبعة الأولى ١٣٤١ .

١٦٣- منهاج السلامة في ميزان القيامة ، لابن ناصر الدين الدمشقي ، تحقيق مشعل الجبرين المطيري ، دار ابن حزم ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦ .

١٦٤- المنهج الإيماني للدراسات الكونيَّة في القرآن الكريم ، لعبد العليم خضر ، دار الشروق بجدة .

١٦٥- منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال كتابه "فتح الباري" ، لمحمد إسحاق كندو ، مكتبة الرشد بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٩.

١٦٦- الموافقات في أصول الأحكام ، لأبي إسحاق الشاطبي ، تعليق محمد الخضر حسين ، ومحمد حسنين مخلوف ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤١ .

١٦٧- النبأ العظيم ، لمحمد عبد الله دراز ، دار القلم بالكويت ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ .

١٦٨- النبوات ، لابن تيمية ، دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠٥ .

١٦٩- نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار ، للسفّاريني ، تحقيق عبد العزيز الهبدان ، دار الصميعي بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٦ .

١٧٠- نظرية الاتصال عند الصوفية ، لسارة بنت عبد المحسن آل سعود ، مكتبة المنارة بجدة ، الطبعة الأولى ١٤١١.

١٧١- نظرية التطور في الإسلام ، لعائشة ليمو ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الإسلامية ، دار القرآن الكريم ببيروت ١٤٠٤.

١٧٢- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير الجزري ، تحقيق محمود الطناحي، والطاهر الزواوي ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٣ .

١٧٣- نواقض الإيمان القولية والعملية ، لعبد العزيز العبد اللطيف ، دار الوطن بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٥ .

١٧٤- هدي القرآن إلى الحجة والبرهان ، لعبدا لله سراج الدين ، مكتبة دار الفلاح بحلب ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ .

١٧٥- هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكُّر في الأكوان ، لعبد الله سراج الدين ، مكتبة دار الفلاح بحلب ، الطبعة الأولى ١٤١١.

١٧٦- هيئة الناسك في أنَّ القبض في الصلاة هو مذهب الإمام مالك ، لمحمد المكي ابن عزوز ، تحقيق نَفْل مطلق الحارثي ، دار طيبة بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧.



٧-الموضوعات والأبحاث



هـذا الكتاب

«العَقِيدةُ الإسلاميَّة» رسالةٌ نافعةٌ صغيرةٌ للعلاَّمةِ المتفنِّنِ الشيخ محمَّد المكي بن عزُّوز التونسي رحمه الله، صاحب المؤلَّفات الكثيرة.

قام الأستاذ مجد مكي بالتقديم لهذه الرسالة والتعريف بمؤلِّفها، وشرحها بتفصيلٍ واستيعاب، وقد استضافَ في شرحه لهذه الرسالة طائفةً من كبار أعلام الإسلام من المفسِّرين والمحدِّثين واللغويين، وسينتقل القارىء أمام هذه المأدبة بين أطايب الكلام، وروائع الفكر، وبدائع الفوائد، وقلائد الفرائد.

وقد أفاض في كثيرٍ من تعليقاته حتَّى أصبحت مباحثَ مستقلَّة، وغدا الشَّرحُ كتاباً جديداً.

وقد حرص ـ وفقه الله ـ في تلك التعليقات على إعانة المدرِّسين في مهمَّتهم التعليميَّة، وتزويدِ المتعلمين بالزاد العلمي الأصيل.

ويمتازُ هذا الشَّرحُ بِنُدْرة النقول، وحُسْن الاختيار، والجمعِ بين الأصالة والمعاصرة، وتَجْلية معاني الإيمان، وتجديد حقائقه في القلوب والعقول.

فَجَزَاه الله خيرَ الجزاء على شَرحه النافع المفيد، وبارك في جهده، وَوَفقه للمزيد من العلم النافع والعَمَل الصَّالح.

النَّاشِر